آدم عبد الله الإلوري
مؤسس مركز التعليم العربي الإسلامي
أجيجي - نيجيريا

نسيم الصبا

في أخبار الإسلام
وعلماء بلاد يوربا

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

نسيم الصبا في أخبار الإسلام
وعلماء بلاد يوربا
آدم عبد الله الإلوري
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م
الطبعة الأولى مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٢٣٢ صفحة: ١٧ × ٢٤
رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٥٥٣٢
الترقيم الدولى I.S.B.N
978-977-225-360-9

دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة
الشئون الفنية
الإلوري، آدم عبد الله
نسيم الصبا في أخبار الإسلام وعلماء
بلاد يوربا / آدم عبد الله الإلوري.
القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١٢م.
٢٣٢ ص؛ ١٧×٢٤سم.
تدمك
٩٧٨ ٩٧٧ ٥٢٢ ٣٦٠ ٩
١- الإسلام - تاريخ
٢- الإسلام - تراجم
٢١٠,٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تِلْكَ أُمَّـةٌ قَدْ خَـلَتْ لَهَا مَا كَسَـبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤١]

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

●●●

«إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه، إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر.

وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

«العماد الأصفهاني»

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء الكتاب

إلى صاحب الأيادي البيضاء في كل مسجد ومدرسة طول البلاد، وعرضها.

إلى صاحب المدرسة التي أنشئت خصيصا لمعلمي القرآن للأطفال.

إلى صاحب الجريدة الوحيدة التي هي لسان حال المسلمين «جريدة كونكورد».

إلى صاحب الزكاة التي كانت تمتد إلى جميع النواحي في شمال نيجيريا وجنوبها.

إلى أبي بكر زمانه في بلاد يوربا.

إلى الحاج مشهود أبعولا، المولود في أغسطس ١٩٣٧م.. حقق الله رغباته، وبلغه غاياته، وأطال للمسلمين حياته.

فقل لي يا لائمي: من هو خير من هذا الرجل فأهدي إليه كتابي هذا؟.. وإلا فكن راضيًا عما فعلت، رضي الله عنا وعنكم.

ملاحظة:

لم نكتب مقدمة للطبعة الثالثة، وإنما اكتفينا بالإضافات العلمية والزيادات الفنية والتعديلات التي تأخذ بالكتاب من حضيض المحيط الإقليمي إلى أوج الأفق العالمي، وتحرره من الظروف المتطورة إلى الميدان الفسيح، لينتظم في سلك الكتب التاريخية التي تعتبر مرجعًا للبحوث ومصدراً للحقائق الثابتة.

آدم عبد الله الإلوري

●●●

مصطلحات في كتب التاريخ.. تجب ملاحظتها

الرواية: نقل الأخبار في الأقوال والأفعال من الأسلاف إلى الأخلاف، وتخص السنة النبوية.

الحكاية: وصف الأقوال والأفعال من فرد أو جماعة، وهي دون الرواية، وتخص الأولياء والعلماء الصالحين.

الأقصوصة: حكاية الأخبار القصيرة المضحكة لنيل الهداية من الناس، كأقصوصة جحا.

القصة: تتبع أخبار إنسان عظيم من نبي أو ولي أو مليكٍ أو قائد جيش أو أمة.

السيرة: سلوك الإنسان وخُلُقه ومذهبه في المعيشة والحياة.

الترجمة: ذكر نسب الرجل وأعماله في حياته من ميلاده إلى مماته.

الأسطورة: هي الأحاديث التي لا أصل لها، بل هي من نسيج الخيال، وقد تسمى حديث خرافة.

التاريخ: تعريف الحادثة التي تتعلق بالأمم والملوك والعظماء، وذكر أسباب الحادثة ودواعيها.

●●●

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

ما شاء الله.. لا قوة إلا بالله

بإذن الله تعالى وعونه وكرمه ظهرت الطبعة الأولى من هذا البحث في شوال ١٤٠٦هـ (يونية ١٩٨٦م) وبعد ظهور كتابي «الإسلام اليوم وغداً في نيجيريا» فأحدث الكتاب الأول ضجة عالية في شمال البلاد، كما أحدث الكتاب الثاني «نسيم الصبا» دويّاً في المجتمع الإسلامى بالجنوب.

ذلك لأن البحث في الأول والثاني ضرب بأصابعه حد السيف فظن بعض الأغمار أن الكاتب عمل كالباحث عن حتفه بظلفه، أو كالجادع مارن أنفه بكفه، لأن الكاتب لم يكتف بالسطحيات ولا بالإشارات واللمحات، بل غاص أعماق البحار واستخرج منها الحمأة، ونقب في الجدران ودخل من حيث لم يدخل غيره، وجاس خلال الديار وكشف عن خفايا الخبايا وغربل الأمور وميز بين النفاية والنقاية.

وقد تعود البدائيون أن يعتمدوا على التقليد وأن يقبلوا الأخبار التي لم تغربل بغربال المنطق والبرهان، وأن يصدقوا بما لم يعرض قط على ضوء التحقيق والتدقيق من الأخبار، وأن يقبلوا أقاويل الأميين قضية مسلَّمة لاشيَة فيها ولا ارتياب، كما يُقبل الوحي والتنزيل من رب العالمين.

فمن أجل تنوير عقول هؤلاء وتعويدهم على كشف النقاب عن مخدرات الأوهام، دعوت أكثرهم إلى مناقشات إيجابية، للحصول على الحقائق الثابتة، فتجاوب معي طائفة من الأخيار والأبرار وأتوا بما عندهم من الرقائق والدقائق، وآخرون منهم نكلوا وتقهقروا عن الظهور في الميدان، ولكنهم تستروا وراء الحجاب وتوعدوا أنهم سيكتبون التاريخ ولو من الهواء والهراء.

وآخرون من الشمال ركبوا رءوسهم، وكتبوا من الردود ما يبكي أو يضحك، و«شر البلية ما يضحك». لذلك تناولت البحث مرة ثالثة وزدت عليه ما يرفعه إلى الأوج

والكمال، وحذفت منه ما يتطور سريعًا من الظروف، ليصير كتابًا تاريخيّاً بمعنى الكلمة، يعتبر مصدراً للحقائق، ومرجعًا للبحوث، فجاء كيتيمة الدهر في موضوعه أو كجوهرة الدولاب في مضمونه.

شَكَرَ الله لمن راسلنا أو جاوبنا على إرسالنا، ومن قابلنا أو قابلناه في مباحثنا، ومن تحدثنا معه فأحار الجواب على محادثتنا لإظهار الحق.

هدانا الله جميعًا إلى الحق والصواب، وغفر لأولئك الأجداد والأحفاد، وجعل هذا العمل زادًا لنا يوم المعاد، إنه رءوف بالعباد، وصلى الله على نبي الرشاد، والتابعين لنهجه إلى يوم التناد..

آدم عبد الله الإلوري

●●●

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

بتصرف يسير

بسم الله المستعان وعليه التكلان، والصلاة والسلام على خير بني عدنان.

وبعد.. فإن الناس إذا درسوا التاريخ إنما يدرسون ماضيهم ليعرفوا من أين يبدأون حاضرهم، وكيف يبنون مستقبلهم.

وكان كل فريق يشمخ بأنفه عندما يسمع المغامرة والبطولة التي سبقت لأجداده وآبائه، إما لتقليدهم فيها وإما للتفاخر بهم فيها.

وعلى ذلك وجدنا من سبق إلى تدوين المغازي الأولى في الإسلام، ومنها خرج التاريخ الإسلامي الذي تسابق إلى تدوينه «أبَّانُ بن عثمان» ثم «عبد الملك بن هشام»، وغيرهما من الذين فتحوا لنا أبواب تدوين أخبار الرجال والأبطال.

وكان لكل قوم علماء يسجلون الأخبار لمن يأتي بعدهم من الأجيال، وكان يسجل الأوائل للأواخر أخبار الملوك العظماء والعلماء الأتقياء، خوفًا من اندراس العلوم وضياع الأمور بانقراض من شهدها وحضرها في كل قطر وفي كل مصر.

وكان قصص الأنبياء المذكورين في القرآن أول مفتاح الدخول في التاريخ العام، واشتهر ممن كتبوها ابن إياس في «بدائع الزهور»، ثم المسعودى في «مروج الذهب» وابن خلدون في «المبتدأ والخبر».

وأخيرًا جاء الذين كتبوا عن غرب إفريقيا كالسعدي في «أخبار ملوك سنغاى وعلمائها»، وأحمد باب في «تطريز الديباج» و«مراقى الصعود» ثم جاء السلطان محمد بللو في «تاريخ بلاد التكرور».

أما الخاص ببلاد «يوربا» فأول من كتب شيئًا فيه هو العالم الفلاني الإلوري أحمد ابن أبي بكر، ولم يستوعب بل اقتصر على أمراء «إلورن» فقط.

أما تاريخ «يوربا» العام فلم يسبقني إلى ذلك الميدان واحد ولا اثنان . . . .

وإذ رأيت أن لا بد مما لا بد منه، تكفلت الالتزام لسد ذلك الفراغ، وللتقرير للشباب، إننا اليوم أقزام، قد سبقنا عمالقة كرام.

ولما جئنا وجدنا الدنيا هينة لينة، وطوينا أخبار الرواد الأوائل في سجل النسيان كأنهم لم يخلقوا أو لم يكونوا، وفي هذا الطي والنسيان بأس وألف بأس.

أليس من المروءة في الأخلاق ومن الفضيلة في الدين، أن ننوه بفضل السابقين الذين كسونا بالرياش والفراش من المجد الذي صنعوه بأيديهم، ولم يلبسوا منه شيئًا بل عاشوا وماتوا شبه عراة.

أليس من الآداب أن نذكر بخير، الذين حرثوا الأرض وغرسوا حتى أينعت ثمارها وجئنا نحن نأكلها هنيئًا مريئًا، نركب الفارهة من الخيول والسيارات، ونسكن العالي من القصور وناطحات السحاب، ونلبس الناعم من الثياب، ونستظل من الشمس بالمظلات، ونأكل الطيب من الطعام ونشرب البارد من الشراب وعصير الفواكه. والذين سبقونا بالإيمان والعمل، جاهدوا وكافحوا، وأسعدهم في الحياة من ركب الحمار والبغال والخيول، وأغناهم مالاً من يتخذ من الأرض في صحن داره تلاًّ مرتفعًا قدر شبر أو شبرين، يفرش عليها الحصير لينام عليها، وإذا جاء المطر كان أول من يرحب به في بحبوحة داره.

والجنة التي وعدها الله المتقين واحدة، أفلا نسأل أنفسنا تحت النظر في أمرنا، وأمرهم، أي مثل الجنة التي يدخلونها؟ وأي مثلها التي ندخل نحن؟!

أفلا نخشى أن يقال لنا: ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا** ﴾ [الأحقاف: ٢٠]. . لذلك كله تقدمت إلى ما يخفف ثقل ضميري والتزمت جمع هذه الأخبار، ليحيط بها علمًا من هو دوني في العمر والعلم.

واعتمدت على ما تواتر من بضاضة وغضاضة، وما تناقله الركبان من حلو ومر، وما يدور في خلد الناس من غث وسمين، وبخس وثمين.

فلا تعجبنَّ ولا تعتبنَّ ولا تغضبنَّ لما قد سنح

ولما لاحظت ما في عالم الكتب اليوم من التباعد بين الاسم والمسمى، وبين المبنى والمعنى، تحفظت كثيراً قبل أن أختار لكتابي هذا اسمًا ليحل محل كتاب «أزهار الربا في

أخبار بلاد يوربا»، وكتاب «شفاء الربا في أخبار فقهاء يوربا» للعالم الكشناوي بن مسنى، وهما كتابان مرت عليهما سنون عجاف، كان يهيم في طلبهما الباحثون بدون جدوى.

فلا عجب . . . فالأزهار تذبل سريعًا ثم تذروها الرياح، والربا يزول بالعلاج فيصبح في خبر كان!

لذلك سميت هذا الكتاب «نسيم الصبا في أخبار الإسلام وعلماء بلاد يوربا» جمعت فيه وحده ما يطلب من الكتابين من تالد وطريف ليروح عليه الرائح ويغدو عليه الغادي كل صباح ومساء.

وألمت بما هو الضروري في موجز تاريخ كل بلد قبل الإسلام وبعد الإسلام، وذكرت العلماء الذين نشروا بها الإسلام والعلم، ولكنني لم أكن أهتم بذكر الكرامات التي اختُصَّ بها كل عالم، لأن عصر الكرامات والمعجزات قد انقضى إلى غير رجعة، ودخلنا في عصر الاختراعات والاكتشافات، فاكتفيت بذكر أسمائهم كما قال شاعر:

اذكر حديث الصالحين وسَمِّهم ... فبذكرهم تَتَنَزَّلُ الرَّحَمَاتُ

واحضر مجالسهم تنل بركاتِهم ... وقبورهم زرها إذا مَا مَاتُوا

هذا وقد اعتمدت في الروايات الشفوية على ما شاع واشتهر عند الشيوخ الكبار الذين لقيتهم منذ خمسين عامًا قبل اليوم، وكانوا فيما بين السبعين إلى التسعين من أعمارهم حينذاك، وسلكت في جمع هذه الروايات مسلك رجال الحديث في النقد والإسناد.

وإذا أنا ذكرت أشياء من أحوال الجاهلية في تلك البلاد قبل الإسلام، فإنما أفعل ذلك لمعرفة ما قبل الإسلام وما بعده على سنن المؤرخين «والإسلام يَجُبُّ ما قبله».

ثم تخيرت النقل من الكتب الإنجليزية المعول عليها في تاريخ البلاد، كما نقلت من الكتب العربية المخطوطة، وإن كانت قليلة.

ثم ذكرت شروط كتابة التاريخ عند القدماء والمحدثين مضيفًا إليها ما اكتسبته من التجارب يهتدي بها من يكتب التاريخ من أبناء بلادي ليكون ناضجًا تمامًا.

والله أسأل لنا ولهم التوفيق والهداية والقبول. . إنه سميع قريب مجيب.

آدم عبد الله الإلوري

●●●

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

في الأسس التي يقوم عليها التاريخ عند كل أمة

أفتتح بما يقول السيد أحمد الهاشمي في كتابه «أسلوب الحكيم» من هذين البيتين :

ليس بإنسان ولا عاقل مَن لا يعي التاريخ في صدره

ومن وعى أخبار مَن قبله أضاف أعماراً إلى عمره

أقول :

فالتاريخ : عمدة الحضارة ومنبع المعارف ، وهو علم وأدب ونقد وإسناد .

لهذا يجب أن يكون مصدر التاريخ عند الأمم قائمًا على المشاهدة بالعيان والمدونة بالبنان قبل مضي الأوان وقبل الذهول والنسيان .

والكتب المنزلة بوحي من الله إلى أنبيائه أكمل وأشمل مصدر للتاريخ الصحيح . .

١- فالتوراة المنزلة على سيدنا موسى أول هذه الكتب المقدسة ، ولا يضر التحريف والتغيير جوانب تاريخ اليهود المذكور في التوراة .

٢- ثم الإنجيل المنزل على سيدنا عيسى تضمن طائفة كبيرة من حياته وحياة أتباعه .

٣- وأقوم الكتب المنزلة المعتمدة للتاريخ هو القرآن الكريم ، الذي حفظه الله من التحريف والتبديل ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ** ﴾ [فصلت : ٤٢] ، كان يتناول النواحي الكثيرة من التاريخ وإن كان لا يستوعب بالتفصيل .

٤- ويلحق بالقرآن مصدر آخر ، وهو السنة النبوية قولاً وفعلاً ، على مستوى التوراة والإنجيل ، لأن كثيراً من أسفارهما لم تدون في حينهما وكذلك السنة ، فإنها ظلت مدة طويلة محفوظة في الصدور منقولة بالألسنة والأفواه ، غير أن ميزتها في شروط تدوينها لأن العلماء لما أرادوا تدوينها وضعوا لها شروطًا للقبول والرفض ، وسموها علم الإسناد في رواية الأحاديث ، وعلم الرجال في معرفة الرواة الأولين ، وعلم النقد في جرح الرجال وتعديلهم .

ومن هنا وجد علماء التاريخ في الإسلام شروطهم لكتابة العلوم والأدب والتاريخ .

التزم علماء التاريخ شروط علم السنة والحديث ، فامتازوا بها عن غيرهم من الأمم ، ومنها استنبط عبد الرحمن بن خلدون الشروط الملفقة من شروط الإمام مالك والشافعي وابن حنبل والبخاري ومسلم وغيرهم من علماء الحديث .

ولما وضع ابن خلدون هذه الشروط وسماها قواعد علم التاريخ ، أطلق الناس عليه لقب مؤسس قواعد التاريخ ، أو مؤسس فلسفة التاريخ ، قال في مقدمته المشهورة ما خلاصته ببعض التصرف :

«اعلم أن فن التاريخ عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم وأحوال الأنبياء في سيرهم وأيام الملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدنيا والدين .

فهو بذلك يحتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن النظر والتثبت اللذين يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، أو ينكبان به عن المزلات والمغالط .

لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق .

وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثّاً وثميناً ولم يعرضوا على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار ، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط» .

ويقول الأستاذ ساطع الحصرى في تعليقه على مقدمة ابن خلدون موضحًا أن ابن خلدون بنى قواعد علم التاريخ على أساسين اثنين :

أولهما: تمحيص الأخبار ، فيكون بالنظر في مبلغ صدق الرواة وأمانتهم واعتمادهم على المشاهدة أو السماع .

ثانيهما: تعليل الوقائع وهو البحث في حدوثها وأسبابها ودواعيها وما تعاقب عليها ، أما تمحيص الأخبار ، فلتمييز الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، لأن الغلط والوهم والكذب يصحب الأخبار ، ويلازمها ولكل منها أسباب :

أولها: التشيعات للآراء والمذاهب كالتعصب القبلي عند الأمم، في رفع قوم وخفض آخرين، أو التعصب الديني عند الشيعة والصوفية في اختلاق الأحاديث والكرامات.

وثانيها: عدم الثقة بالناقل وتمحيص نقله، ويرجع ذلك إلى التعديل والتجريح على قاعدة أهل الحديث.

وثالثها: تقرب كاتب الأخبار إلى أصحاب المراتب العالية كالملوك والقادة وزعماء السياسة ورؤساء الحكومات، والإطراء في مدحهم والثناء عليهم والتلبس على الناس في الوقائع والحوادث والأخبار بقصد الوصول إلى الأغراض والمنافع.

قلت:

انظر يا أخي إلى هذه الشروط والقواعد هل يخلص مؤرخ منها تمامًا؟ وإذا خلص منها فهذا هو المؤرخ الصادق، وإذا شممت منها رائحة ما عيب فالكاتب كاذب.

ومن الكُتَّاب المعاصرين من زادوا البيان والتوضيح في قواعد كتابة التاريخ: منهم الشيخ أحمد بن أبي بكر الإلوري في كتاب «أخبار القرون» -كتبه عام ١٩١٢م: «لما علمت أن فن التاريخ من فاكهة الفكاهات بالغاية القصوى وسأذكر فيها ما أخذت من النقل المبرأ من التكذيب وما سمعت ووعيت مع إيراد ما شاهدت في الزمن عيانًا ورتبته ترتيبًا حسنًا».

ويؤخذ من كلام أحمد الإلوري قاعدتان:

أولاهما: أن يأخذ كاتب التاريخ من النقل المبرأ من التكذيب.

وثانيتهما: أن يكتب ما شاهده بالعيان؛ بمعنى أنه اعتمد على فحص ما سمع ووعى قبل تدوينه وأنه كتب ما شاهد بعينه من الحوادث والوقائع.

ومن الكُتَّاب المعاصرين الذين ذكروا قواعد كتابة التاريخ الشيخ محمد الخضري في كتابه «محاضرات الأمم الإسلامية» -كتبها في ما بين عامي (١٩٢٢- ١٩٢٥م)- لأنه ذكر الإعلان بمناداة السلطان فؤاد ملكًا على مصر عام ١٩٢٣م، قال في مقدمة المحاضرات:

«يقول الأستاذ محمد الخضري في مقدمة تاريخه الجزء الأول (ص٤):

«إنا سنقدم كلمة صغيرة في أول واجب على من يكتب تاريخ أمة وفرد، لأن كثيراً ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكمًا تضيع به الفائدة من

دراسة التاريخ، فإن عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسنًا، وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة (أى عيب) حتى ما أدى منها إلى سقوط فاعله وخيبته.

وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضد ذلك، فتجعل الحسن قبيحًا، وتستنبط من الخير شراً.. ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التاريخ، ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلا نفر قليل جداً».. إلى أن قال:

«لذلك يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر تحتمل كل ما يرد على تاريخ قومه من نقد حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض» اهـ.

قلت:

إن عاطفة الحب والولاء تُعمى وتُصم عن مساوى الحبيب، وعاطفة الكراهة تُعمى وتُصم عن محاسن العدو.

يقول ابن تيمية في هذا الصدد:

«ثم إن الناس في الحب والبغض والموالاة والمعاداة، هم أيضًا مجتهدون، يصيبون ويخطئون تارة، وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه أحب الرجل مطلقًا، وأعرض عن سيئاته، وإذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقًا وأعرض عن حسناته».

هذا من أقوال أهل البدع والخوارج والمعتزلة، أما أهل السنة والجماعة فيقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع:

«هو أن المؤمن يستحق بوعد الله وفضله الثواب على حسناته ويستحق العقاب على سيئاته، وأن الشخص الواحد يجمع ما يُثَاب عليه وما يُعَاقَب عليه، وما يُحْمَد عليه وما يُذَم عليه وما يُحب منه وما يُبْغض» اهـ -قاله في «الصوفية والفقراء».

يقول الدكتور هيكل في مقدمة كتابه «حياة محمد» تحت عنوان «واجب الباحث»:

«ويجمل بنا في هذا المقام أن نذكر أن واجب الباحث ألا يثبت مسألة من المسائل وألا ينفيها قبل أن يصل من تمحيصه وبحثه إلى الاقتناع الذاتي الصحيح بأنه اطمأن كل الطمأنينة إلى الوقوف فيها على الحقيقة كاملة غير مشوبة بشائبة.

وشأن المؤرخ في ذلك شأن العالم في الأمور الطبيعية وفي غيرها من العلوم جميعًا من فلك وطب وكيمياء وغيرها مما كتب القدماء.

وإذا وجب قصد الحق والمعرفة، علينا أن ننقد وأن نمحص ما خلف المتقدمون فننفي منها ما لا يثبت أمام النقد العلمي ونثبت ما تقره قواعد هذا النقد.

فقصد الحق والمعرفة يوجب علينا مثل هذه الدقة في أمر التاريخ، فالمؤرخ ليس ناقلاً فحسب، بل هو أيضًا ناقد لما ينقل ممحص إياه لمعرفة ما ينطوي عليه من الحق، والنقد سبيل التمحيص، والعلم والمعرفة أساس هذا النقد والتمحيص».

ثم قال الدكتور هيكل في مالا يقره العلم والعقل:

«أما مضرة الروايات التي لا يقرها العقل والعلم فقد أصبحت واضحة ملموسة على طلبة العلم في الكليات والجامعات فضلا عن أساتذتها.

فمن الحق على كل من يبحث في التاريخ أن يرعى جانب الدقة العلمية في تمحيصها خدمة للحق وخدمة للإسلام وتمهيداً لما يجلوه البحث في هذا التاريخ العظيم من حقائق تنير أمام الإنسانية سبيلها إلى حضارتها الصحيحة» اهـ.

يقول شكيب أرسلان وهو ينصح الأدباء(١):

«يا إخواننا.. إننا نعرف التاريخ بالأدلة العقلية والنقلية وملاحظة لما سبق ولما لحق، واستنباط التاريخ من المقدمات، ولا نعرف التاريخ بتخرصات وافتراضات وأبنية على غير أساس.

إن التاريخ لا يكون بالظن، وإن الظن لا يغنى من العلم شيئًا، وإنما يوضع التاريخ على قواعد اليقين، ومن وضعه على الظن فقد وضعه على ما هو أوهي من بيت العنكبوت» اهـ.

●●●

---

(١) تحت راية القرآن للرافعي ص ٨٧.

مصادر التاريخ العام في العصر الحديث

إن مصادر التاريخ اليوم تنحصر فيما يأتي:

أولاً: البحث عن طبقات الأرض للعثور على الآثار التي غطتها الثلوج أو الرمال كالهياكل التي عثر عليها النقابون في مختلف البلاد، وكانت تدل على مدى حضارة أصحابها، وقد غير هذا مجرى التاريخ حتى ترك الناس اعتقادهم بقصة نوح وأولاده الثلاثة «سام، حام، يافث»، واعتقدوا بأن الإنسان يجب أن ينسب إلى الأدوار الثلاثة التي مر عليها الإنسان: دور الغابات والنباتات، ثم دور الحيوانات، ثم دور الإنسان.

وقسموا دور الإنسان إلى ثلاثة عصور: إلى العصر الحجري القديم والحديث، ثم العصر البرونزي، ثم العصر الحديدي.

ثانيًا: النقوش والصور الهيروغليفية في مدافن الأقدمين وفي جدران معابدهم في مصر وبابل وآشور(١).

ثالثًا: ما شاهده الرحالون الأولون مثل هانون القرطاجني بالقرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، وهيرودت اليونانى الملقب بأبى التاريخ بالقرن الثالث قبل المسيح، ثم رحالة العرب في عصر الإسلام كالبكرى وابن حوقل وابن بطوطة.

رابعًا: الحكايات والأساطير التي يرويها الخلف عن السلف وهي أضعفها، ومع ذلك فهي أهم مصادر تاريخ غرب إفريقيا، لذلك تحتاج إلى الفحص والنقد والغربلة الدقيقة قبل أن يُعتمد عليها كالتاريخ، فهذا الذي ندعو إليه اليوم في تاريخ نيجيريا.. فهل من مجيب؟!

***

(١) في بلاد الزنوج لعبد الله حشيمة.

المصادر التي استقيتُ منها التاريخ

كانت صلتي بالتاريخ على مرحلتين اثنتين:

المرحلة الأولى: مرحلة السماع والوعي مع الحفظ في الصدر.

المرحلة الثانية: مرحلة التدوين والكتابة والطبع والنشر.

ولقد هيأ الله لي فيهما أربعة مصادر:

المصدر الأول: سماع الأخبار ممن شاهدوها بالعيان أو سمعوها من الثقات لديهم.

المصدر الثاني: لقاء بقايا أسرة من صنعوا هذا التاريخ، سواء أكانوا أولادهم أم أحفادهم في الشمال والجنوب.

المصدر الثالث: دراسة الكتب التاريخية المشهورة لتاريخ العالم «كتاريخ الأنبياء وقصصهم، ومن أرسلوا إليهم من الملوك والأمم».

المصدر الرابع: الاطلاع على الكتب العربية المخطوطة وقليل من الكتب المطبوعة بالإضافة إلى الكتب الإنجليزية المعتمدة لتاريخ إفريقيا ونيجيريا.

أما المرحلة الأولى التي مررت عليها فهي مرحلة السماع وحاصلها كما يأتي:

١- كان والدي رحمه الله من محبي التاريخ وكان له أصحاب من مثله وكانوا يستشهدون بالتاريخ في مجالس الإصلاح بين المتخاصمين ليستخرجوا من التاريخ قواعد العادات والتقاليد كما في محاكم الرومان.

وكان يصحبني معه لأستمع إليهم دائمًا على الرغم من إرادتي وكراهتي، ولكني لا أجد بدّاً من التسليم لأمره، ومن ذلك بدأت أعرف التاريخ، وكثيراً من الأمور عفواً بلا طلب.

وسوف أكمل هذه الناحية فيما بعد للتوضيح.

٢- ثم جاء دور سماع قصص الأنبياء وسيرة النبي ﷺ وأصحابه وحكايات الصالحين

أستمع إليها في مجالس وعظ كبار العلماء ببلاد «يوربا» فاكتسبت من ذلك التاريخ العام.

فلما جاءني دور التمرين على الوعظ والإرشاد جعلت أدرس هذه القصص من كتبها لإلقائها في مجالس وعظي في رمضان وغيره، وذلك منذ عام ١٩٣٦م.

٣- ثم إني على ما تعودت عليه من تربية والدي صرت أحب العلماء وأتردد عليهم أروح وأغدو إليهم آخذاً منهم رجاء نيل بركاتهم، فوعيت منهم خلال ذلك أخبار علمائهم الذين تقدموا عليهم.

●●●

مرحلة كتابتي للتاريخ

أما المرحلة الثانية التي مررت عليها فهي مرحلة الكتابة والتدوين، ولقد دخلت في هذه المرحلة منذ عام ١٩٤٦م؛ لما كتب الله لي السفر إلى البلاد العربية ودخلت السودان العربي، وبلاد مصر العربية، والحجاز المملكة السعودية. وكثر تساؤل الناس عن نيجيريا والإسلام فيها وعلمائها وكتبهم.

وكنت أجاوبهم بأجوبة ليست كافية شافية لأن علمي في الموضوع لا يسمن ولا يغني، لذلك آليت على نفسي أن أدرس تاريخ بلادي وأكتبه، وأن أنشر ما كتبت بين الأقاصي والأداني، فبدأت في البحث منذ ذلك التاريخ، حتى أخرجت كتاب «الإسلام في نيجيريا» عام ١٩٤٨م وطبع ونشر عام ١٩٥٠م، ثم أتبعته بكتاب «موجز تاريخ نيجيريا» عام ١٩٦٢م وطبع ونشر عام ١٩٦٤م، ثم أخرجت ما هو خاص بعلماء مدينة «إلورن» تحت عنوان «لمحات البلور» عام ١٩٨٣م، ثم أخرجت أخيراً هذا الكتاب «نسيم الصبا» عام ١٩٨٦م.

وعمدتي في تاريخ الشمال بقايا أسرة ابن فودي، الذين قابلتهم في مكة المكرمة، منهم الأمير محمد بنو ولد سلطان «سوكوتو» الذي طرده الجنرال «لوغارد»، أخذت منه حقائق ووثائق، ثم الشيخ أبو بكر بن حسن الكشناوي شارح كتاب «إرشاد السالك»، ومنهم من سكنوا مدينة «ما يرنو» على مقربة شيخ طلحة ببلاد مملكة السنار القديمة كأبي السلطان الطاهر الشيخ بشير أحمد، وكانت أعمارهم تتراوح بين السبعين والثمانين.

ثم إني اعتمدت ما كتبه الشيخ عثمان والأستاذ عبد الله والسلطان محمد بللو -أبناء فودى- والوزير غطاط في تاريخهم الخاص بهم.

ثم إني استقيت معارف جمة من كتب الأستاذ الشيخ آدم نمعجي الكنوي، وكذلك استفدت من المحادثات مع الشيخ محمد ناصر كبرا والمرحوم الحاج علي كماسي والشيخ أبو بكر رمضان -من علماء مدينة «كانو»- والإمام إدريس إمام «أغيغي» من علماء «زاريا».

أما فيما يتعلق بمدينة «إلورن» فقد سبقني الشيخ أحمد بن أبي بكر في كتابه وقصائد مشايخه كمحمد ثاني وأحمد ينما ومحمد بيغورى.

وأخيراً عثرت على ما في تراث أبناء الشيخ عالم تحت عنوان «النور المصون»، كل ذلك من الكتب المدونة قبلي في تاريخ «إلورن».

أما فيما يتعلق بمدينة «إبادن» فقد سبقت كل أحد في تاريخها لأني كتبت عن «إبادن» ضمن «الإسلام في نيجيريا» عام ١٩٤٨م، وضمن «موجز التاريخ»، ثم كتب الشيخ أحمد الرفاعي ما كتبه كمذكرات في علماء «إبادن» أواخر الستينيات.

وكنت بذلك أول من كتب بالعربية «تاريخ بلاد يوربا» مع «تاريخ مدينة إلورن» والحمد لله على ذلك.

ولا أكتب طالبًا أم هاربًا، لا ملزمًا ولا مغرمًا، ولا بإيعاز من فرد أو جماعة، بل كنت ولا أزال أكتب للحقيقة.

●●●

الشروط التي أدعو إلى التمسك بها

لقد تقدم أقوال العلماء فى شروط تدوين الحديث والتاريخ، أوردناها للذين لا يعلمون، ونريد أن نزيد عليها ما يوضحها فيما يأتي:

أولاً: على من يكتب التاريخ المنقول بالأفواه عن الأميين الجهلاء أن يكتب ما شاهده بالعيان بعد أن بلغ عمر التكليف وأقله خمسة عشر عامًا، ولا عبرة بما شاهده هو وحده قبل عمر التكليف، حتى يكون معه شاهدان ممن فوقه.

ثانيًا: عليه أن ينقل التاريخ بالإسناد إلى قائله أو فاعله أو شاهده، وكثيراً ما نسمع المدلسين يقولون: قال المؤرخون، دون أن يذكروا أسماءهم وكتبهم، ودون أن يقولوا المتواتر المتفق عليه، بل يريدون إنزال خبر الآحاد منزلة المتواتر المشهور.

ثالثًا: على كاتب التاريخ أن يناقش المتواتر المعتل لا سيما الآحاد، وأن يعرض المتواتر على العقل السليم قبل أن يقبله إذا كان لم يُغربل من قبل.

رابعًا: لا يجوز للملوك ورؤساء الدول أن يكتبوا عن أنفسهم، ولا يجوز أن يقوم أحد من أسرتهم ليكتب ما زان ويستر ما شان من سياستهم، إلا إذا أمروا بجمع الوثائق والوسائل لتدوينها لمن بعدهم من غيرهم، لأن الذي يصنع التاريخ يلزمه أن يترك المجال للكاتب الحر ليكتب ما يراه من حسن وقبيح، ويحكم للحكام أو عليهم فيما فعلوا، وإلا فليس تاريخًا بل مدحًا وثناء، والتاريخ الصحيح يجمع بين الحلو والمر.

خامسًا: على من يقرأ تاريخ الملوك ورؤساء الدول، أن ينظر إلى صلة القرابة في النسب أو في الحسب أو في العمل أو في أي مجال بينه وبين من يكتب عنه، ليطمئن قلب القارئ أن الكاتب برىء من المحسوبية ومن شراء ضميره وقلمه من ملك أو شعب أو قبيلة أو أمة أو فرد أو جماعة.

وإذا أضفنا كل هذا إلى ما تقدم من الشروط والقواعد وتمسكنا بها استطعنا أن نترك التاريخ الصحيح لمن بعدنا.

***

مؤهلاتي لكتابة التاريخ

فبموجب كوني من أوائل الذين دونوا تاريخ بلاد «يوربا» بالعربية أضع نفسي المكان الذي يتفق مع مكان الذين دونوا الحديث، وأضع نفسي في الميزان الذي يطابق شروط أهل الحديث، التي اتخذ منها المؤرخون قواعد تاريخهم فأقول:

لقد تأخر المسلمون في تدوين أحاديث الرسول وأفعاله خوفًا من الالتباس بالقرآن وانطلاقًا من الحديث النبوي القائل: «لا تكتبوا عني غير القرآن».

ولكنهم بعد الأمن من اللبس اهتموا بتدوين هذه الأقوال والأفعال بعد مائة عام آخر قرن النبى ﷺ وأصحابه، ومن هنا وضعوا شروطًا لهذا التدوين لتأخره في حينه، منها علم رواية الأخبار وإسنادها إلى رجالها حتى ينتهي إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابي، ونتج من ذلك علم الرجال وجرحهم وتعديلهم، وعرض متن الحديث على ضوء القرآن والعقل، فإن وافقهما قبلوه، وإن لم يوافق تركوه.

وقد كتب كثير في السنة، ولكن أصحها وأكملها كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، وقد أخذ مالك من ألف شيخ منهم ربيعة الرأي وأبو حنيفة ونافع مولى ابن عمر ابن الخطاب.

وجاء الإمام الشافعي وأخذ عن مالك وخالد الزنجي.

ثم جاء أحمد بن حنبل وأخذ عن الشافعي وطاف بالبلاد يجمع الأحاديث النبوية.

ثم جاء البخاري ومسلم ولقيا أحمد بن حنبل وأخذا منه الأحاديث وشروط الإسناد والرواية وعلم الرجال . . . وهكذا كان أمر كُتَّاب الحديث الأوائل، هذه هي منزلة رجال الحديث.

أما منزلتي في تدوين تاريخ نيجيريا فقد قارنت بينها وبين منزلة علماء الحديث والسيرة في التاريخ الإسلامي فوجدت المنزلتين متشابهتين.

لأن قيام الدولة الإسلامية الفودوية في شمال نيجيريا كان بمطلع القرن التاسع عشر وهو عام ١٨٠٢م.

وقيام الدولة الإسلامية لأبناء صالح عالم «جنتا» كان من عام ١٨٢١م.

وخراب مدينة «عويو» عاصمة بلاد «يوربا»، وخراب كثير من بلاد «يوربا»، كان بعد قيام هذه الدولة، وبناء «عويو الجديدة»، و«إبادن» كان في ١٨٣٠ - ١٨٣٧م.

لهذا وجدت أنه ليس بيني وبين تلك الحوادث غير مائة عام، وقد سد جدي ووالدي الفراغ الذي غبت عنه، كما سده جميع من أخذت عنهم وأنا في ذلك بين منزلة الإمام مالك والشافعي وابن حنبل والبخاري ومسلم في جمع الأحاديث.

وكان جدي الأكبر عبد الله الملقب «آدي فالو» مرافقًا لـ «أتيبَا» إلى مدينة «إلورن» في عهد الأمير عبد السلام مؤسس الدولة الإسلامية، وكان جَدي الأصغر حبيب الله معهم، وإن كان شابّاً يافعا مراهقًا.

فبذلك كان جدي حبيب الله بمنزلة الصحابي الصغير للأمير عبد السلام ولـ «أتيبَا» مؤسس مدينة «عويو الجديدة»، شاهد بعض الأمور عيانًا وسمع بعضها من أبيه عبد الله، وهو كعبد الله بن عمر بالنسبة لأبيه ابن الخطاب أو كعبد الله ابن عباس بالنسبة لأبيه أو كأنس بن مالك بالنسبة لأبيه، وكان والدي عبد الباقي بمنزلة التابعي لأنه ولد حوالي عام ١٨٧١م، وبينه وبين تأسيس الدولة خمسون عامًا تقريبًا.

وكان لوالدي أصحاب على مثل حاله منهم أحمد بن أبي بكر أول كاتب لتاريخ «إلورن» وكذلك أبو بكر الصديق جيجى بن سليمان ممن يحفظ التاريخ ولكنه لا يكتب.

وقد تتلمذ جدي حبيب الله للشيخ آدم البرناوي نزيل «ألانامو» من «أوكى سنة» وتزوج ابنته حليمة التي أنجبت والدي وإخوانه، هؤلاء هم الذين غذوني بلبان التاريخ الذي أكتب اليوم.

وهم ذكروه إما بالمشاهدة بأنفسهم أو بالسماع من الذين شاهدون، وكانوا ثقة لا يتهمون بالكذب لأنهم خارج الدوامة.

ثم اتصلت بأقران والدي في مدينة «عويو» ومدينة «إبادن» وكانوا أقرب الناس إلى ما يتعلق ببلادهم، وكانت أعمارهم حينذاك تتراوح فيما بين السبعين والثمانين وذلك في أوائل الأربعينيات.

وقـد انقرضـوا اليـوم جـمـيعـًا ، وربما نستـدرك من بعض أولادهـم صبـابات أو آثار وشذرات الأقوال .

ولقـد أوردت جـمـيع هذه المبـادئ وهذه المقـدمـات وهذه الشـروط وهـذه القـواعـد ، ليهتدي بهـا طلاب الحقيقة لتنوير الجيل الصاعد ، ثم ليدرك أهل الإنجليز أن العلم ليس مقصوراً أو محصوراً تحت إطار لغة ما ، من اللغات الأوربية ، بل كان في العربية مواد دسمة لسائر العلوم ، منها علم التاريخ ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذا أوان الشروع في المقصود . .

●●●

موقع بلاد يوربا الجغرافي

تقع بلاد «يوربا» بالجنوب الغربي من نهر النيجر وتمتد من حدود هذا النهر شمالاً وشرقًا، حتى تكتسح الأراضي المنحدرة جنوبًا إلى المحيط الأطلسي، وتحدها غربًا بلاد الداهومي (بنين الحاضرة).

وتمتاز أراضيها بالتلال والمرتفعات والأراضي المكسوة بالحشائش الطفيفة والشجيرات القصيرة فيما يلي النهر، كما يمتاز الجزء الجنوبي المنحدر إلى المحيط بالغابات الكثيفة والباسقات الطويلة التي تربي الحيوانات الضارية من الفيول والأسود والثيران والأفاعي الطويلة والحشرات السامة.

يقل العمران قديمًا في الجهات الغابية ولا يعمرها غير الأقزام الصغار الذين ذكرهم الرحالون الأولون أنهم سكان شواطئ إفريقيا (وهم الزنوج)، ولا يعرف التاريخ من أين جاءوا حتى سكنوا شواطئ غرب إفريقيا.

هل هم الحلقة المفقودة من جنس الإنسان الغابي الذي توسط بين القرد والإنسان؟ أم هو جنس قائم بنفسه كإنسان «أورانغ أو تانغ»؟ أو غير ذلك؟ ويكثر العمران للجنس القوقاسي العالي كلما اتجهنا إلى الشمال.

لذلك قالوا: إن منطق التاريخ يقتضي أن يستفيض الناس من الشمال إلى الجنوب، ولا ينتقل الناس من الشمال إلى الجنوب إلا فرارًا من العدو أو اضطرارًا من ضيق، أو قحط، أو نحوه.

ومما امتاز به بلاد «يوربا» جبال عالية طويلة كجبال «إبى تى» في ولاية «عويو»، وكجبال «أدنرى» في ولاية «أوندو»، وجبل «أولوما» بـ«أبيكوتا» في ولاية «أوغن»، وبعض هذه الجبال أحجار كريمة من رخام ومرمر تعمل الحكومة لاستخراجها، وفي البعض الآخر كنوز طبيعية سوف يكتشف ما فيها قريبًا.

ويتصاعد من بعضها الدخان كأنها توقد النار بداخلها، ويظهر في بعضها أحيانًا أنواع خلق الله كالجان.

هذا الذي حمل بعض الجهلاء على أن يقولوا إن بينهم وبين هذه الجبال صلات، ويتفجر من بعض هذه الجبال ينابيع فياضة تنقلب في مجراها نهيرات مثل «عوشن» في بلاد «أوشوبو»، يقيم أهلها في أول موسم الأمطار عيدًا، يفعلون فيه كما يفعل الأقباط للنيل في مصر قديمًا، وفي الجهات الغابية أشجار عالية كشجر «تمردى» يقدسونها وينسبون لها خرافات.

●●●

من عقائد اليرباويين في جاهليتهم

لليرباويين عقائد صحيحة خلطوها بالعقائد الباطلة .

منهـا : أنهم يؤمنون بـوجـود الله وأنه رب السـماء والأرض ، ولكـنه أناب عن نفسـه الآلهة في الأرض ، كما أناب عن نفسه الملوك في الدنيا والأرض .

ويعتقدون بالجزاء على الأعمال من رب السماء والأرض ، ولكنهم خلطوا في أمر الجزاء الدنيـوي والأخـروي ، لأنـهم كـانـوا يعتـقـدون بـالمسـخـية ويزعـمـون أن الفـيـلة أو التمـاسيح والـثعـابين كـانوا أناسًا ثم مسـخـهم الله ، ويعتـقد بعـضـهـم بوجـود الصلة والقرابة بينهم وبين تلك الحيوانات ، إما لأن جدهم الأعلى تولد منها ، أو انقلب إليها بسبب من الأسبـاب ، ثـم إنهم يعتـقدون بتناسخ الأرواح وذلك بانتقـال أرواح الأجداد والآباء إلى أرواح الأحفاد والأبناء .

ومن غـريب عقـائدهم أنهم يعتقدون بوجود مـا يسمـونه «أبيكو» ومعناه الطفل الذي يولد ثم يموت ثم يولد بالتكرار ، يزعـمون أن مثل هذا الطفل يولد فيموت بعد شهـور أو أعوام قليلة ، ثم يولد ثم يموت ، ثم يولد ثم يموت ، وإذا سئمت أمه من هذا التعب المكرر طلبت من الكاهن السـاحر أن يتدخل في الأمر ، فيأتي الكاهن على جثة الطفل بعد موته الأخير ويعمل فيه سحره ، ثم يؤثر على عضـو من أعضـائه من إحدى أصـابع اليدين أو الرجلين ثم يدفن الطفل .

وإذا حملت الأم ووضعت وجدوا في أعـضـاء المولود ذلك الأثر ، فبـذلك يـعـيش ولا يموت كما سبق حتى يكبر .

وكان موت الأطفال يحدث كثيراً قبل حكم الإنجليز وبعده بقليل ، وكانت الأمراض الموروثة من الأبـوين أحد أسبـاب موت الأطفـال ، كـمـا كـانت قلة النظافة وقلة العناية بمبادئ الصحة بادية المعالم في كل بلد وقرية وذلك كله من أسباب موت الأطفال .

ولما فتحت المستوصفات والمستشفيات أعرض الناس عنها في أول الأمر ، ولما أقبلوا عليها وجدوا فوائدها بأن قلت الأمراض وقل مع قلتها موت الأطفال ، رجع الناس عما كانوا يعتقدونه في المولود المكرر الذي يموت طفلاً .

ولهم أيضًا عقائد غريبة في التوأمين لا نطيل بذكرها هنا خوفًا من الخروج بعيدًا عن موضوعنا، غير أنه بي أمر مهم يجب أن نقوله قبل الانتقال إلى أبواب أخرى للكتاب.

***

مسألة المرأة العاينة

إن من اعتقاد اليرباويين حتى اليوم مسألة المرأة العاينة التي تمتص دماء الأطفال والمرضى، يوجد هذا الاعتقاد في جميع الشعوب الإفريقية، ولكنه عند اليرباويين أشد وأرسخ إذ يقل من لا يعتقد بصحتها من سائر طبقات الناس، وكادوا يقولون إنه لا بد من وجود امرأة عاينة واحدة من بين عشر نسوة ويسمونها «طير سوء»، لأنها غالبًا تستعمل طير البوم في امتصاص دماء الناس.

ومسألة العين والنظرة معروفة في جميع الأمم، ولكنها لا تختص بالنساء، كما يقولون هنا إنهما في الرجال قليل وفي النساء كثير، وفي العالم إنها في الرجال كثير.

يقول الديربي في مجرباته (ص٨٧):

«اعلم أن العين حق وقد ورد فيها أحاديث عن النبي ﷺ منها حديث: «**العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**»، وقال: «**العين تدخل الجمل القدر والرجل القبر**»... ثم قال الديربي:

«وهي وإن كانت حقّاً لا تعد مهلكًا عادة على أن التأثير يقع عندها لا بها، ومن ثَمَّ قيل إنها تنبعث منها جواهر لطيفة غير مرئية فتتخلل المسام من البدن فيخلق الله تعالى الهلاك عندها» أهـ.

وعند علمائنا ترياق هذا السم من الآيات والعزائم مضافًا إلى بعض العروق والأعشاب ضد العين والنظرة.

***

ديانة يوربا في جاهليتهم

إذا كان القرآن قد ذكر اللات والعزى ومناة بأنها آلهة العرب في الجاهلية، وذكر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام أنها رجس من عمل الشيطان، ثم أوضح أن البحيرة

والسائبة والوصيلة والحام افتراء الكذب على الله، فإني لم أر باسًا في ذكر عقائد «يوربا» وعباداتهم وآلهتهم في جاهليتهم ليعرف القارئ ما أجحف به الإسلام وما تبقى منه لنعمل على محوه إطلاقًا فنقول:

لليرباويين وثنيات تمليها عليهم آلهتهم المتعددة ليعبدوها من دون الله، بعضهم يعبدون البحر أو النهر يسمونه «عويا» ويلحق بهم من يعبدون الشجر والمدر، وبعضهم يعبدون الرعد ويسمونه «زنغو» ويلحق بهم من يعبدون الشمس والقمر، وبعضهم يعبدون الحيوانات كالفيل والتمساح والثعبان على عقيدة «طوطم» عن طريق النشأة أو التحويل.

ويشتقون أساميهم من هذه الآلهة لكي يتميزوا بها، وكل اسم بدأ بـ«أوغن» فإنه يدل على من يعبد الحديد، ومنهم الحدادون والمحاربون.

وكل اسم يبدأ بـ«عويا» فهم يعبدون البحر وأكثرهم سكان الشواطئ وهكذا. ولا يزال مسلمو «يوربا» يحملون هذه الأسماء الوثنية ولا زلنا نحاربها فيهم حتى يتركوها. وهي: ﴿**بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ**﴾ [الحجرات: ١١]. انظر ذلك في كتابنا «الإسلام وتقاليد الجاهلية».

ومن أشهر أعياد «يوربا» عيد الغول الذي لا يخلو منه أي بلد يرباوي (يسمونه عيغن) وكانوا يعبدون فيه أرواح آبائهم وأجدادهم ويريقون الدماء على قبورهم إذا عرفوها، وذلك أن يقوم واحد من خلفهم يتنكر برقاع الملابس المبرقشة ويحمل على رأسه جمجمة من جماجم الموتى مغموسة بالسم زاعمًا أنه هو جدهم الأعلى جاء إلى الدنيا ليزورهم ويباركهم ويأخذ منهم هداياهم، فهم بدورهم يجمعون الهدايا والقرابين لهذا الزائر ليرجع بها إلى الآخرة وليعيش بها هناك إلى العام القابل، وإذا أحسنوا إليه فوق العادة رجع ليعيش في الدنيا فيولد من جديد من أحد خلفه.

فالغول اليرباوي لا يتجاوز ستة أقدام، بقدر طول قامة الرجل، أما غول أهل «لاغوس» فيمتاز بالملبوس الأبيض الفضفاض ويسمونه «عييو» بمعنى عيد الفرح حيث يحيى بعضهم بعضًا بكلمة «افرح لي أفرح لك».

وللنوفاويين غول طويل يبلغ ارتفاعه اثنتى عشرة قدمًا وذلك بأن يستوي الرجل على طرطور ثم يغطي جميع بدنه من رأسه إلى قدميه، أو يستظل بطبق مركوز على أربعة عصى يحمله من أسفل، ثم يغطي ذلك كله بلباس طويل يستر رأسه إلى قدميه.

ولا يزال اليرباويون يقيمون هذا العيد في كل عاصمة من عواصمهم، ويزعمون أنه لم يبق عيداً وثنيّاً بل صار عيداً وطنيّاً لمجرد التسلي أو للانتقام من الخصم كما يتنكر الأوربيون والأمريكان للتلصص والاغتيال حسبما يشاهد في أفلام السينما والتليفزيون.

يقام هذا العيد غالبًا في فترة سبعة أيام متوالية، ويحمل كل غول بيده سوطًا يضرب به معارفه إذا لقيه على سبيل التلاعب، وإذا اغتاظ هذا وأراد المخاصمة كشف الغول عن وجهه لغريمه فيسكن الغيظ فيفترقان على الضحك.

وأكثر الناس عرضة لسوط الغول هم الصبيان والنسوان إذا لم يهربوا أمام الغول في الطريق العام.

إذ يضرب الغول كل من لم يحترم الميت الذي عاد للدنيا أو لم يحترم الكبير، يقول العرب في أمثالها: «ثلاثة لها أسماء وليس لها أشخاص: هي الغول والعنقاء والخل الوفي».. أليس من المضحكات أن يوجد الغول في بلاد «يوربا» يغتال النسوان والصبيان والسذج.

●●●

عيد هُورُوه

العيد الثاني في الانتشار بين عموم «يوربا» هو عيد هوروه.

فهو عيد يهددون به البسطاء السذج، يقومون به في غسق الليل وجنح الظلام، لا يسمحون للولدان والصبيان أن يحضروه.

وإذا أقاموا هذا العيد نهاراً حرموا على الناس الخروج من بيوتهم في ذلك النهار، فيغلق الناس أبوابهم على بيوتهم إلا من كان عضواً في الجمعية السرية لهذا العيد.

وكيفية «هوروه» أن يبروا قلمًا قصيرًا عريضًا يثقبون طرفه الأعلى ويربطون حبلاً طويلاً ينتهي بعصا قصيرة، وإذا رفرفوه أحدث صوتًا رهيبًا بقدر سرعة الرفرفة.

ويعظم الهول إذا كان القلم من الحديد الثقيل بدلاً من الخشب أو الحطب، وإذا اجتمع عدد كبير على فعل ذلك بالليل أو بالنهار أحدثوا إزعاجًا رهيبًا، وأدخلوا في قلوب من يسمع الصوت رعبًا كأن القيامة تقوم.

وإذا أرادوا اغتيال خصم لهم توجهوا إليه جميعًا في داره وقتلوه بالليل، وإذا أصبح الصباح قالوا: اختطفه الذي سموه «هوروه».

ويحكي شيخنا آدم نمعجي الكنوي في كتابه «الاكتشاف المفيد» ما يشبه هذا الأمر حيث قال حكاية عن أحمد بن أمير بلد «كتنغوره» يعملونه بالليل: «إن أهل مدينة «ياوري» لهم نوع من الشرك إذا أرادوا أن يعملوه نهوا عن الخروج تلك الليلة، ثم يعمدون إلى شجرة عظيمة معروفة بين الناس، فيقطعونها عن أصلها ويصيرونها قطعًا قطعًا ويدفنون تلك الأقطاع والأوراق ولا يتركون منها شيئًا ويتركون موضعها قاعًا صفصفًا، ثم في الصباح يشيعون بين الناس أن الصنم ابتلع تلك الشجرة» اهـ.

أقول:

إنما يفعلون ذلك بالشجر ليستدلوا به على قوة الصنم في ابتلاع أى إنسان جنى أو أهان بالصنم.

وربما استدل بعض الناس بهذا على أن أهل «ياورى» و«اليرباويون» نزحوا من أصل واحد، ولكني أقول: يجوز أن يكون الأمر بسبب التقارب أو التجاوز.. والله أعلم

أصل قبائل يوربا

كانت الروايات الشفوية المنقولة عن الأسلاف إلى الأخلاف على التواتر تقول: إن جد اليروباويين الأعلى نزل من السماء وهبط في «إليفى» هو وزوجته، ومن هناك انتشر أبناؤه في جميع أنحاء العالم على نحو قصة آدم وحواء، ولا يزال البسطاء وأنصاف العلم من سكان مدينة «إليفي» وما جاورها من البلاد يحملون في صدورهم هذا الاعتقاد.

فقالوا: إن جدهم الأعلى اسمه «أودودوا» بمعنى العظيم الخالق للوجود ابن (أودوماري) أي ابن الخالق المبدع للكون، وزوجة «أودودوا» اسمها «ماري مى» تحريف «مريم»، وقد اطلع «أودودوا» على الكون فوجده بحراً محيطًا بالأرض، فجاء بقبضة تراب من السماء ورمى بهذه القبضة على البحر فتجمد.

ثم قال لها: اتسعي أيتها الأرض، ومن هنا سمى المكان متسع الأرض «إليفي» بمعنى أن هذا المكان مبدأ اتساع اليابس من المياه.

أما سكان مدينة «عويو» الواقعة قريبًا من بلاد «برغو» على جنوب «النيجر» التي تقع بلاد غانة ومالى وسنغى شمالها، فإنهم يقولون: إن جدهم الأعلى نزح من الشرق، إما من مكة، أو من مصر، أو من بلاد النوبة والبربر بمصر العليا، فساروا بعيداً حتى وصلوا هذه البلاد، غير أنهم ضاعت منهم سلسلة نسبهم ولم يحتفظوا بشيء غير قولهم: نحن أبناء «يوربا» المحرف من «يعرب».

هذا الذي تقرر عندهم قبل الإسلام، ولما جاءهم الإسلام وسمعوا من العلماء أخبار ملوك الدنيا القديمة كنمروذ وإبراهيم وشعيب نبي مدين الذي لجأ إليه موسى من فرعون، وسمعوا بأخبار النبي محمد ﷺ وجهاده المشركين وتطهير الكعبة من الأصنام، وما كان من أمر الكاهن سطيح تخبطوا خبط عشواء، وخلطوا تاريخهم مع التواريخ الثلاثة، ولم يدركوا الفرق[1]: وقالوا: إن جدهم الأعلى من عشيرة نمروذ طرده النبي ﷺ من مكة إلى هذه البلاد عند الفتح الإسلامي، ثم اقتفي أثره شعيب مع نسخة من القرآن فقتلوا شعيبًا هناك وأخذوا منه مصحفه فاتخذوه صنمًا يعبدونه.

---

(١) انظر تاريخ يوربا، لصمويل جونسن، الفصل الأول، ص ٣، ٤.

ولعل الداعية الذي ذكر «أرنولد توماس» أنه دخل «إليفى» في القرن الحادي عشر ومعه مصحفه، هو الذي أطلقوا عليه اسم شعيب صاحب المصحف الموروث بعد موته، والله أعلم.

ذلك الذي انتشر وذاع بين قبائل «يوربا» في الزحف الإسلامي الأول حتى جاء عصر الشيخ محمد بن مسني الذي نقل من الناس هذا الكلام في كتابه «أزهار الربا في أخبار بلاد يوربا».

وقد نقله السلطان محمد بللو في «إنفاق الميسور»، كما نقله عنه الأسقف النصراني صمويل جونس كاتب «تاريخ يوربا» بالإنجليزية، وسيأتي ذلك في عدد الذين كتبوا عن بلاد «يوربا».

***

أجناس يوربا

أولاً: إذا بحثنا في بطون التاريخ عن السكان الأصليين لشواطئ غرب إفريقيا منذ خمسة آلاف سنة وجدنا أن الرحالين الأوائل أخبروا بوجود أجناس الزنج الصغار، الذين تطلق عليهم كلمة «نيغرو» المحرفة إلى «أناغو» ثم إلى «نيجر»، إذا بحثنا ذلك ووجدناه صحيحًا متفقًا عليه سلمنا جدلاً أن سكان مدينة «إليفى» التي يزعم أهلها أنها المهد الأول للإنسان وعلى الأقل المهد الأول لليرباويين، لا شك أن يكونوا «نيغرو» أي الأقزام السود هم الأصل قبل أن يهاجمهم أجناس آخرون من الشمال كالبرابرة، والنوبة، والعرب، فامتزج البعض بالبعض وتكون منهم الأجناس الحاضرة.

ثانيًا: إذا نظرنا إلى قول القائلين بأن السكان الأولين هم الزنوج الذين لا يعرف الناس من أين جاءوا ومتى جاءوا إلى غرب إفريقيا!!

عرفنا السبب الذي حمل الجهال على القول بأنهم نزلوا من السماء وأنهم أصل البشر.

ثالثًا: وإذا نظرنا إلى ناحية القول بأن قومًا هاجروا من مصر إلى هذه البلاد، ووجدنا في تاريخ مصر أن قومًا استعمروا مصر وكانوا عربًا يسمون الملوك الرعاة الهيكسوس ثم طردهم المصريون منها ونزلوا أرض السودان وأسسوا مملكة النوبة، ثم طردهم المسلمون منها في الفتح الإسلامي واستفاضوا إلى ما حول النيجر وكانوا يعيشون هناك كما كانوا

يعيشون حول النيل . إذا نظرنا إلى ذلك كله فهمنا ما يقول الذين قالوا إنهم أتوا من الشرق أو من مصر .

لقد أخبر مؤرخو قبائل «يوربا» بثبوت علاقات القرابة بين البربر ، والنوبة ، واليوربا .

ومن قبائل النوبة انحدرت قبيلة «نوفي» ، ومن قبائل البربر انحدرت قبيلة «بربا» و«برنو» ، ومن قبائل العرب انحدرت قبيلة «يوربا» .

ولهذا أثبت القول بأن أجناس «يوربا» الحاضرة تكونت من عناصر أربعة : من العنصر الزنجي (النيغرو) ، ثم العنصر النوبي -أي النوبة ، ثم العنصر البربري- أي البرنو والبربا ، ثم العنصر العربي اليعربي .

والغريب أن بعض الناس يكاد يتميز من الغيظ عندما يسمع من ينسب «اليوربا» إلى العرب ، ولا يغتاظ من ذلك غير أحد الرجلين : رجل ممتلئ بالتعصب الديني النصراني ، ورجل آخر ممتلئ بالتعصب القبلي .

فتجد أحدهم يقول : إن قبائل «يوربا» من أصل يهودي ، ويلجأ يطلب دليلاً لكلامه من اسم «يربعام بن سليمان» ، وهذا زعم باطل منهار من القواعد لأسباب :

منها : أن تقاليد «يوربا» تختلف تمامًا عن تقاليد اليهود ، فاليهود يحملون العصا ويتبعون البقر ، وليس هذا من تقاليد «يوربا» ، بل يوجد ذلك من تقاليد الفلانيين .

فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار خير الأمم ، وليس هذا من اعتقاد اليورباويين بل من اعتقاد الفلانيين حتى الآن ، ورأيت الشيخ «ألفا هاشم» الفوتي المتوفي بالمدينة يقول في كتابه «تعريف الخلاف بعشائر وقبائل الفلان» : إن الفلانيين من قريش ومنهم فلانًا وفلانًا ، أمر النبي ﷺ بحرقهما بالنار ثم قال : «لا تحرقوهما بالنار» ، ثم رجع وأمر بقتلهما .

واليهود ليس لهم آلهة سوى «يهوه» واليوربا لهم آلهة متعددة كالعرب في الجاهلية حيث قالوا : ﴿ **أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِداً** ﴾ [ص : ٥] ، ﴿ **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ** ﴾ [ص : ٧] .

واليهود أحرص الناس على حفظ تقاليدهم أنَّى توجهوا وحيث سكنوا لا يرتضون بغيرها بديلاً .

ومن عادات العرب وتقاليدهم أن يذوبوا في المجتمع الذي يعيشون فيه وكذلك يفعل اليورباويون، ومما بقي في قبائل «يوربا» من عادات العرب وتقاليدهم ما يأتي:

أولاً: بقاء كمية كبيرة من اللغة العربية في لغة «يوربا» إلى اليوم.

ثانيًا: نكاح زوجة الأب الذي سماه القرآن «نكاح المقت» حيث كان الولد يرث امرأة أبيه الصغيرة بدون مهر جديد كما يفعل العرب في جاهليتهم.

ثالثًا: حضور الأسواق في الأفراح والأتراح في موكب مع الشعراء كما يفعل العرب في أسواقهم بمنى وعكاظ وذي المجاز.

رابعًا: نصب رئيس كل قبيلة ملكًا أو قيلاً، فبذلك تعدد الملوك بعدد القبائل على مثل ملوك الطوائف عند العرب قبل أن يوحدهم الإسلام.

خامسًا: عدم توريث الابن عند وجود أخي الميت، لأن الأخ عندهم عاصب وهو المسئول عن الأسرة والعائلة، لذلك يجمع الميراث كله، مثل عادات العرب حتى نزل عليهم القرآن بأحكام الميراث.

قال المعرى:

ولو كتموا أنسابهم لعزتهمو وجوه وفعل شاهد كل مشهد

ومن يريد أن ينفي كل هذا فليأت بأدلة ينسب بها «يوربا» إلى حيث يريد.

***

الذين كتبوا عن جنوب النيجر وبها بلاد يوربا

لو شئنا أن نبحث عن بلاد «يوربا» في بطون الكتب التاريخية العامة، لم نستطع أن نضع أيدينا تمامًا على مكانها إلا إذا ألقينا الكيل جزافًا وأطلقنا القول على عواهنه، فيما في جنوب النيجر ومعظم أهلها من اليوربا.

فالذين كتبوا عن جنوب غانا ومالي وسنغى قد أشاروا إلى تلك الناحية بما تشمئز عنه نفوسنا اليوم من الصفات، وقد تواطؤوا على ما كتبوا حتى لا يمكن تكذيبهم فيها.

فلا بد من التسليم للواقع وربما تغالوا فيه، وزادوا، وربما كتبوا عن مشاهدة أو عن سماع، والأخبار غالبًا تزيد وتنقص، ومع ذلك فقد تقرر ما كتبوا وتناقله الركبان.

فاسمع ما قاله ابن الوردي في «خريدة العجائب» وهو من أهل القرن الثامن الهجري: «أرض الزنج وهي مقابل أرض السند، وهم أشد السودان سوادًا، وكلهم يعبدون الأوثان، ويحاربون راكبين على البقر وليس في بلادهم خيل ولا جمال، ويقال إن ملكهم يركب في ثلاثمائة ألف راكب كلهم على البقر.

والنيل ينقسم فوق بلادهم، وأكثرهم يحددون أسنانهم ويبردونها حتى ترق، ويبيعون أنياب الفيلة وجلود النمر، ولهم جزائر يخرجون منها الودع ويتحلون به ويبيعونه فيما بينهم بثمن له قيمة، ولهم ممالك واسعة» اهـ.

قلت:

تصدق هذه الصفات على قبائل «يوربا» القدامى وعلى جميع جيرانهم في جنوب النيجر من غانا ومالى وسنغى وبلاد هوسا.

ذلك ما قاله ابن الوردى فاسمع ما قاله ابن خلدون في المقدمة:

«أما الجزء الأول من هذا الإقليم، ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه، ويسمى نيل السودان، ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أولئك[1].

وعلى هذا النيل مدينة «سلا» و«التكرور» و«غانة»، وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالى من أمم السودان، وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى، وبالقرب منها من شماليها بلاد «لمتونه» وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها.

وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم «لملم» وهم كفار يكتوون في وجوههم وأصداغم، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب، وكلهم عامة رقيقهم وليس ورائهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسي أقرب إلى الحيوان الأعجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف، ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة، وربما يأكل بعضهم بعضًا وليسوا في عداد البشر» اهـ.

●●●

(١) المعلوم أن النيجر يصب في البحر المحيط بخليج بنين في نيجيريا الحاضرة، وأن منبع النيجر من جبال سيراليون وفوتا السنغالية ثم يمر على بلاد التكرور وغانا العليا ومالي وتمبكتو إلى أن يلتقي به نهر بنوى في ثغر لوكوجا قبل أن يصب في المحيط بنواحى خليج بنين.

تعليقنا على ما كتبوا

نريد أن نُعلق على ثلاثة أمور مما ذكروه:

أولها: وصفهم الموقع الجغرافي لبلاد «يوربا».

وثانيها: قصة نبع النيل والنيجر في جبل القمر وما يلحق بها.

ثالثها: قصة أكل لحوم البشر في تلك النواحي.

الأول: في الموقع الجغرافي، فقول ابن الوردي: إن بلاد الزنج مقابل بلاد السند فغير مفهوم. لو قال: إن بلاد السند مقابل بلاد الهند لسلمنا بذلك جدلاً.

وكذلك قوله: إن أرض «كانم» تقع على شاطئ النيل، والحقيقة إن أرض «كانم» تقع على شاطئ بحيرة شاد، لا على شاطئ النيل أو النيجر.

الثاني: قصة نبع النيل والنيجر في جبل القُمُر: لقد جرى عليها الفليكون القدماء الذين يذكرون البلدان التي تختلف خطوط طولها وعرضها ليذكرونها في حيز واحد، كما أنهم كانوا يسمون النيجر بالنيل على أنهما نهر واحد، وقصة نبع النيل من جبل القمر فيها غلطان كبيران.

أولهما: أنهم كانوا يزعمون أن نيل مصر ونهر النيجر كانا ينبعان من معين واحد، من الغرب، أو من جبل القُمُر الذي بين خطي العرض الثامن والسادس شمال خط الاستواء، وقد عاش الناس طويلاً على هذا الوهم وهذه الأسطورة.

ولم تبطل الأسطورة إلا بعد تمام كشف منابع النيل الذي قام به «جيمس بروس» الإنجليزي عام ١٧٧٠م، وأكمله من جاء بعده، وظهر أن منابع النيل كان من أرض كونغو.

وثانيهما: أسطورة منبع النيجر من جبل القُمُر قد بطلت بعد كشف «منغو بارك»، و«لاندر»، و«كلا باتن» عام ١٨٢٥م فظهر الحق وبطل ما كانوا يزعمون.

فظهر أن النيجر ينبع من جبال سيراليون وفوتا السنغالية، ثم يمر على بلاد غانا ومالي وتمبكتو، إلى أن يلتقي به نهر ينوى في ثغر «لوكوجا» قبل أن يصب في المحيط بنواحي «خليج بنين».

أما ثالثة الأمور التي نعلق عليها: فتتخلص في قصة لحوم الآدميين، فهي تحتاج إلى شرح طويل وبيان عريض كالآتي:

قصة أكل لحم البشر

القصص العجيبة والأخبار الغريبة التي يقرأها الناس في كتب التاريخ القديم، يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام:

قسم خيالي: مستحيل الوقوع، ولكن الذين اخترعوه أرادوا به ترويج كتبهم نظراً لأن الناس كانوا مولعين بالأخبار العجيبة المبكية منها والمضحكة.

ومن هذا القبيل قصة بدء الخلق وتصوير شكل الأرض وما حولها، من جبل «قاف» وقد اعترف ابن الوردي في فاتحة كتابه «خريدة العجائب» بعدم صحة جميع ما يقال في ذلك عند قوله:

«ومعلوم أن الكتب الموضوعة بين الناس في هذا الغرض لم تخل من خلل والتباس، فإن ذلك أمر موهوم ولكنه وهم حسن» اهـ.

قلت:

هذا في القصص الخيالية. أما في القصص الواقعية، فقد قرر ابن خلدون في المقدمة: «أن أحوال البشر لا تدوم على وتيرة واحدة، بل تنتقل من حال إلى حال»، وقال: «من الغلط الخفي في التاريخ، الذهول عن تبديل الأحوال في الأمم والأجيال، بتبدل الأعصار ومرور الأيام» اهـ.

أقول:

معناه إن كثيراً من أحوال بلاد الزنج أصبح اليوم في خبر كان.

وقسم ثان: ليس مستحيلاً وقوعه، ولكنه نادر، ويكتبونه لتأسيس الإيمان وتشحيذ الأذهان وتلقين الحجج والبراهين، مثل ما في نوادر الأدباء والحكماء والملوك، ونوادر القليوبي، وأخبار جحا المضحك الشهير.

وقسم ثالث واقعي: لكنه غريب لا يكون إلا في جهة معينة من البلاد كقصة طول الليل ستة أشهر وطول النهار ستة أشهر في القطب الشمالي والجنوبي وقد ذكرها الأولون وحقق العلم والعيان وجودها في هذا الزمان.

وكذلك وجود جبال وأنهار تمتاز بصفات غريبة، وعيون خاصة توجد في مختلف الجهات في العالم.

وقسم رابع عرضي زائل: يقع في عصر من العصور، ثم يرتفع ويصير في خبر كان، كسماع وجود الذهب والعاج والعبيد في سواحل غرب إفريقيا، أو كوجود أكلة لحوم البشر فيها.

ولقد كتب عن ذلك المسعودي وابن خلدون وابن بطوطة أنهم يوجدون في بلاد الزنوج، ويطلب الإنسان أين يوجد هؤلاء القوم فلا يجد لهم خبرا ولا أثراً في بلاد الزنوج التي تحولت إلى بلاد النيغرو (نيجيريا).

أما قول ابن خلدون: «إنهم ليسوا في عداد البشر»، فرحم الله عبد الرحمن ولو كان حيّاً في زماننا هذا لسألناه عن مراده:

هل كان يعتقد بوجود إنسان الغاب الذي ليس في عداد البشر؟!

أم هل كان يعتقد بالإنسان الوحشي الذي يأكل اللحوم ولا يأكل الثمار والنباتات؟!

أم هل كان يعتقد بأن القرد أصل الإنسان وأن القرود يأكل بعضهم بعضًا حتى لا يعتبرون في عداد البشر؟!

ويجب أن لا يغرب عن بال أن مثل هذه الوحشية قد مرت على جميع البشر قبل أن ينبذوها ولم يتفرد بها الزنوج وحدهم.

بل يوجد في غيرهم من الأمم وفي غير أرضهم من البلاد، في عصورها القديمة المتوغلة في أعماق التاريخ.

وإذا زال اليوم في العالم فعلى القاعدة التي ذكرها هو نفسه في تبدل الأحوال بتبدل الأعصار ومرور الأعوام.

***

الذين كتبوا عن بلاد يوربا على التعيين

أولا: أول ما عرف الناس مكتوبًا عن بلاد «يوربا» هو رسالة كتبها أحد علماء

«كاشنة» محمد بن مسني المتوفي عام ١٠٧٨هـ، سماها «أزهار الربا في أخبار بلاد يوربا» وذلك حوالي أربعمائة سنة مضت بالتقريب.

غير أننا لم نعثر على عين الرسالة، وإنما عثرنا على أثرها عند السلطان محمد بللو في كتابه «إنفاق الميسور».

على أن السلطان بللو الذي كتب عن قبائل غرب إفريقيا عمومًا لم يذكر مصدرًا لنفسه في تاريخ تلك القبائل، مثل ما ذكر لقبائل «يوربا»، مع أنه كتب عن «برنو».

وقد كتب ابن فرتوا لقبائل «برنو» أيام إدريس ألوما، مما لم يذكر السلطان مرجعًا ولا مصدرًا لتاريخ «كانو» و«كاشنة» وغيرهما.

ويستنبط المؤرخ وجود الإسلام والعلماء المسلمين في بلاد «يوربا» في عهد ابن مسني، وإلا فكيف تسنى له أن يعرف أحوال بلاد «يوربا» وهو في أواسط بلاد «هوسا»؟! ، فلا سبيل له في معرفة ذلك إلا عن طريق العلماء المسلمين الموجودين ببلاد «يوربا»، وسواء أكانوا غرباء أو كانوا مواطنين من أبناء البلاد.

ثانيًا: وكتب ذلك الشيخ ابن مسني كتابًا آخر اسمه «شفاء الربا في أخبار فقهاء بلاد يوربا».

ويشك بعض الناس في أمر الكتاب الثاني وحمله على نفس الكتاب الأول، ولكن قرينة الحال تنبئ عن وجود الكتاب الثاني «شفاء الربا في أخبار فقهاء بلاد يوربا».

فيكون ابن مسني كتب هذا الكتاب ليستدل به على مصادر علمه عن بلاد «يوربا».
وقد حقق كبار علماء مدينة «إبوو» في أخبارهم المتواترة عندهم أن العلماءالبرناويين والكشناويين قد اتخذوا قرية «عوبابا» قرب مدينة «إيوو» مركزهم يعلمون الناس القرآن والعلوم الدينية، ولماسمع سلطان «إيوو» بخبرهم استحضرهم لديه وقدم لهم هدايا ثمينة وطلب إليهم أن ينتقلوا من تلك القرية إلى مدينته فقبل العلماء ذلك وحضروا.

فصار أهل «إيوو» يطلقون على هذا السلطان لقب «ألا هوسا» بمعنى «صاحب هوسا»، وهذا السلطان هو جد السلطان «محمد لامويى» أول من ولد في الإسلام بمدينة «إيوو» حوالى عام ١٧٠٠م، وقبله والده «أنيدى»، وهذا التاريخ قريب من أيام ابن مسني كاتب «تاريخ يوربا».

ثالثًا: ثم عرف الناس ما كتب أحمد بابا التمبكتي الذي عاش ما بين عامي (٩٧٥-١٠٢١هـ). كتب في كتابه «معراج الصعود» وفي كتاب «الكشف والبيان في أصناف مجلوب السودان» والكتابان مخطوطان بيد العلماء ونقتطف لك ما في «الكشف والبيان»:

«ومن يقدم عليكم من «موشى» و«غرما»، و«بوشى» و«برغو» و«دوغمبا» و«كتوكولى»، و«يوربا» وأمثالهم، كلهم كفار ما زالوا على كفرهم إلا من كان على ضعف إسلامهم» اهـ.

قلت:

ذكر أحمد بابا أسماء القبائل في نيجيريا وما حولها ومنها قبائل «يوربا»، ثم أطلق عليهم القول بأنهم كفار، ثم رجع وقال: إلا من كان على ضعف إسلامهم.

ومعنى ذلك أن فيهم مسلمين وإن كان الغالب عليهم أنهم كفار وأن ملوكهم كفار والناس على دين ملوكهم، وقد أصدر هذا الحكم على أهل زمانه في القرن العاشر الهجري، وذلك قريب من أيام ابن مسني..

رابعًا: ثم كتب السلطان بللو بن عثمان بن فودي عن بلاد «يوربا» ضمن كتاباته عن القبائل قال ما نصه:

«أما بلد «يوربا» فبلدة واسعة ذات أنهار وأشجار ورمال وجبال، فمنها الأخبار العجيبة، والأمور الغريبة، بجنبهم مرسى سفن النصارى، وكان أهل هذا البلد يجلب لهم العبيد من بلادنا هذه ويبيعونهم للنصارى المذكورين» اهـ.

لم يتعرض السلطان عن إسلامهم بالنفي والإثبات وإنما ذكرهم كإحدى القبائل، ولما جاء الأسقف النصراني اليرباوي، وبحث عن الذين كتبوا عن بلاد «يوربا» لم يجد غير هذا. فنقله ضمن كتابه «تاريخ يوربا» عام ١٨٩٨م.

خامسًا: كتب «صمويل جونسن» في كتابه «تاريخ يوربا»: «إن الإسلام قد انتشر في بلاد «يوربا» بالقرن الثامن عشر الميلادي، ولكن عدد المسلمين كان قليلاً حينذاك» اهـ.

قلت:

وإذا اعترف الأسقف بهذا!! فما ظنك بالمسلم الذي يتتبع أخبار انتشار دينه، أفلا يكون قد اكتشف ما قبل ذلك؟!

على أن القرن بين الثامن عشر وبين التاسع عشر الذي قام ابن فودي بالجهاد مائة عام كامل فتأمل!!

وإذا تتبعنا تاريخ المساجد في بلاد «يوربا» وجدناه مكدسًا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر.

١ - أول مسجد في مدينة «أيوو» كان حوالي عام ١٧٥٥م، بناه ملكها «أنيدى» لابنه «محمد لامويي» الذي ولد في الإسلام وتربى تربية إسلامية على يد الشيخ «محمد أديسا» من تلاميذ العلماء الكشناويين والبرناويين.

٢ - وأول مسجد في مدينة «كيتو» التي تقع الآن ببلاد الداهومي (بنين الحاضرة) وهي كانت من البلاد اليرباوية بنى هذا المسجد عام ١٧٦٠م. وكان أول إمام فيه عالم كشناوي اسمه «مالم سوفو» وعلى يده تربى أول مولود في الإسلام وسماه محمد سعيد عام ١٨٢٠م، وابنه أبو بكر الذي توفي أخيرًا (مايو ١٩٧٦م) عن مائة وثلاثين عامًا (١٣٠ عامًا) وقد قابلته وسمعت منه أنه كان يبلغ في العمر إحدى عشرة سنة عند هجوم الداهومي على «أبيكوتا» عام ١٨٥١م.

٣- وأول مسجد في مدينة «إيسين» بني عام ١٧٧٠م، بناه «مالم أبوكى» وفي هذا المسجد نزل الشيخ صالح عالم ولازمه سنة كاملة وهناك اجتمع بعثمان الذي صار «أجكوبى».

٤ - وأول مسجد في «لاغوس» كان عام ١٧٧٥م. وهو مسجد «إدولوو» بناه مالم عمر الكشناوي في عهد الملك «أديلي» الأول، ثم يليه مسجد «أوكونو» أو مسجد السلطان بني عام ١٧٧٦م، ثم مسجد «إدومايوَ»، ثم مسجد «تنومبو» عام ١٨١٩م. وقد كتبوا هذه التواريخ على جدران هذه المساجد.

هكذا تجد المساجد تباعًا في أواخر القرن الثامن عشر.

٥- وقد تأسست قرية «أوكى سنة» قرب مدينة «إلورن» وبني بها مسجد حوالي عام ١٧٧٠م، وبالقرب من ذلك التاريخ تأسست قرية «أربجى».

وأخيرًا تأسست قرية «إلورن» وبني بها الهوساويون والفلانيون مساجدهم الصغيرة قبل نزول الشيخ عالم بها حوالي عام ١٨١٦م. وأسس لكل حي بها مساجدهم وتوفى، ثم قامت الدولة الإسلامية عام ١٨٢١م، على يد ابنه عبد السلام.

●●●

معالم الإسلام في بلاد يوربا

اختلف المؤرخون في تاريخ دخول الإسلام إلى بلاد «يوربا»، كما اختلفوا في تاريخ دخول الإسلام إلى غرب إفريقيا.

ولكن العاقل ينسب ذلك الاختلاف إلى الروايات والجهات والنواحي التي تكتسح نفوذ الإسلام واستقباله وانتشاره.

فإن وقت نفوذ الإسلام غير وقت دخوله واستقباله، وهذا غير وقت ذيوعه وانتشاره، ويمكن شرح ذلك وبيانه فيما يأتي:

إن الدعاة الذين حملوا لواء الدعوة إلى الإسلام في بلاد «يوربا» قد توجهوا إليها وحدانا وزرافات وكانوا في أربعة زحوف:

● **الزحف الأول**: هو ما قام به الملاويون والوناغرة بالقرن الحادي عشر والثاني عشر الميلادي.

ويجب أن تعرف أن الوناغرة هم الذين نشروا الإسلام في مدينة «كاشنة»، ثم تكون منهم عصبة من أربعين رجلاً توجهوا إلى مدينة «كانو» ونشروا الإسلام بها.

مع العلم بأن الوناغرة قوم من غانا ومالى القديمة.

ومملكة «مالى» هي التي اكتسحت جميع البلاد بغرب إفريقيا خصوصًا في القرن الثالث عشر من أيام «مارى جاطة» «سندياتا» المتوفي عام ١٣٠٠م، إلى أيام حفيده «منسا موسى» الذي طبقت شهرته الآفاق وحج عن طريق مصر في عهد السلطان محمد بن قلاوون وبصحبته نحو ستين ألف شخص، يحملون عصًا من الذهب، وهذا الأمر معروف في التاريخ. وقد عرف اليرباويون الإسلام في مدينة «عويولى» القريبة من مناطق مالى وغانا على أيدي هؤلاء الملاويين إما عن طريق التجارة أو عن طريق الدعاة الأحرار، الذين يتعاطون التنجيم والتطبيب بالآيات القرآنية.

ثم انتشر الإسلام على أيدى قبائل «تورى» وهي قبائل «عسكيا محمد» مؤسس الأسرة الثانية لدولة «صنغاى» بالقرن التاسع الهجري، وكان قد أدخل في مملكته بلاد

«هوسا» كلها في زمنه، وتنتشر قبائل «تورى» في سائر بلاد «يوربا» وهم تجار ودعاة، وكانوا يصنعون السرج للخيول ويبيعونها للملوك والأغنياء، وكانوا يمتازون برسومهم على أصداغهم إلى عهد قريب ويعرفهم اليرباويون برسومهم وبدعوتهم بها «صاحب رسوم تورى» إلى عهد قريب، وفي تاريخ «داهومى» (بنين الحاضرة) أن قبائل «توري» هم الذين نشروا الإسلام في مدينة ويداه «غيريفى» قرب «كوتونو» العاصمة منذ قرون.

ولعل من هؤلاء الدعاة الملاويين الوناغرة ما ذكره «توماس أرنولد» في كتابه الدعوة إلى الإسلام» ما نصه من الترجمة:

«يقال إن الإسلام في مملكة «يوربا» بوجه خاص ترسخ قدمه بسرعة، وهناك أسطورة عن محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام في هذه البلاد، في وقت مبكر إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي، لكن هذه المحاولة لم تنجح.

كان هذا الرجل من «الهوسا» جاء إلى مدينة «إليفى» حاضرة مملكة «يوربا» الوثنية، وجعل يدعو الناس ويتلو عليهم آيات القرآن، وكان لا يستطيع أن يتكلم بلغة «يوربا» بطلاقة، فلم يكن بد من أن يردد على سامعيه في لهجة أجنبية قوله:

«هلم نعبد الله الذي خلق الجبال والوهاد وخلق كل شيء»، وكان يقوم بذلك من وقت لآخر، دون أن ينجح في كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام.

وقد مات الرجل بعد ذلك بأشهر قليلة، وبعد موته وجدوا المصحف معلقًا على مشجب في حائط حجرته، فصار أهل هذه البلاد يقدسونه على أنه وثن».

قلت:

ولعلك قد علمت أن اليوربا قالوا في تاريخ هجرتهم إلى هذه البلاد أن جدهم الأعلى نمروذ كان في حرب مع النبي ﷺ بمكة فانهزم وخرج أبناؤه من مكة مع أصنامهم هاربين إلى هذه البلاد، فأرسل النبي محمد ﷺ وراءهم شعيبًا مع مصحف وجنودًا فلحقوا بأبناء نمروذ في «إليفى» فالتقى الجيشان فانهزم شعيب فأخذوه وقتلوه وورثوا مصحفه وسموه الربط «إيدى» وبعد زمن اتخذوه صنمًا يعبدونه ويخرجون لعبادته أيامًا عند الجدب ثم يعودون ممطورين.

●●●

تعليقنا على هذه القصة

يؤخذ من هذه القصة أمران، أحدهما: أن يكونوا قد أخذوا اسم شعيب مع أسماء إبراهيم ونمروذ ومحمد فأدرجوها في تاريخهم.

وإما أن يكون اسم الداعية المجهول «شعيب» لكون مدار القصة على المصحف الموروث من رجل داعية إلى الإسلام فتأمل!!

ثم إن الزعم بأن ذلك الداعية المجهول كان هوساوياً لا يقوم على برهان، لأن قبائل «هوسا» في ذلك التاريخ كانوا حديث عهد بالإسلام، ولا يكون لهم نشاط ملموس في الدعوة خارج بلادهم، والأرجح أن يكون الرجل من قبائل «ونغارة» جاء من بلاد مالي أو غانا كما ذهبوا من بلادهم إلى بلاد «هوسا» ونشروا الإسلام بـ«كاشنة» و«كانوا»، كان اليرباويون يسمون الإسلام بـ«دين مالى» ثم صاروا يسمونه «دين هوسا» عند انتشار الكشناويين ببلادهم.

وإذا ثبت وجود واحد من الدعاة الإسلاميين في مدينة «إليفى» التي تقع وسط الغابات والأدغال المليئة بالحيوانات الضارية بذلك الوقت بالقرن الحادي عشر الميلادي في أقصى الجنوب، فتتخيل ما يكون في عواصم بلاد «يوربا» التي تقع تحت نفوذ غانا ومالى وسنغاى في أقصى الشمال، أفلا يكون هناك عشرات من الدعاة!!

انتهي الكلام على الزحف الأول وإليك بيان الزحف الثاني:

● **الزحف الثاني من زخوف نشر الإسلام ببلاد يوربا:**

لقد كتب «مايكيل كراوثر» في «تاريخ نيجيريا» أن الدعاة الإسلاميين من أهالي «نوفى» كانوا قد سكنوا مدينة «عويو» في منتصف القرن السادس عشر وقد بنوا بها مسجداً عظيماً في عهد ملكها «أجى بوييدى» حوالي عام ١٥٥٠م، وقد كونوا جالية كبيرة هناك، ووصل نفوذهم الذروة حتى كان حاشية الملك يتوسلون بهم إلى مليكهم إذا شق عليهم شأن ذو بال. ومن ذلك: أن الملك قد أصدر أمره بقتل واحد من حاشيته وعظم الأمر على إخوانه وذهبوا إلى إمام المسلمين ليتشفع لهم عند الملك، فقبل الملك شفاعته لأنه كان يستعين بالعلماء في تسهيل الصعاب وقضاء المآرب في السلم والحرب.

وقد تواتر على ألسنة الناس اليوم أن الملك «ألأفن محمد الأول اديبعي» والد الملك عبد الحميد أنه قد توجه إلى «عويولى» الخربة وبحث في خرابها عن مسجدها، ولما عثر

عليه أخذ من لبنة جدرانه اللازب، الذي كان مخلوطًا بالزيت الأبيض الجامد وعاد به إلى مسجد «عويو الجديدة» كما أخبرني صديقي «سليمان الاوايى».

ولم يزل الإسلام يتغلغل في أواسط بلاد «يوربا» منذ ذلك الزمان غير أنه كان ضعيفًا بين الكفار، غير أن هؤلاء الكفار من ملوك وصعاليك كانوا يستعينون بقوة العلماء الروحانية، وكانت المساجد تبنى في أماكن مختلفة بصفة واحات في صحراء قاحلة في مختلف البلاد.

كل ذلك بفضل كرامات الدعاة، غير أن الكرامات والمعجزات لا تنشر الدعوة وإنما تؤيدها، وكان الملوك هم الذين يتبرعون بأرض المساجد للدعاة، لذلك يكون المسجد الكبير غالبًا أمام بيت الملك، أو في مكان عام يجتمع به الناس غالبًا كالسوق الكبيرة.

● الزحف الثالث للدعوة في بلاد يوربا:

هذا الزحف أقرب إلى الدفعة من الزحف، وهي الدفعات التي اقترنت بالجهاد المسلح الذي قام به الجيش الإسلامي من مدينة «إلورن» إلى أرجاء بلاد «يوربا» في أواسط القرن التاسع عشر، فقامت فيها غزوات عديدة بين الكفار والمسلمين.

وصل نفوذ هذا الجهاد إلى جميع بلاد «يوربا» مما دعاهم إلى التكتل والتجمع لصد تيار هذا الجهاد الجاري حيث كان النصر حليف المسلمين في معاركهم إلى أن جاء الاستعمار الإنجليزي وأوقف هذه الدفعة وهذا الزحف. وسيأتي الكلام عليه قريبًا.

● الزحف الرابع هو أيضًا دفعة من الدفعات:

قام بها الدعاة العُزَّل بعد ثبوت الدولة الإسلامية في «إلورن» يقوم هؤلاء الدعاة أحيانًا بصورة الواعظين وأحيانًا بصورة المطببين، واستطاعوا أن يتغلغلوا في الأوساط التي لم يبلغها المجاهدون بالسلاح فضربوا في هذا الميدان بنصيب أوفر. حيث قضوا على آثار الكفر والوثنية بالوعظ والإرشاد، وقاوموا السحر والسحرة بالقرآن، وتغلبوا بإذن الله.

وعلى هذا استمر الأمر حتى أخذ التبشير عليهم الطريق، بالإمكانات المادية والقوى الاستعمارية، وسوف نكمل الموضوع عند الكلام على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

●●●

الإسلام في قرية أبجي، وأصلها «أربجي»

كانت قرية «أبجى» واقعة فيما بين أربعة بلاد: «عويولى» و«إيسين» و«إيكوبى» و«أوكى سنة»، استقر بها قوم من العرب البرناويين نزحوا إلى هذه البلاد في أوائل القرن التاسع عشر، وذلك قبل قيام دولة «إلورن» بنحو عشرين عامًا.

تقول الروايات المحلية الشفوية أنهم شرفاء اتخذوا لتمييز أنفسهم رسومًا من رقابهم إلى ظهورهم ويزعمون أن النار لا تمسهم مع تلك الرسوم.

كان لهم نشاط ملموس في الدعوة إلى جانب إخوانهم سكان ربوة السنة (أوكي سنة) لذلك بقيت آثارهم في مدينة «إيسين» وفي حارتهم هناك المسجد الجامع الكبير لإقامة الجمعة، ولهم آثار في مدينة «كيتو» (بنين الحاضرة) وغيرها من عواصم اليوربا القديمة، وهم معروفون في جميع تلك البلاد بأهل الدين والتقوى والصلاح.

ظهرت لهم معارك عديدة في مختلف البلاد خصوصًا مع الوثنيين الكفار.

●●●

كيف نزحوا إلى هذه البلاد ومتى كان ذلك؟

كان دولة «برنو» واسعة عريضة طويلة تحدها مصر شمالاً وليبيا غربًا وبلاد هوسا جنوبًا، وكانت متاخمة أو مندمجة مع دولة «باغرمى» و«دارفور» و«سنار» و«فونج» ومن بينها مشيخة «قرى» وفيها قرية «أربجى».

وجاء في «تاريخ برنو» المكتوب أيام «إدريس ألوما» أن الذي أسس مملكة «سنار» هو الملك عثمان المطرود من برنو عام ١٤٨٦م. وبذلك فالسناريون كانوا من أصل برنوى.. قاله الدكتور حسن أحمد محمود في كتابه «الإسلام في إفريقيا».

ويقول نعوم شقير في «تاريخ السودان» أن ملوك «فونج» وهم ملوك «سنار» كانوا من بنى أمية، ولما تغلب عليهم بنو العباس فروا إلى السودان وأسسوا مملكة «سنار»، وتأسس إلى جانبهم مشائخ «قرى» متحالفين زمن طويلا، ثم قامت بين «سنار» ومشائخ «قرى» حروب دامية دامت مائة عام فانهزمت مشائخ «قرى» ونزح من نزح منهم إلى «برنو» وإلى ما يليها جنوبًا.

واستطرد نعوم شقير يقول: إن قتالاً نشب بين مشيخة «قرى» تحت قيادة عبد الله في الخلفاية وبين إدريس عام ١٨٠١م، فقتل عبد الله وانهزمت جيوشه فأمن إدريس باقيهم وولي عليهم ناصر الدين الذي بقي في المشيخة حتى الفتح المصري.

هاجر قوم منهم إلى جنوب بلاد «برنو» وساوروا حتى وصلوا بلاد «يوربا» وسكنوها واحتفظوا باسمهم الأصلي «أربجى» الذي انحرف إلى «أبجى».

هذا وقد ناقشني في هذا القول صديقنا المستشرق الألماني «ستيفان» قبل أن يزور خراب «أربجى» في السودان العربي ثم رجع إلى مدينة «إلورن» ولازمها أشهراً يبحث عن أصول قبائلها وفروعها.

قال لى صديقي وهو يستبعد أن يكون «أبجى» من «أربجى»! فقلت له: إن حذف الراء ممكن لغلبة العجمة وبعد الدار، وكلما أدغمت الراء في الباء بقيت الباء الثقيلة التي تلفظ كالغين والباء.

وفي العرب من يبدل الراء غينًا أو لامًا ويسمى ألثغ كواصل بن عطاء، وإذا استعجم أمثال هؤلاء قلبوا «أ ربجى» إلى «أغبجى» فلا استبعاد في الأمر، فوافقني أخيراً.

بقيت قرية «أبجى» في مكانها الأول ببلاد «يوربا» إلى أن قامت الدولة الإسلامية في «إلورن»، وطلب إليهم الأمير عبد السلام أو «الأمير شئت» أن ينتقلوا من مكانهم الأول إلى مكانهم الحاضر داخل مدينة «إلورن» بقيادة رئيسهم موسى الشريف وأخيه عبد الرحمن المسمى «بابا شاوره»، وتوجه الآخرون الباقون إلى مدينة «إيسين» واستقروا بها.

ولا يصح قول من قال إنهم كانوا أولاً في مدينة «إيسين» ومنها نزح من نزح إلى «إلوون» كما لا يصح العكس، وبالحقيقة قد هاجر عدد من أهل «إيسين» إلى مدينة «إلوون» كما سيأتي بيانه:

احتفظ أهل «أبجى» ببعض تقاليدهم حتى اليوم، من ذلك أنهم حرموا ضرب الدفوف والطبول في منطقتهم حتى كان أمراء «إلورن» يكفون عن ضرب الطبول ونفخ الأبواق عندما يمرون بحارتهم في جولاتهم الدولية حتى يبتعدوا عنها.

وقد هاجر عالم من العلماء من مدينة «إيوو» إلى «إلورن» اسمه أحمد، نزل بجوار

الشريف موسى، وذريته هم المعروفون اليوم بـ«ألفا إيوو» بالقرب من «أبجى». وذلك بدليل العلاقات القديمة بين أهل «إيوو» وأهل «أبجى».

ظهرت البركة في هذه المنطقة كثيرًا، وظهر فيها العلماء والأولياء والدعاة، وفي تلك المنطقة ظهر الشيخ يوسف الحمداني رئيس أصحاب العمائم الكبيرة الذين انتشروا اليوم في كافة أرجاء بلاد «يوربا»، كما اشتهر أهل «أبجى» بمعرفة سر الحزب السيفي، لقمع عدوان الظالمين.

●●●

الإسلام في قرية
أوكى سنة (ربوة السنة)

أول قرية استقر بها الإسلام في بلاد «يوربا» هي ربوة السنة، اشتهرت بالإسلام وبالمحافظة على سنة النبي ﷺ، في الأقوال، والأفعال، حتى عرفت بهذا الاسم.

وهي أول مركز كان ينطلق منه الإسلام، ويشع منه نوره إلى كثير من القرى والبلدان المجاورة، وقد ذكر «مستر جونسن» الأسقف النصراني، الذي كتب تاريخ «يوربا»، بأن أهل «أوكى سنة» أجناس مختلفون فروا بدينهم من مختلف البلاد وتجمعوا في تلك القرية ليتمكنوا من مباشرة دينهم أحرارًا بعيدين عن الكفار وعن المسلمين الآخرين الضعفاء في إسلامهم، وهناك أكذوبتان يجب تفنيدهما عن ربوة السنة.

الأكذوبة الأولى: جاءت ممن يقول إنها تأسست بنحو مائة عام قبل ظهور الشيخ العالم في مدينة «إلورن»، وهذا ليس بصحيح، لأننا لم نسمع بأسماء من عاشوا قبل ظهور «أفنجا» والشيخ العالم، وإنما سمعنا بأسماء المعاصرين لهما ولا أثر لذكر آبائهم وأجدادهم فيها.

والراجح أنها تأسست بالقرب من تأسيس مدينة «إلورن» فيما يتراوح بين عامي (١٧٧٠- ١٨٠٠م) فيما بين الأربعين والثلاثين عامًا قبل مقدم الشيخ عالم.

والأكذوبة الثانية: جاءت ممن يزعم أن إسلام أهل «أوكى سنة» غير مستقيم قبل الشيخ العالم، وهذا ليس بصحيح أيضًا، فلنسأل: لم كانت تعرف وتسمى ربوة السنة إذا كان إسلامهم غير مستقيم؟!

إنما اختلقوا ذلك الزعم لمجرد تبرير ما وقع بعد ذلك من مقاتلة أهل تلك القرية وخريبها على أيدي المسلمين الفلانيين على نحو ما يُحكى عن أهل التاريخ في هذه البلاد، كما حكى عبد الله بن فودي في «ضياء السياسات» نقلاً عما في كتاب «معراج الصعود» وفي «الكشف والبيان في أصناف مجلوب السودان» ما نصه:

سُئل الفقيه أحمد بابا عن عبيد مجلوبين في البلاد التي تقرر إسلام أهلها كبلد «برنو» و«عفنو» و«كانون» و«كاشنة» ونحوها مما استفاض إسلامهم، هل يسوغ تملكهم أم لا؟!

أجاب: «إن هذه البلاد كما قلتم، أهلها مسلمون، إلا «عفنو» وهي قطعة من أرض «برنو» فلا أعرف أين هي، ولكن بقرب كل منها بلاد فيها كفار يغير أهل تلك البلاد عليهم ويجعلونهم تحت ذمتهم، يؤدون لهم خراجًا على ما بلغنا كما هو مشهور.

وربما تفاتن بعض سلاطين هذه البلاد بعضهم ببعض فيتحرك سلطان على غيره، ويغير عليهم ويسبي ما تيسر له منهم، وهم مسلمون، ويباح السبي، وهو حر مسلم.. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذا مستفيض عندهم في بلادهم، يغير أهل «كاشنة» على أهل «كانو» وكذا غيرهم، وألسنتهم واحدة وحالاتهم متقاربة، لا تفرق بعضهم من بعض إلا بهذا مسلم أصلي وهذا كافر أصلي، ومن هنا يلتبس الحال على من جاءوا إليهم فلا يعرفون حقيقة المجلوب» اهـ.

ولا شك في أن قرية «أوكى سنة» أول مركز للإسلام في بلاد «يوربا»، ولتجدن أكثر الذين قاموا بنشاط الدعوة الإسلامية في بلاد «يوربا» قبل قيام دولة الإسلام في «إلورن» كانوا قد خرجوا من «أوكى سنة» ولسوف يلتقي القارئ بأسمائهم في مختلف البلاد.

ومنهم الشيخ «محمد إديسا» في مدينة «إيكوبى» وفي «عويو» وفي «إيوو»، ومنهم الشيخ «محمد كورنغ» في مدينة «إيسين»، ومنهم «عبد الله النوفاوى» في مدينة «لاغوس».

ولهؤلاء الشيوخ أحفاد وذريات في تلك البلاد إلى يومنا هذا يرجعون بأصلهم إلى «أوكى سنة» الأصل التاريخي.

وأخبرني الشيخ صديق جيجى (أبو الكلام) أن مشاهير علماء «أوكى سنة» كثيرون منهم الإمام عمر متاشى، والشيخ «الشاذلي سنسني»، والشيخ «محمد ينبؤ» وزوجته آسية معلمة الصبيان، والشيخ ثاني جد بشر أدنبا، والشيخ «صلاح الدين أوجباره»، وأبو عبد الرحمن نزيل ساحة الفول، وأبو مصطفي نزيل «ربوة كوره» مع «سوفو» الذي تولى «بلوغن» بعد «سولا بيرو» في «ربوة كوره» ولهؤلاء كلهم ذرية وأحفاد في داخل مدينة «إلورن» إلى يومنا هذا.

وكان جميع العلماء ضمن سكان «أوكى سنة» الذين تكونوا من زراع وتجار وصناع وجميعهم تحت رئيسهم المسمى «سولا بيرو».

والروايات الشفوية تقول: إن عدد بيوتها قبل تخريبها بلغت مائة وخمسين بيتًا، ويميل إلى ذلك «لنغلنفا» في كتابه القائل: إن عدد الرؤساء بها بلغوا مائة وثلاثين رئيسًا على كل بيت.

ومهما يكن في هذا التقدير من مبالغة فإنه يدل على أن «أوكى سنة» كانت مستقراً بمعنى الكلمة.

•••

الجهاد في بلاد يوربا في الدعوة والدولة

هل الجهاد لحماية الدعوة أو لتقوية الدولة؟ سؤال يجاوب عليه كل كاتب على مواهبه، فجوابي أنا كالآتي:

إذا نظرنا إلى الدعوة لا بد لها من قوة تحميها كالأمر في صدر الإسلام، حيث ظل المسلمون ضعفاء مشردين ثلاثة عشر عامًا، ولما أذن لهم بالجهاد حملوا السلاح على عدوهم وأقاموا الدولة. . نقول:

إن الدعوة تدعو في خاتمة المطاف إلى حمل السلاح الذي قد ينتهي بتأسيس الدولة، وبناء على ذلك نقول: قد علمت أن الإسلام قديم في بلاد «يوربا» يرجع عهده إلى القرن الثالث عشر، وظل مع ذلك ضعيفًا طريدًا مضطهدًا في كل مكان.

ربما كان جوابك على الشطر الأول من السؤال: لا بد من قوة تحمي الدعوة.

لقد أخبرناك أن الملوك الكفار كانوا يستعينون بدعاة العلماء في السلم والحرب والقحط، وكانوا يجدون التجاوب من العلماء لإثبات كيانهم وإثبات كرامات القرآن والإسلام، كما فعل أبو سعيد الخدري لرئيس من رؤساء اليهود الذي لدغته الحية، فتلا عليه أبو سعيد سورة الفاتحة كرقية، فشفي اللديغ ومع ذلك لم يدخل هؤلاء اليهود في الإسلام بل أعطوا الصحابه ما طلبوا من الجعل.

ولقد علمت أن الأمم الذين مضوا لم يكونوا يصدقون الأنبياء بالمعجزات التي أيدهم الله بها، بل ظلوا يقترحون معجزات أخرى تعنتًا لا إيمانًا.

وكذلك كان الكفار في بلاد «يوريا» يستعينون بالعلماء في قضاء مآربهم، من غير أن يدخلوا في الإسلام، وكانوا يفعلون كما نفعل اليوم بمستشفيات التبشير، نلجأ إليهم عند التعالج من غير أن نؤمن بالصليب.

لهذا ظل الإسلام ضعيفًا لم يتقو إلا بعد قيام دولته في مدينة «إلورن» ولم يصر المسلمون أعزاء أقوياء إلا بعد حمل السلاح للجهاد على أساس قولهم: «لا بد من قوة تحمي الدعوة»، من هذا كله تجد الجواب على الشطر الأول من السؤال السابق.

أما الجواب على الشطر الثاني من ناحية الجهاد لتقوية الدولة فكالآتي: إن طبيعة القوة تدعو كل دولة إلى تكوين الجيش ليحرس به الوطن والأمة.

وإن شئت فقل: إن طبيعة الدولة تدعو كل حكومة إلى إعداد القوة، إذ لا بد لكل دولة من قوة تحميها، وهذا يقتضي الحرب والجهاد والقتال، إما للهجوم للتظاهر بمظهر القوة، وإما للدفاع للتظاهر بمظهر الغلب، قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وقد قرر ابن خلدون «إن الحروب أمر طبيعي في البشر، لا تخلو عنه أمه ولا جيل، إما أن تكون الحرب غيرة أو منافسة عدوانية، فهذان حرب بغى وفتنة وعدوان، وإما غضبًا لله ولدينه ولتمهيد الدولة، فهذان حرب جهاد وعدل» اهـ.

وكل دولة لا بد لها من شرطة لرعاية الأمن داخل الدولة، ولا بد لها من جيش لحراسة الوطن والدفاع عنه من العدوان الخارجي، لهذا لا يكون هناك فارق كبير بين الجهاد لحماية الدعوة والجهاد لحماية الدولة، كلاهما طريقان إلى المقصود.

والجدير بالذكر هنا ما نلمسه من إخواننا المسيحيين من الرهبة كلما سمعوا من المسلمين في نيجيريا كلمه الجهاد أو قرأوا في جرائدهم اليومية، نراهم قد ارتعدت فرائصهم وتسارعت ضربات قلوبهم واشتدت دقاتها في صدورهم وجحظت أعينهم كأنما يساقون إلى الموت، وهم مقيدون بالأغلال والسلاسل، لهذا يملأون وسائل الأنباء بالصيحات والصرخات، كلما سمعوا كلمة الجهاد من المسلمين، ولا يعلمون أن للجهاد في الإسلام معاني كثيرة.

منها: الجهاد بالمال، والجهاد بالقلم، ومنها: جهاد الإنسان نفسه بمجاهدة هواه. وأما إذا قاسوا الجهاد الإسلامي بما قام به بعض المسلمين في نيجيريا وحسبوا أن كل ما صدر منهم هو المأمور به فليدركوا أنهم مخطئون، فإن الجهاد المسلح في الإسلام له شروط مدونة في القرآن والحديث.

فالمسلم المجاهد الذي يخالفها هو المسئول عن عمله لاغير، لذلك نذكر هنا شروط الجهاد في الإسلام وهي مثل شروط الجهاد في اليهودية، ولا تزال مدونة حتى اليوم.

●●●

شروط الجهاد في الإسلام

الجهاد في الإسلام مشروع لحماية الدعوة وحفظ النفس والمال، وله شروط وقواعد وضعها النبي ﷺ.

وليس كل من يجاهد يجاهد لله ولدينه، وليس كل من يجاهد يحافظ على الشروط والقواعد، بل فيهم من يجاهد للعصبية، وفيهم من يجاهد للغنيمة، وفيهم من يجاهد للذكر الحسن، وفيهم من يخالف القواعد والشروط، وفيهم من يجاهد على الجهل والهوى.

روى أبو داود قال: قال رجل: يا رسول الله: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: «**لا شيء له**»، فأعادها ثلاث مرات فقال: «**لا شيء له، إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه**».

وجاء في البخاري أن النبي ﷺ قال: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، أو مات على عصبية**»، هذا كله في شروط التجنيد. أما في شروط القائد والجيش فقد جاء في صحيح مسلم «أن النبي ﷺ كا إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين ثم قال: «**اغزوهم باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تعذروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم:**

ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن عليهم بالله تعالى وقاتلهم».

وفيما ذكر من أخذ الجزية من المشركين خلاف بين الفقهاء كما سيأتي.

أقول:

هذه هي أهم قواعد الجهاد في الإسلام ومن خالفها من المسلمين فهو مسئول عن نفسه: كل نفس بما كسبت رهينة.

أما الذين جعلوا جهادهم أو جهاد آبائهم وأجدادهم في سبيل الله سببًا للاستعباد والاستغلال، ويزعمون أن الله قد ملكهم الأرض بسبب ذلك الجهاد فهم مخطئون.

وقد جاهد أبو بكر وعمر وعثمان ولم يرثوا الخلافة من أجل الجهاد فإن الله تعالى وعد المجاهدين في سبيله الجنة، وما وعدهم الملك في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبه: ١١١].

لقد علمت أن الإسلام ظل طريداً ضعيفًا في بلاد «يوربا» لم يصر المسلمون أقوياء إلا بعد حمل السلاح في مدينة «إلورن» على قاعدة: «لا بد من قوة تحمي الدعوة» مع أن بلاد «يوربا» قد انتفعت كثيراً من الثقافة الإسلامية وحضارتها والأخلاق الحميدة والعلم والمعرفة والفلسفة، ومع ذلك لا قوة للإسلام فيها.

فالإسلام لم يجد قوة تحميه حتى قامت الدولة الإسلامية في «إلورن»، وهي التي دافعت عن الإسلام والمسلمين بقوة السلاح على حد الأثر القائل: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» فسرى نفوذ هذا الدفاع إلى سائر الأنحاء.

أما بقية البلاد اليرباوية خارج الدولة الإسلامية في «إلورن» فإن عدم قيام الجهاد بها وعدم وجود الدولة التي تحمي الدعوة بها قد أضعف شأنه هناك، وإن كان يأتي أحيانًا بالصدفة سلطان وأمير مسلم واحد بين أنصاره وحاشيته الكفار الأقوياء ،الأشداء فإنه لا يستطيع تنفيذ أحكام الشرع من بين هؤلاء، ولكن نفوذ الدولة الإسلامية وصلتها نوعا ما، أثرت فيها تأثيراً حسنًا.

ألا ترى الإمام المغيلي الذي كتب وصية لسلطان «كانو» محمد «رنفا» جاء فيها ما نصه: «وامنع جميع أهل بلادك من أن يظهروا جميع أنواع الشرك . وكشف العورة وشرب الخمر وأكل الميتة والدم وغير ذلك من المحرمات. وامنع كفار بلادك من أن

يظهروا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل وغيرها من المحلات، فلو لم يتركوا ذلك بين المسلمين لكان ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضعفة العقول من العامة والنسوان والصبيان» اهـ.

أقول:

دعا المغيلي سلطان «كانو» إلى منع ذلك بين قومه حين كانت الحكومة مسلمة وجميع أعضاءها مسلمين.

وإذا لم يكن هناك سلطان مسلم أو لم يسيطر تمامًا على الدولة فكيف يتسنى له منع ذلك حيث يحتج كل مواطن أنه حر في وطنه وفي دينه.

إن عدم قيام الدولة هو السبب في بقاء رواسب الكفر بين بلاد «يوربا» التي كان أغلب أهلها مسلمين بين الكفار، وهم خلطاء مع المسيحيين والمشركين.

وفي كثير من العالم الإسلامي اليوم مسلمون يعيشون أقلية بين المسيحيين وغيرهم، وإذا كان لا يضير المسلمين أن يعيشوا في مثل ذلك المجتمع المختلط فلا يضير مسلمي بلاد «يوربا» أن يعيشوا في مثله هنا ولا يسقطهم ذلك من حساب الإسلام وفي عداد المسلمين.

علمت أن قرية «أبجي» قامت قبل قيام «إلورن» وكان بها المسلمون البرناويون العرب من السودان ولكنهم مع ذلك ضعفاء.

وكذلك علمت أن قرية «أوكي سنة» قامت قبل قيام «إلورن» وكان بها المسلمون اليرباويون والبرناويون والكشناويون ولكنهم مع ذلك ضعفاء.

وكذا قلنا لك إن قرية «عوبابا» مقربة من مدينة «إيوو» كانت مركزًا للإسلام، ثم تحول هذا المركز إلى مدينة «إيوو» بطلب من سلطانها ومع ذلك ظل ضعيفًا.

كما كان الإسلام موجودًا في «إيكويي» و«إيسين» و «عويولي» بدليل أن الشيخ «عالم» سكن كلًّا منها سنة بعد سنة إلى أن سكن قرية «كوهو» ثلاث سنين ولم يكن ينزل على الكفار، ولكن الإسلام في جميعها كان ضعيفًا إلى أن قامت دولته في «إلورن».

●●●

قرية إلورن وكيف تأسست
ثم تحولت مركزًا للدعوة والدولة

إذا صرفنا النظر وضربنا الذكر صفحًا عن التحديد السياسي الذي ألحق مدينة «إلورن» بأقاليم شمال النيجر مع أنها واقعة في منطقة جنوب النيجر.

فإن موقعها الجغرافي في الجنوب الغربي من نهر النيجر يجعلها منطقيّاً طبيعيّاً في بلاد «يوربا»، كما أن تأسيس المدينة بيد اليرباويين وكون الغالبية العظمى التي تكونت منها سكان المدينة يتكلمون لغة «يوربا» حتى النازلين الجدد من الفلانيين والهوساويين والنوفاويين كلهم قد نسوا لغتهم الأصلية وانطلقت ألسنتهم بلغة «يوربا».

كل هذه الحقائق تفرض علينا أن نعترف اعترافًا لا يقبل الشك والجدال بأن مدينة «إلورن» كانت ولا تزال إحدى المدن اليرباوية حتى اليوم، كل ذلك يدعونا إلى حصرها في التاريخ ضمن بلاد «يوربا».

ثم إن دور أهل «إلورن» بعد ذلك في نشر الدعوة الإسلامية فلا ينكره أحد حتى لو كان مكابراً، ولو درس إنسان ما تاريخ مدينة «إلورن» ونشاط أهلها في الإسلام واعتبره بمفرده تاريخ الإسلام في بلاد «يوربا» لما أنكر عليه عاقل منصف، لذلك نهتم بها اهتمامًا في بحثنا هذا ونقسم أطراف البحث عن المدينة إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: في تأسيس المدينة.

المبحث الثاني: في بطل المدينة ورئيسها.

المبحث الثالث: في استيفاد الشيخ العالم صالح إلى «إلورن».

المبحث الرابع: في إقامة الدولة الإسلامية وما تبع ذلك من الجهاد.

●●●

المبحث الأول

في تأسيس إلورن

وردت روايتان مختلفتان في تأسيس «إلورن».

أولاهما: عن طريق صمويل جونسن كاتب تاريخ يوربا عام ١٨٩٧م.

وثانيتهما: عن طريق الروايات المحلية لسكان «إلورن» القدماء والمعاصرين، وجرى عليها المقيم الإنكليزي كاتب تاريخ إلورن «لنغالنعنا» عام ١٩٢٢م.

أما الرواية الأولى فتقول:

إن الذي أسس مدينة «إلورن» رجل اسمه «لاديرن» وهو الجد الرابع لرجل آخر اسمه «أفنجا» الشهير، وظلت أسرة «لاديرن» رؤساء في «إلورن» حتى ورثهم حفيدهم «أفنجا» الذي ظهر اسمه على مسرح التاريخ منذ حوالى عام ١٨١٧م، وهو يحمل لقب «آري ككنفو».

أما الرواية الثانية فتقول:

إن مؤسس «إلورن» رجل اسمه «أوجوسيكوسى» من أهل «غنبي» قرب «إلوتا» وهو صياد نزل بالمكان لصيد الفيل ثم لحق به صياد آخر اسمه «ايمنيلا» ثم جاء ولحق بهما «دحداح» وسكن «ربوة ليلى» ثم «اديوولى» ثم «أفنجا» وحاشيته من «عويو».

وكان بالقرب من «إلورن» قرية تسمى «أوكي سنة» تحت رئاسة «سولا بيرو» ثم جاء الفلانيون من «أريسا» وسكنوا قرب «أفنجا» ورئيسهم «أولوفادي»، ثم جاء الهوساويون وسكنوا في محلهم الحالي ورئيسهم «باكو» وهو من «كاشنة».

هكذا كانت الأوضاع قبل استقدام الشيخ صالح الشهير بـ«عالم» وسيأتي تفصيله في مبحثه.

وعلل المؤرخون تسمية البلد بـ «إلورن» بإحدى علتين اثنتين:

أولاهما: أنها سميت بذلك نظراً لتجمع الفيل تحت خمائل الأشجار هناك فسميت بذلك «بلد الفيل».

وثانيهما: أنها سميت بذلك نظراً لوجود حجر كبير هناك يشحذ عليه الفلاحون خناجرهم وسكاكينهم فسميت بذلك «مشحذ الحديد».

●●●

المبحث الثاني

في بطل المدينة ورئيسها

من هو «أفنجا» الذي لقب «آرى ككنفو» أي القائد الأعلى؟

الجواب: إن التاريخ الصحيح يقول:

إن «أفنجا» ينتمي بالنسب إلى الملك «ألافن أباودن» من جهة أمه المسماة «لاديرن» التي هي أخت «ألافت أوبنته» و «لاديرن» اسم امرأة لا اسم رجل.

ولد «أفنجا» في بيت الملك وتربى تحت كنف أمه في بلاط الملك ولعل ذلك كان حوالى عام ١٧٧٠م، وكان أبوه خادمًا من خدام الملك وخاملاً لا يعرف له اسم ولا شهرة وإلا فكيف نسوا اسم أمه التي تنتسب إلى الملك.

ولما نشا «أفنجا» في بلاط الملك نشأ كريمًا محبوبًا شديد الشكمية لا تلين قناته لأحد، فخافوا منه وجمعوا على خده رسم أبيه وأمه معًا، حتى لا يلتبس أمره بأبناء الملك الشرعيين فلا ينازعهم الولاية على الدولة.

ويؤيد مستر «هودج لنغالنعا» هذا القول بما روي من عادة تزويج بنات الملوك لغير ذي شرف عظيم حتى لا ينتقل الملك من أبناء الرجال إلى أبناء النساء.

نشأ «أفنجا» في بلاط الملك وعظم أمره وتفاقم شأنه طوال أيام أبي أمه أو أخي أمه، ولما مات هذا الملك حاول الاعتلاء على العرش ولكنه فشل للأسباب السالفة الذكر فتولى منافسة المسمى «أوولي» (أزوغرغر).

ولم يهدأ بال «أفنجا» على الأمر، ولما شغر منصب «ككنفو» بموت من يسمى «أوكو» بقدية «جاباتا» اغتصبه «أفنجا» لنفسه لكون المنصب ذا أهمية كبرى في المملكة لأنه القائد الأعلى للجيش الوطني بلقب «أرى ككنفو».

ومن خصائص هذا القائد أن لا يلوي على شيء في طريق ذهابه ولا يلتقي به أحد وجهًا لوجه من ذوي المناصب الأخرى إلا انقلب على عقبه هاربًا من وجه «ككنفو»

حتى الملك نفسه لا يتقابل معه في الطريق، لذلك اغتصب «أفنجا» هذا المنصب ليكدر صفاء الدولة على هذا الملك وينغص عليه المعيشة.

رضي الملك له هذا المنصب لأنه يعلم أن من التقاليد أن يقوم القائد الأعلى بالفتوح مرة في ثلاث سنوات، ويتحتم عليه أن يعود من الفتوح منتصرا أو منتحراً خلال ثلاثة أشهر فقط من يوم خروجه من العاصمة، فاعتبر الملك غريمه في هذا المنصب كالباحث عن حتفه بظلفه، لذلك رضي له بالمنصب فعلاً.

ولما حان موعد الفتوح أراد الملك أن يتشفي منه على حساب الوطن فبعثه عام ١٧٩٦ إلى مدينة «إويري» التي لا قبل لأحد بها، وخيل إليه أنه بعثه إلى مدينة أخرى إذ لا يخفي على أهل «عويو» أن مدينة «إويري» منيعة وكم حاول كل ملك وكل قائد فتحها ولم يظفروا.

ولم يجد «أفنجا» بدا من الخروج إلى الفتوح حسب التقاليد، فخرج بالجيش الوطني من داخل العاصمة وخارجها، وخرج مع الجيش رئيس الوزراء «بشرون أشامو».

أما الملك فقد بعث جنوداً من الحرس الملكي بصورة مدد للجيش الوطني ولكن لقلب ظهر المجن على «أفنجا» حتى ينهزم وينتحر حسب العادة.

ولما خرج الجيشان وقع بينهما الخلاف والنزاع، هل المقصود قرية «إويري» أو غيرها؟ ثم وقع الاشتباك الذي أسفر عن قتل أعيان البلد ومنهم أخو الملك «أوولي» نفسه.

ولما علم «بشرون» بهذه المؤامرة ضده وضد «أفنجا» تعسكر خارج العاصمة وبعث بالإناء الفارغ إلى الملك إشارة إلى أنه يريد منه رأسه.

وقد علمت أن «بشرون» هو كرئيس الوزراء الذي له حق تولية الملك وعزله وقد كان قبله «بشرون غاح» مستأثراً بزمام الدولة مدة أربعين عامًا لا ينازعه أحد ولا يعارضه الملك في شيء ولم يتخلص منه الملك «أباودن» إلا بعد أن تقدم في العمر وضعفت قوته فنظموا عليه الثورة من الداخل والخارج فهجموا على داره واغتالوه هو وأسرته إلا من فر منهم وانفلت من أيدي الثائرين وتولى «بشرون أشامو».

ثم لما مات الملك «أبادون» وتولى «أوولي» لم يلبث أن نشبت العداوة والبغضاء بين «بشرون» هذا وبين الملك من أجل رجل تاجر هوساوي في المدينة يدعى «ذا الكلب

«الزبادي» افتقد متاعه وفيه مصحفه واشتكى إلى الملك واتهم الملك «بشرون» أنه وراء المصحف المفقود، فحقد عليه «بشرون» منذ ذلك، مما جعل كلا الطرفين يتحين فرصة الانتقام من غريمه.

كل هذا من ناحية «بشرون» والملك «ألافن أوولي» حتى كان ما كان من أمر معركة «إويري» ومن ناحية ثالثة ظهر «عوبيلي» رئيس قرية «بوغن» منازعًا شديداً للملك «ألافن» وصار يهاجم العاصمة بالسرايا لإضعاف الدولة لأنه يريد الاستقلال من نفوذ الملك «ألافن» فصار يفتح بلداً بعد بلد إلى أن أصيب بسهم في مدينة «بوهو» فمات هناك.

هذه الهزائم التي توالت على الملك «ألافن» من كل ناحية حملته على الانتحار، فاشتهر لذلك باسم «أوولي» وكان يسمى «أروغن غن»، ثم تولى مكانه «ألافن أديبو» كان أضعف قوة من سلفه.

لم يبق في المملكة من يطالب «أفنجا» بالانتحار ولم يجد مبرراً للرجوع إلى العاصمة التي ظلت مهددة بسرايا الثائرين.

لذلك لجأ بالفرار إلى قرية «إلورن» ليحتمي بحماية الصيادين الموجودين بها، وسواء أكان ينتمي بنسب إلى أهلها قبل ذلك أو لم يكن يمت بصلة إليهم، فقد نزل عليهم وأكرموا نزله وآووه إليهم هو ومن معه لأنه القائد الأعلى للجيش الوطني، ثم لأنه يمت بصله إلى الأسرة المالكه وكان قد حاول الاعتلاء على العرش مره قريبة.

فاستطاب المكوث في «إلورن» واستطاع بعد برهة أن يستعيد نفوذه في القرى المجاورة فصار عظيم الناحية ورئيس القرية.

ولم يبق في أنحاء المملكة من ينافسه غير «أونكويي» المسمى «أديغن» الذي أعلن استقلال نفسه عن الملك «ألافن» فتحالف معه «أفنجا».

ثم بدا له أن ينظم الهجوم هو نفسه على العاصمة لكي يشتت أهلها ويحول قرية «إلورن» إلى مدينة تكون مقرآً لدولته تنطلق منها أوامره إلى جميع النواحي الباقية.

ومن هنا سمع بخبر العالم الفلاني الشيخ «صالح بن جنتا» الذي كان ساكنًا في ذلك الوقت في قرية «كوهو» على بعد ثلاثين ميلا من «إلورن».

ولقد علمت أن ملوك «يوربا» وعظمائها وقواد حروبها كانوا يستعينون بالعلماء المسلمين على توطيد دعائم مملكتهم وعلى استنصارهم في حروبهم وغزواتهم، لذلك لما سمع «أفنجا» بخبر عالم فلاني دخل مرة عاصمة «عويولي» وكان الملك «ألافن أوولي» يريده معاونًا له، قبل أن يظهر له خلاف ذلك، فصار يبيت السوء للعالم.

ولما علم العالم صالح بذلك صار يخرج من بلد إلى إلى بلد يفر بنفسه حتى استقر به القرار في قرية «كوهو» بالقرب من «إلورن».

فسمع «أفنجا» بوجوده هناك فطلب إليه أن ينزل ضيفًا على أهل «إلورن» بما فيهم «أفنجا» نفسه، ولا فرق بين أن يكون هذا الطلب مباشرة من «أفنجا» أو بواسطة الفلانيين البقارين بجواره أو بواسطة أهل ربوة السنة.

فبذلك تم نزول العالم «صالح بن جنتا» في مدينة «إلورن» ضيفًا على «أفنجا» وعلى الفلانيين وعلى الهوساويين والبرناويين واليرباويين المسلمين.

وبعد برهة طلبوا من العالم هذا أن يستوفد أهله وأولاده من بلاده فاستجاب لذلك، فنزل كبير أولاده «عبد السلام» وأخوه «شئتا»، ثم تبعهم من معهم من الأتباع والأصحاب ونزلوا بجوار الشيخ بين أنصاره وأحبابه وعاشوا في وئام وسلام إلى أن مات الشيخ بعد ست سنوات من مقدمه.

وكان «أفنجا» يستعين بأتباع الشيخ في أحواله ويجندهم في حروبه لأن منهم فرسانًا يحسنون امتطاء صهوة الجواد ورمي السهام وإعمال السيوف رجالاً وركبانًا.

وبهم هاجم «أفنجا» قرية «شآو» فهزمها وبعض قرى أخرى قريبة وبدأ بهم في الهجوم على العاصمة «عويولي» في حياة الشيخ العالم[1].

---

(١) هكذا في إحدى الروايات، وفي رواية أخرى أن الهجوم على «شآو» في عهد عبد السلام وكذا الهجوم على «عويو».

وبعد موت الشيخ العالم صالح اجتمع أتباعه وأنصاره على أن يولوا عبد السلام كبير أولاده أميراً مسلمًا عليهم وقد اختلفوا في ذلك أول الأمر قليلاً ثم اتفقوا أخيراً.

وقد سجل الشيخ أحمد بن أبي بكر في تاريخه «أخبار القرون» أن من الذين خالفوا في ذلك رئيس قبائل «هوسا» المسمى «باكو» الذي يرى نفسه أحق بالإمارة لأنه سكن «إلورن» قبل العالم وكان رئيسًا لقبائل «هوسا».

وأن من الذين رضوا بذلك رئيس «ربوة السنة» المسمى «سولا بيرو» مع جماعته، كما رضي رئيس الفلانيين المسمى «أولوفادي»، فربحت كفة الأغلبية.

فتولى عبد السلام أميراً بشكل بسيط وصورة متواضعة، لا يسترعى انتباه «أفنجا» ومن معه، ولم يكترثوا بالأمر في المبدأ، لأنهم اعتبروا خاصّاً بالغرباء الذين عينوا من أنفسهم رئيسا عليهم خصوصًا لما كان هذا المعين ابن العالم الذي كان محبوبًا عند الجميع.

فسرعان ما تمت البيعة لعبد السلام، وشرع في تنظيم الحكومة وتقوية الدولة وتجنيد الجيش، ومن هنا شعر «أفنجا» بخطورة الحال فأظهر الغيظ والتذمر.

أما الأمير عبد السلام قد اعتبر هذا الشأن من «أفنجا» خروجًا على الحكم فاستعد للقضاء عليه والتخلص من أمره تمامًا قبل أن يستفحل ويتفاقم، فبعث عليه جيشًا أحاطوا به من كل جانب ورموه بسهام وأشعلوا على داره ناراً وقطعوا رأسه وحرقوا جثته.

ذكر المؤرخون أموراً مختلفة في تبرير موقف الأمير عبد السلام، يقول الشيخ أحمد ابن أبي بكر: إن «أفنجا» صار يتكبر على الأمير لذلك كان ما كان.

ويقول كاتب «النور المصون» إن «أفنجا» حفر حفرة في داره ثم دعا إليها الأمير ليقع فيها فذلك سبب ما كان.

ومن قائل: إنه ظل كافراً ولما دعاه الأمير إلى الإسلام فأبى لذلك كان ما كان.

ومنهم من قال: إنه لما امتلأ غيظًا من أمر عبد السلا م ألقى بنفسه في النار منتحراً.

وأحسنهم قولاً من قال: إن «أفنجا» قتل خطأ أثناء المناوشات التي قامت بين المسلمين والكفار في موسم عيد الغول الذي أغضبوا به المسلمين.

وأن الأمير عبد السلام تأسف على الواقعة واعتذر لأولاد «أفنجا» وآواهم إلى حمايته وأبقاهم على منصب أبيهم إلى اليوم وكانوا يسمون «مغاجي آري» بمعنى: خليفة آري.

ثم وقع خلاف بين الأمير عبد السلام وبين صديقه وصديق أبيه «سولا بيرو» انتهي بقتله شر قتله. ولقد نبه الشيخ أحمد بن أبي بكر فى تاريخ «إلورن» عن وقوع ما لا يرضى من الفعل من بعض أمراء «إلورن» عند قوله- وهو فلاني عاش قريبًا من الأمر:

«وبعد ذلك أخذ أميرنا عبد السلام الثاني الملقب «ماما» في الأفعال الممنوعة في الشرع كبيع الأحرار وتقوية الظالم على المظلوم والإعراض عن إزالة شكوى المظلوم، دام كذلك حتى مات في أربع سنين من خلافته.

وفي سبب موته شيء كثير لا نشتغل بذكره خوفًا من التطويل وصونًا للسان بالإمساك عما شجر بينهم، غير أنه قتل في حرب المملكة» اهـ.

قلت:

ويكفي من هذا أن هؤلاء الأمراء ليسوا معصومين عن الوقوع في الخطايا والمآثم عن قصد وتعمد أو عن جهل، وأن على العلماء أن يبينوا ذلك كما على المؤرخين أن يذكره ويدونوه كما حدث، وسوف يأتى تعليقنا على الموضوع بالاستيفاء إن شاء الله.

●●●

المبحث الثالث

في شخصية العالم صالح..

غارس شجرة الدولة الإسلامية في بلاد يوربا

ذلك هو الذي اشتهر بالشيخ عالم عند من لا يعرف اسمه، واستعار له عبد العليم أو أرمياء، ولكن اسمه الصحيح «صالح» أضيف إليه صفة العلم، وقيل: العالم صالح، أو الشيخ صالح.

يقول مستر «هودج» كاتب «تاريخ إلورن» عام ١٩٢٢م: «إنه ولد في مدينة «تنكر» الواقعة في مستعمرات فرنسا القديمة وتعلم في قرية «بوزا» (بوجا) بالقرب من بلاد «كبي» ا هـ.

ثم أقول معتمداً على الروايات الشفوية والغربلة المنطقية والفلسفية التاريخية المستنتجة من النصوص المكتوبة: إن العالم ارتحل من بلاد «كبي» التي تعلم منها إلى بلاد «فوتا» ثم سمع بظهور الشيخ عثمان بن فودي فتوجه إليه للتعارف والتبرك، ثم صار يطوف بالبلاد حتى دخل بلاد «برغو» وجال فيها، ثم ارتحل منها إلى بلاد «يوربا» وطاف بها حتى دخل عاصمتها «عويولي» وتواصل بالملك «ألافن» ملك «يوربا» ونزل في بيت زعيمة النساء المسماة «إيالودي»، مكث هناك سنة، ولما اشتهر باستجابة الدعاء وأقبل عليه رجالاً ونساءً خاف منه الملك وحاول قتله.

ثم خرج منها إلى «إيكويي» ولازمها سنة، ثم دخل مدينة «إيسين» ومكث بها سنة، ثم دخل «عوبومشو» ثم ألقى عصا ترحاله في قرية «كوهو» ولازمها ثلاث سنوات، ثم استدعاه أهل «إلورن» وعلى رأسهم «أفنجا» وأهل «أوكي سنة» وعلى رأسهم «سولا بيرو» وطلبوا منه أن ينزل إليهم فاستجاب لهم ذلك، ونزل على إخوانه الفلانيين البقارين وعلى رأسهم «أولوفادي» قريبا من دار «أفنجا»، ثم طلبوا منه أن يستوفد أبنائه من بلاده ليكونوا بجواره حتى يستقر له القرار في هذه القرية ولا ينتقل إلى غيرها كما كان يفعل، وهو يتقدم في العمر فاستسلم لرأيهم هذا وفعل ما أرادوه.

ونقل إلى هنا ما قاله الشيخ أحمد بن أبي بكر الفلاني في كتابه «أخبار القرون» وهو أول

كتاب تاريخي لهذا البلد كتبه عام ١٩١٢م، «قيل: إن العالم ليس هذا البلد أول مجيئه بل مشى إلى «عوبومشو» وأقام فيها ثلاثة أشهر ثم انتقل إلى «إيكويي» وأقام فيها سنة كاملة، ثم انتقل إلى «كوهو» وأقام فيها ثلاث سنوات، ومن «كوهو» سمع «أفنجا» خبره وأرسل إليه أن يزوره وجاء إليه في بلاده «إلورن» وأنزله في مكان البئر الذي كان اليوم في ساحة الأمير، وكان يكرمه غاية الإكرام ويأتيه بالصدقة هو وجماعته وكان لهم ضيفًا.

وكان على هذه الحالة حتى أرسل إليه «أفنجا» أن يزوره في بيته، وقال العالم: لا أمشي إليه دون دفع الأصنام التي عنده لأن العالم لا يجوز له دخول بيت فيه الأصنام.

وبعد ذلك سأل «أفنجا» منه يومًا: ألك ولد؟ فقال: نعم لي أربع بنين وبنت واحدة، وقال «أفنجا»: أحب أن ترسل إليهم وتأمرهم بالمجيء إليك لأن الولد يجبر كسر الوحشة فأرسل إليهم وجاءوا كلهم وأنزلهم «أفنجا» وكانوا معه، ثم لم يزل غبار خبر هذا العالم يثور في كل النواحي حتى عند الفلانيين الذين كانوا مع «أفنجا» قبل مجيء العالم ورئيسهم مسمى «علوفادي» يتبع البقر، وهو أيضا أول من كان ينصر هذا العالم ويساعده في كل أموره، وكان مترجمًا بين هؤلاء القبائل الذين يجتمعون عند هذا العالم وهو يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويهديهم طريق الهدى ويأمرهم بالإسلام، فيسلم من أراد إسلامه[١].

وغاظ ذلك جماعة «أفنجا» حتى قتل أخوه «أبنرن» نفسه حمية لما رأي من أحوال هذا العالم، وكان العالم على هذه الحالة من الأمر والنهي حتى توفي ستة سنين من مجيئه إلورن» اهـ.

قلت:

أوردت عبارة الشيخ أحمد بن أبي بكر الفلاني كما هي في كتابه وهو أقرب الناس إلى الشيخ عالم نسبًا وعصرًا، ولسوف يأتى تعليقنا عليه في محله.

---

(١) هنا مكان السؤال الذي يجب أن يجاوب عليه من يقول إن الشيخ العالم هو الذي جاء وعلم الناس العلوم العربية والإسلامية في بلاد «يوربا».

أما من ناحية أهل «ربوة السنة» ورئيسهم «سولا بيرو» قد كتب عنهم الشيخ أحمد قائلاً:

«اعلم أن من خلف بعد موت هذا العالم هو أكبر أولاده المسمى عبد السلام فهو طويل أحمر كثير الشعر، وفي يوم خلافته يحبه بعض ويكرهه بعض، وممن يحبه في ذلك اليوم رجل مسمى «سولا بيرو» وهو وجماعته في موضعه «أوكى سنة» لأنه أول من آمن بأبيه قبل موته ولذلك أعانه على أن يكون أميرًا عليهم».

قلت:

والروايات الشفوية المنقولة من الكبار تقول:

إن جماعة «سولا بيرو» في «أوكي سنة» فيهم العلماء الذين كانوا يتمسكون بالسنة حتى اشتهروا بها لذلك سموا قريتهم «ربوة السنة».

ويقال: إنهم هم الذين تتلمذوا للعالم وأطلقوا عليه صفة العالم لأنهم أخذوا منه بعض العلوم الفقهية منها نصف تفسير الجلالين، وهم الذين كانوا يجتمعون لديه كل جمعة للمذاكرة، وقد تعاونوا مع الشيخ في دعاء ربهم أن يبعث الله في بلاد «يوربا» دولة الإسلام، وكان العالم يكرمهم كثيرًا ولا يقطع أمرًا دونهم.

وقد استوصى جماعته وأولاده بهم خيرًا وصية شفوية ووصية كتابية وهي القصيدة اليائية المشهورة:

خـــذ بكلام العـــالمين يا أخى — العـــــالمين بسنة لا من ريا
ومـــعلمين الناس في أحـــوالهم — الآمـــرين المنكرين العـــاصيـــا
المخــلصــين الزاهــدين الــوُرَّع — أعــمــالهم أقــوالهم مــتــســاويا
قـــامـــوا بدين الحق لا من هـزلة — في الدين مـن أسـرارهم وعــلانيـا
لم يلـبســوا الحـق ببــاطل أمــرهم — لم يجــعلوا الدين كـدين يهــوديا
هذي صـفـات من صـفـات الأوليا — في الديـن من دين الحنيف تفـــاديا
شـــيخ الشـــيـوخ عــالم من أوليـا — ومـــجـــدد الدين بحق داعـــيـــا

عــثـمــان من نور الزمــان بفــضله | هذا الزمـــان لا الزمـــان الماضــــيـــا
لا غبن إلا مــن يجـــــادل أوليـــــا | في الفـرض أو في السنة مـتـجافـيـا
من يطـلـب الدين وعـلـمًــا نافــعًــا | فليـلـتــزم شــيــــخًــا أمــيـنا راويا
مــتــعـبــدًا مــتــذاكـرًا مــتــذللاً | مـتـضـرعًـا مـخـاشـعًـا مـتـراضـيـا
حــــصَّــل علومك مـن تقي عـــــابد | لتــرق منه إلى الـعـبـادة سـاعـيـا
ثوب الـعـــبـــادة ســاتــر مــتـلـبس | لا تلبـسن ثوب المـعـاصي عـاصـيـا
طلب الـعلوم من العــبــادة أفــضل | فـدع الـعـبـادة جـاهلاً مــتـفـانـيـا
كن شــاكــــرًا والزم قناعـــة قــانع | عن كـــثــرة أو قلـة كن راضــيـــا
رزق الخــلائق يطلبـنهم مــســرعًــا | فـاطلب دخـولك حـيـثـما تتـلاقـيـا
فــإذا قـضـى الله عليك مــا قــضى | فـالحق بصـبـر لا تـكن مـتـشـاكـيـا
احـــفــل بموت لحظـة أو فـــجـــأة | أو ســاعــة هو أو غـــدًا أو غــاديا
يا رب أدعــــوك بـأنك خــــالـقي | أنت اللطيـف المسـتـجيب الداعـيـا
أنت الســـمــيـع والعليـم بخلقـــه | لارب غـــيــرك واحـــدًا لا ثانيـــا
فـاغــفـر لنا فــيـمـا فَـعَلنا فِـعْلنا | يومًـــا تـرينا فـــعـلنا بكـتـــابيـــا

لقد تناقل الناس هذه القصيدة في «إلورن» وبلاد «يوربا» ولكنها مجردة عن اسم الناظم كعادتها في ذلك الوقت، ولقد نسبها الشيخ يعقوب ابن إمام الجامع في مدينة «إكرون» إلى الشيخ عثمان ولكن مدح الشيخ عثمان فيها يرد عليه ذلك، وإنما هي للشيخ عالم ولكن ركاكة بعض أبياتها يحمل الناس على عدم قبول هذه النسبة، لكنه لو لم يكن من عالم معتبر لما رددتها ألسنة العلماء والوعاظ في «إلورن»، ولو لم تكن هذه القصيدة منه ولم يكن علماء «ربوة السنة» تلاميذه فلا شيء يرفعه إلى لقب العالم وما يذكر له من الكرامات لا جدوى لها لأنها ليس لها أثر اليوم.

●●●

سبب قتل أفنجا وقتل سولا بيرو وتخريب أوكى سنة

يقول الشيخ أحمد بن أبي بكر :

«اتفق الأمر أن يجعلوا عبد السلام أميراً وهو أول من كان أمير المسلمين في هذا البلد ، وورث أيضا جميع أحوال أبيه في كل أمر ولم يزل يعامل هذا «أفنجا» كما يعامله أبوه حتى سأل «أفنجا» عنده يومًا أن يدعو له في إخراج الجيش إلى «شآوو»[١] وأخرج له وهزمهم وكان مع الأمير عبد السلام في البلد ، ثم لم يزل جماعة هذا الأمير يكثر ويعلو ويأتون إليه من كل ناحية ، ضاقت الأرض بـ «أفنجا» وغاظه ذلك وصار يتكلم للأمير بكلام من أضمر حسداً ، وعلم الأمير مكيدته وشمر هو وإخوانه على أن يقاتلوه وأرسلوا إليه بالقتال ، وأخرج لهم «أفنجا» جيشًا وقاتلوه وهزم جماعة الأمير جماعة «أفنجا» وحرقوا بيوتهم ، وحين رأي «أفنجا» ذلك ألقى نفسه في النار حمية ومات فيها وصار رماداً ومنذ ذلك كنى أبناؤه بـ «الرماد» .

وكان جيش «أفنجا» هناك ، ولم يعلموا ما حل به بعدهم ، ثم رماهم الأمير بدعوة عليهم أن يتشتتوا في كل قرية ، وكان الأمير على هذه الحالة في دولته وملكه وكثرة جماعته ، يقيم الدين كما يقيمه أبوه حتى لم يكن أحد يقدر على رد أمره إلا هذا الرجل «سولا بيرو» الذي قدمنا ذكره وهو يتكبر له ويكره أكثر أموره .

وكان «سولا بيرو» رئيسًا من رؤساء البلد الذين كانوا يتعاملون مع أبيه قبل موته ، حتى يحدث العوائد التي خالفت الشرع ، وأمر الأمير جماعة أن يراقبوه وفعلوا ذلك ووجدوا ما قيل له صدقًا ، وكانوا على ذلك حتى حدث جيش «عوفاعورو» وأخرج إليهم الأمير جيشًا ليقاتلوهم ، وهزمهم جيش الأمير ورجعوا إلى البلد .

ثم بعد ذلك قام «سولا بيرو» بالتكبر وقال للأمير : لِمَ لَمْ يزرنى جيشك حين رجعوا؟ فأمرهم الأمير أن يزوروه ، وكذلك الأمير يزوره بنفسه ولا يزور الأمير ، ثم أمر الأمير فرسانه أن يديروا حواليه ويهددوه لكي يترك التكبر والعوائد ومع ذلك ينهاه الأمير ولم يقبل ، فأخرج الأمير إليه جيشًا وتلقوه وهزموه وقتل «سولا بيرو»

(١) هذه كما جاءت في إحدى روايات ، وفي رواية أخرى أن إخراج الجيش إلى شآوو كان في حياة العالم كما قد قدمنا ذكره .

يومئذ، ولكن مدة مقاتلة الأمير مع «سولا بيرو» كان سبعة أشهر كان الأمير في ملكه ودولته» اهـ.

ويقول صمويل جونسن: إن جيش الأمير حاصر «أوكي سنة» هذه المدة حتى فني زادهم وزرعهم فأكلوا العشب والخرزون من شدة الحصار ولما ضاقت عليهم الأرض استسلموا حتى انهزموا.

قلت:

أوردت القصة لتفنيد من يريد تبديل هذه الحقائق بأباطيل في قتل «أفنجا» على يد الأمير عبد السلام وقتل «سولا بيرو» على يده أيضًا وتفنيد من قال إن الواقعة كانت أيام الشيخ عالم.

وعند كبار علمائنا أن الخلاف بين عبد السلام و «سولا بيرو» وقع حين بعثه الأمير إلى مدينة «إيكويي» للجهاد، ولما اشتد القتال دعوا إلى الصلح فأبى «سولا بيرو» ذلك، وأرسل إليه الأمير ولم يقبل حتى خرب «أيكويي» واحتج عليه الأمير بقول القرآن: ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا** ﴾ [الأنفال: ٦١] لذلك قاتله.

قلت: لا شيء في العقل والشرع يبرر قتل «أفنجا» وقتل «سولا بيرو» من عبد السلام ابن العالم وليته لم يفعل.. غفر الله له ولنا.

●●●

مناقب الأمير عبد السلام ومثالبه

لا شك أن عبد السلام ابن الشيخ صالح له مناقب ومحاسن ومزايا أهمها ثلاثة:

الأول: تأسيسه للدولة الإسلامية في بلاد يوربا (بمدينة إلورن).

الثاني: قيامه بالجهاد للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

الثالث: وضعه الأحجار الأساسية الأولى لمراكز العلم ومعاهد الدين في «إلورن».

وإذا نحن ذكرنا هذه المناقب فلا ينبغي لنا أن نضرب صفحًا عن المثالب والمساوي والمآخذ التي كانت نقاطًا سوداء في صحيفته البيضاء، نذكرها للاعتراف بأن الإسلام

بريء منها، رداً على الأعداء الذين زعموها من الإسلام وتعاليمه، وأنها من الشيخ العالم نفسه وإن كنا لا نزكي على الله أحداً.

فيجب أن ننزه الشيخ العالم من كل ما هو بريء منه كما نبعد الإسلام عن كل جريمة ارتكبها خليفة أو أمير أو إمام أو عالم باسم الإسلام، والإسلام بريء منها.

وتمويه هذه الأخطاء يضر ولا ينفع، إذ لا يصلح العطار ما أفسد الدهر، ولا يزيل مرارة الحنظل بما تسقيه أبداً من ماء العسل.

لذلك لا نستر الحقيقة التاريخية بما نشاء، والتاريخ تراث عام يكشفه غيرنا، أما أبناء العالم من عبد السلام وغيره فإنهم وإن كانوا سادتنا وأمراءنا وكبرائنا تبعهم أجدادنا ودخلوا في حمايتهم واستظلوا بظل دولتهم، ومع ذلك فإنهم غير معصومين من الأخطاء والمعاصي.

قال ابن تيمية في رسالته «الصوفية والفقراء» إن كثيرا من المؤمنين المتقين أولياء الله قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده، فلا بد أن يصدر منه خطأ إما في علومه وأقواله، وإما في أعماله وأحواله، فيثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم» (ما شاء الله أن يغفر لهم).

ثم أضاف ابن تيمية قائلاً: «فيهم السابق بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل الصنفين من يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب ويتوب، أو لا يتوب، وفيهم ظالم لنفسه عاص لربه» اهـ.

قلت: أما مثالب الأمير عبد السلام - غفر الله لنا وله- فتتلخص في أنه جازى أنصاره وأنصار أبيه جزاء سنمار كعادة الملوك، وذلك لا يليق به لأنه مقيم الدين وناصر الدعوة إلى الله.

لقد عرفت أن في قرية «إلورن» رؤساء أربعة قبل مقدم الشيخ العالم:

الأول: «أفنجا» وجماعته اليرباويون الذين أسسوا البلد.

والثاني: «سولا بيرو» وجماعته المسلمون من مختلف القبائل.

والثالث: «أولوفادي» وجماعته الفلانيون البقارون.

والرابع: «باكو» وجماعته الهوساويون التجار حتى ولو كان كمن يدعي ويزعم أن الشيخ العالم هو الذي أرسله ليسكن البلد قبله، وليس الاتفاق على هذه الدعوى وفي هذا الزعم عند المؤرخين، وقد سكن «باكو» إلورن على كل حال قبل العالم، ليس من بين هؤلاء الرؤساء الأربعة من سلم من ناب الأمير وظفره وأخفهم نيلا هو «باكو» رئيس قبائل «هوسا» الذي نازع الأمير أولاً في ولايته ثم استسلم أخيراً.

استعار منه الأمير طبله وبوقه يوم توليته ثم أبى أن يعيده إليه، ولا يزال أحفاد «باكو» يطالبون أحفاد الأمير بذلك الطبل والبوق إلى يومنا هذا خصوصًا أيام العيد، ولو بقي ذلك على طريق المزاح فيرد عليهم الأمير بالهدايا.

أما «أولوفادى» الذي أسكن الشيخ بجواره، وأسكن معه أولاده كذلك، فكان جزاؤه من الأمير عبد السلا م أنه أجلاه من مكانه إلى «ألوكو» واحتل المكان وبنى عليه قصر الإمارة لأنه مكان مرتفع يناسب للقصر الذي يطل منه على سائر الأرجاء.

أما «أفنجا» و «سولا بيرو» فقد كان جزاؤهما القتل بما لا طائل تحته من الحجة الواهنة سوى أن «أفنجا» تكبر على الأمير أو تآمر عليه، وأن «سولا بيرو» خالف قواعد الحرب بعدم استجابته للصلح مع أهل مدينة «إيكويي» أو أنه تكبر على الأمير وأحدث العوائد المخالفة للشرع ولم يذكروا لنا تلك العوائد كما ذكروها عن الأمير «ماما».

ولو لم يحدث هذا كله من الأمير لكان كمالاً وعرفانًا بالجميل لأهل الجميل، ولكن قاتل الله سطوة السلطة، ونزوة المملكة، التي لا تعرف إلّاً ولا ذمة ولا تترك صديقًا ولا خليلاً عند الانتقام فقد جاء بعد الأمير عبد السلام أمراء على «إلورن» في مختلف الصفَات منهم السابق للخيرات، ومنهم مقتصد، ومنهم ظالم لنفسه من الذين يأخذون أنصارهم وأصدقائهم بالتهم الواهنة، اللهم اغفر لهم واعف عنهم، ولا تؤاخذهم بما نسوا أو أخطأوا، فعسى أن يكف أمراءنا اليوم وغداً عن كل ما يعيد التاريخ المرير إلى أذهان الناس حتى يقولوا: هكذا كانوا يفعلون بأصدقائهم بالأمس، وكذلك يفعلون غداً بأصدقائهم اليوم.

﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحشر: ١٠]. ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٤].

●●●

تصحيح الأغلاط التاريخية
الموضوعة على الشيخ العالم

لقد نسب الأصدقاء إلى الشيخ العالم أشياء كان منها بريئًا، اعتبروها فضلاً وكرامة، وهي في الحقيقة نقص، وغضاضة.

وكذلك نسب الأعداء إليه أمورًا كان منها نزيهًا وهم يحاولون بذلك نيل المطاعن في فضله وفي الإسلام، والله يدافع عن الذين آمنوا والذين هم يتقون.

وإليك جملة ما نسب إليه الصديق من مزاعم:

الأول والثاني: قالوا: إن هذا العالم جاء من «سوكوتو» بإشارة شيخه عثمان بن فودي -أو شيخه عبد الله بن فودي- الذي أشار له بالتوجه إلى بلاد «يوربا».

والثالث: قالوا: إنه وجد أهل بلاد «يوربا» كلهم كفارًا وهو الذي أدخلهم في الإسلام أو أدخل الإسلام فيهم.

والرابع: قالوا: إنه لم يجد مسلمًا صحيحًا في «ربوة السنة» فضلاً عن أن يكون هناك علماء.

والخامس: قالوا: إنه لم يترك وصية لأحد فضلاً عن أن يترك قصيدة يمدح بها من دونه مع استحالة ذلك، فكيف يمدح العالم تلاميذه بقصائد؟!

والسادس: قالوا: إن «أفنجا» ومن معه طلبوا من الشيخ أن يكون أميرًا عليهم فرفض قائلاً: إن منزلته في الدين أعلى من منزلة السلطان، وأشار لهم بتولية ابنه عبد السلام.

والسابع: قالوا: إن أهل «عويو» قتلوا واعظًا من «إلورن» دخل المدينة يدعو إلى الإسلام فقتلوه وأرسل الأمير يسألهم عن ذلك فقتلوا الرسول.

هذه خلاصة الأقاويل التي تقولها الأصدقاء على الشيخ العالم.

أما ما قاله الأعداء فكما يأتي:

أولاً: قال «صمويل جونسن» في «تاريخ يوربا» «إن قتل «أفنجا» كان على يد العالم نفسه، ثم تظاهر بعد ذلك بالندم لأبناء «أفنجا» واعتذر لهم وأمر بتجديد بناء بيتهم.

ثانيًا: يقول «جونسن» في مواضع كثيرة من كتابه المذكور: «إن الشيخ العالم استوفد العبيد والمرتزقين من الجنود من بلاد «هوسا» إلى «إلورن» لسلب الدولة من «أفنجا» ومن الملك «ألافن» فصاروا يرغمون الناس على الدخول في الإسلام والخضوع للدولة الفلانية وقد خربوا القرى والبلاد بإحراق بيوتهم والهجوم عليهم بفرسانهم ليلاً وهم نائمون».

ثالثًا: يقول «جونسون» في تاريخ يوربا (ص ٢٠٢) ما معناه: «إن عبد السلام و«شئتا» ابنا أمة للعالم وأن ابن الزوجة الحرة ممنوع من الإرث».

وإليك الردود عليها بالتفصيل:

بداية الردود على ما قاله الأصدقاء

أولاً: إن القول بأن الشيخ صالح جاء من «سو كوتو»، ليس صحيحًا، لأن التاريخ يقول: إن «سوكوتو» لا وجود لها قبل عام ١٨٠٩م. بل كانت حلة يلتقى بها الصيادون وإنما بناها محمد بللو عام ١٨١٥م وانتقل إليها أبوه عثمان قبل وفاته بسنتين، وذلك عام ١٨١٧، فكيف يصح أن يأتي منها الشيخ العالم الذي دخل بلاد «يوربا» قبل بناء «سوكوتو»؟!

ثانيًا: إن القول بأن الشيخ العالم من تلاميذ الشيخ عثمان أو عبد الله أخيه، ليس له سند تاريخى إذ لا يوجد اسم الشيخ صالح في مؤلفات الاثنين، أو مؤلفات بللو، أو مؤلفات وزير غطاط، حتى جاء حفيد ابن فودي الشهيد أحمد بللو، يكتب أسماء الذين أخذوا اللواء من جده، ولم يعرف اسم الشيخ صالح بل استعار له «عبد العليم» ولم يرد عليه أحد من علماء «سوكوتو» وعلماء «غندو»، ولم يذكروا صواب الاسم، ولو كان الشيخ معروفًا من تلاميذهما لما غاب عنهم اسمه أو يضيع تاريخه عندهم، وإنما كان يبدأ تاريخهم بعبد السلام بن صالح ومن جاء بعده إلى اليوم.

جاء في رسالة ابن عبد الله أمير «غندو»: إلى عبد السلام أمير «يوربا»، ولو كان العالم صالح معروفًا لديه لذكر اسمه في الرسالة لربط الفرع بالأصل.

ثم جاء في الرسالة طلب إرسال التعزية من عبد السلام إلى أهل عبد الله عن وفاته، ولو كان تلميذاً لفعل ذلك قبل الطلب أو بدون الطلب كما يجب على التلميذ.

ثالثًا: إن القول بأن الشيخ العالم هو الذي أدخل الإسلام إلى بلاد «يوربا» ليس بصحيح حيث قد ثبت أنه جال بالبلاد اليرباوية ومكث في بعضها سنة وفي بعضها ثلاث سنوات، وتبلغ مدة جولانه بها نحو عشرة أعوام قبل نزوله إلى «إلورن».

وهل كان ينزل على الكفار، ويأكل من طعامهم ويعيش كما يعيشون؟ أم كان ينزل على كل مسلم في كل بلد؟

رابعًا: إن القول بأن الشيخ لم يجد في «ربوة السنة» مسلمًا صحيحًا فضلاً عن وجود علماء، ليس بصحيح، وإلا فكيف يفسرون «ربوة السنة» التي اشتهرت القرية بها؟ ثم أين العلماء الذين تشير إليهم رسالة محمد بن عبد الله إلى عبد السلام حيث قال:

«من محمد بن عبد الله أمير الغرب إلى عبد السلام أمير بلاد «يوربا» ومن معه من العلماء والأعوان والإخوان» اهـ.

ولم يذكر التاريخ أن أباه الشيخ صالح أحضر معه علماء، ولم يذكر التاريخ وصول العلماء من بلاد «هوسا» إلى «إلورن»، إلا في آخر أيام عبد السلام، وأول أيام أخيه «شئت»، والرسالة جاءت في أول عهد ولاية عبد السلام، وهي فاتحة الاتصال بين عبد السلام ومحمد بن عبد الله في «غندو»، وإذا لم يكن في «ربوة السنة» علماء، فأين العلماء المذكورين في الرسالة؟!

ومن ناحية أخرى، إذا لم يكن في «ربوة السنة» علماء تتلمذوا للشيخ العالم فلا يكون له تلميذ على الإطلاق، لأنه مكث ست سنين فقط في «إلورن»، فهذه المدة لا تكفي لتعليم الأطفال القرآن وتخريجهم علماء، ولا تكفي لتعليم الكبار علوم الدين واللغة العربية وتخريجهم، وبماذا عرف الناس أنه عالم في المستوى العالي؟ وجميع الذين حضروا مع عبد السلام ليسوا علماء بل هم جنود حملوا السلاح للجهاد، ولم يُعرف أحد منهم بالعلم لا «دوغري» ولا «جنبا» ولا «عثمان أچيكوبي» ولا «ميزنغو» ولا غيرهم.

خامسًا: قالوا إن الشيخ صالح لم يترك وصية شفوية ولا كتابية كالقصيدة، وليس من

شيمة أهل الله نكران الجميل، وحرمان كل ذي فضل فضله، ونحن نربأ بالشيخ العالم من ذلك، بعد أن ثبت أن هؤلاء هم الذين دعوه إلى استيطان «إلورن» ووهبوه الوطنية

التي كان يطلبها ليتمكن من الدعوة، حيث طلبوا إليه لزوم «إلورن» وإيفاد أبنائه وأهله إليها، فكانوا بذلك أنصاره كأنصار النبي محمد ﷺ بالمدينة المنورة، وكان هو بمنزلة النبي، والذين حضروا معه كانوا بمنزلة المهاجرين، وقد وصَّى النبي المهاجرين بالأنصار خيراً، حيث قال: «**علامة الإيمان حب الأنصار، وعلامة النفاق بغض الأنصار**».

ولأن يترك الشيخ العالم وصية لأنصاره الذين آووه ونصروه واستوفدوا إليه أهله خيراً، من أن لا يترك لأولاده والمهاجرين معهم وصية خير لمن نصروه.

أما القصيدة البائية فمن أنكر نسبتها إلى الشيخ العالم فليأت بكتاب أو قصيدة أو وثيقة علمية تشهد على كون الشيخ صالح عالماً من الدرجة الأولى في العلم، إذا لم يكن له تلاميذ ولم تكن له تآليف.

أما مدح العالم من دونه فقد مدح النبي ﷺ الأنصار، كما مدح أصحابه المهاجرين وهم دونه، وقد مدح الشيخ العالم علماء السنة، ومدح الشيخ عثمان في تلك القصيدة، ومدح علماء السنة في كل مكان.

وكذلك من أنكر وجود العلماء بـ«ربوة السنة» تتلمذوا للشيخ العالم فليذكر أسماء تلاميذه الذين تلقوا منه العلم، أو الذين تلقوا منه القرآن، حتى استحق أن يطلق عليه صفة عالم.

وقد مر عليك ما كتبه عنه الشيخ أبو بكر وهو عالم فلاني وأقرب الناس إلى الشيخ وقد أدرك حياة الرعيل الأول من علماء «إلورن» لم يذكر عالماً واحداً ولا اثنين، أنهما من تلاميذ عالم ولم يذكر أنه يعلم الصغار القرآن، ولا يعلم الكبار العلوم، وإنما ذكر أنه كان واعظاً يعلم الناس الدين، ويرشدهم، وكان «أولوفادى» ترجمانه وبقي كذلك حتى ست سنين من نزوله.

فقل لى يا أخي: إذا كان هذا العالم يستعين بالترجمان في نقل وعظه إلى العوام، وكان البقار «أولوفادى» ترجمانه وليس عالماً، فبأي لغة كان يعلم الناس العلوم كما

يزعم أحفاده اليوم أنه هو الذي علم الناس جميعهم علوم القرآن والسنة؟!! فليس ذلك إلا دعوى لم تقم على بينة ولا دليل.

- **خلاصة القول:**

إن الشيخ العالم صالح ليس من جملة تلاميذ ابن فودي ولم يأت من «سوكوتو» لأنها بنيت وهو في بلاد «يوربا»، ولم يترك هو نفسه تلاميذ معروفين كما ترك ابن فودي، وإنما ترك الأصحاب والخدام، وإنما أذعن الناس له لكونه وليّاً صوفيّاً كما انقادوا لشيوخ الطريقة، وانتسبوا إلى الشيخ عبد القادر والشيخ أحمد التجاني (رحمة الله عليهم).

والذين أخذوا منه التفسير كانوا من «ربوة السنة» لعلهم يتعاملون معه بلغة «هوسا» قتلهم ابنه وشتت الباقين في البلاد، ولم يبق من ينتسب اليوم إلى العالم صالح كتلميذ التعليم بل كمريد الشيخ في الطريقة الصوفية.

وإذا قلنا إن الشيخ العالم صالح ليس من جملة تلاميذ ابن فودي وأخيه عبد الله ولا عيب في ذلك للشيخ صالح ولا أبناء فودي، وإنما هو ولي مستقل بنفسه، ولكن عبد السلام الذي أخذ اللواء من ذرية ابن فودي.. يجوز أن يكون لهم تلميذاً.

سادسًا: زعموا أن «أفنجا» وجماعته طلبوا من العالم أن يتأمر عليهم فأبى قائلاً: إن منزلته أعلى من منزلة الأمير، ورشح ابنه عبد السلام للإمارة لهذا دخل عبد السلام مدينة «إلورن» بصفة الأمير الراعي واستقبله الناس بصفة الرعية الأتباع»!!.

هذا كلام من نسيج الخيال، ووهم الخيال، وكلام سكران الإمارة، وإذا صح ما زعموا فكيف قابلوا الحسنة بالسيئة؟! وكان قتل «أفنجا» على يد عبد السلام وحرق جثته بالنار ودفن رأسه مع رؤوس الآخرين على باب الأمير، بمكان يضربون عليه الطبل ليالي الجمعة باسم الإسلام؟!

سابعًا: كذلك الذي كذب أن أهل «عويو» قتلوا واعظًا من أهل «إلورن» وهو مجهول، ثم أرسل الأمير عبد السلام في طلبه فقتلوا الرسول، لذلك حارب «عويو» وشتت شملها وهل هذا كلام العاقل العادل؟!! أم كلام الجاهل المعتدي؟!!

والواقع الصحيح: أن اليرباويين أنصار «أفنجا» حاربوا من أجل الانتقام وأخذ الثأر من الضيوف الغرباء الذين قتلوا رب دارهم الذي دعاهم إلى البلد، ثم قام هؤلاء الضيوف بشن الغارات على القرى والمدن، ومن ثَمَّ قامت حرب «أوغيلى» و«إيكويى» وغارات على مدينة «عويو» لتشتيت شملها.

ولو كان الغرباء يقولون إنهم مجاهدون في سبيل الله فكيف يتوجه أثناء الحرب واعظ وحده إلى دار الحرب وهو أعزل؟! ثم يدعو إلى الإسلام ولا يقتلونه؟!

ولو عرف ذلك المدعي الكاذب شروط ارجهاد في الإسلام لما قال ما قال، على أن الإسلام نفسه أجاز قتل جاسوس الحرب بما رواه البخاري في صحيحه: «**أن النبي ﷺ أتاه عين من المشركين وهو في سفر فجلس مع أصحاب النبي يتحدث معهم ثم انفتل فقال النبي: اطلبوه واقتلوه**» اهـ.

قلت: ماذا يقول ذلك المدعي لو أن أهل «عويو» قالوا إنهم قتلوا ذلك الرجل لأنهم اتهموه بأنه جاسوس في صورة واعظ؟!

فكيف يعظ واعظ وحده في دار الكفر في ميدان القتال بعد قيام الحرب بين البلدين؟! فصار أحدهما دار الإسلام وثانيهما دار الكفر، وقد أفتى الفقهاء بتحريم حمل المصحف إلى دار الكفر.

●●●

بيان أغلاط كتاب «النور المصون»

أولاً: لقد جاء في كتاب «النور المصون» وهو الكتاب الوحيد الذي بيد أبناء عالم في تاريخ دخولهم إلى «إلورن» وفي تأسيس دولتهم وفي حروبهم وجهادهم في بلاد «يوربا». وفي الكتاب أغلاط تاريخية كثيرة، لا ينبغي تركها كما هي، بل يجب تصحيحها للإسلام وللحقيقة التاريخية.

منها ما قاله في مصير «أفنجا» (ص ٩) من المطبوع بالآلة الكاتبة ما نصه:

«ولما أتى جيوش «أفنجا» خرج جيوش الأمير والتقى الجيشان معًا بالحرب الشديدة فالتهبت نار الحرب يومين كاملين وانتصر جيوش الأمير على جيوش «أفنجا» وظفروا به وقتلوه وحرقوا جسمه وصار رماداً بعد أن قطعوا رأسه ودفنوه في الأرض، وهو من رءوس الرجال الأكابر الأربعة المدفون رءوسهم في المحل الذي يضرب عليه في ساحة الأمير» اهـ.

قلت:

هذا هو الاعتراف المكتوب بأيدي المؤرخين من آل الشيخ عالم صالح، فما الذي يبرر هذه الصنعة الشنيعة التي ارتكبوها باسم الإسلام؟

التمثيل بقطع الرأس وحرق الجسم بالنار ودفن الرأس بمكان يضرب عليه الطبل ليالي الجمعة، وقد أوصى النبي ﷺ جنوده بقوله: «**ولا تمثلوا**»(١).

وقد ذكر هذا الكتاب أسماء الرءوس الأخرى في مكان آخر من الكتاب وهي: رأس «كوره» ورأس «ألافين ماكو» ورأس «ألافن أولوايوو» مع رأس «أفنجا».

ثانيًا: قرر صاحب كتاب «النور المصون» أن الأمير عبد السلام استدعى «ألافن أولوا يوو» إلى «إلورن» وأنزله في دار عبده «جنبا»، وعند المقابلة سأله عن اسمه فأخبره

---

(١) قال رسول الله ﷺ في رجل: «**إن قدرتم عليه فاقتلوه ولا تحرقوه بالنار فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار**».
وفي البخاري عن أبي هريرة قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث وقال: «**إن وجدتم فلانًا وفلانًا** (لرجلين من قريش سماهما) **فاحرقوهما بالنار**» ثم قال حين أردنا الخروج: «**إني كنت قد أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا، فإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما**».

«ألافن» بما يسمى ففرض عليه الأمير اسمًا آخر على الرغم منه، وقال له: بل اسمك يكون محمد، فغضب «ألافن» من أجل ذلك ورجع إلى بلده. وكان يدفع الغلة إلى «إلورن»، فامتنع بعد ذلك عن دفع الغلة، فأرسل إليه الأمير عبده «جنبا» ليحاربه فظفر به وقتله في «عويولي» ثم جمع أولاده الثلاثة وهم «أغودانين» و«أجون» و«أتيبا» إلى «إلورن» ليكونوا تحت حضانة الأمير فأنزلهم الأمير في مكانهم المعروف بهم حتى اليوم في «أكلنبي» وكان أصغرهم «أتيبا».

ولما كبر «أتيبا» طلب من الأمير أن يأذن له بالذهاب إلى ضاحية أمه للحرث فأذن له، وهناك اجتمع الناس الذين يسكنون فيها على أن يكون «ألافن»، فكان كما يريدون» اهـ.

قلت:

إذا صح ما كتبه صاحب «النور المصون» في أن الأمير استدعى «ألافن» وفرض عليه اسم محمد جبراً وقسراً فلذلك غضب «ألافن» فامتنع عن دفع الغلة التي كان يدفعها، فأرسل الأمير إليه «جنبا» ليقتله فقتله.

فكيف يتفق هذا مع شروط الدعوة إلى الإسلام، وشروط الجهاد التي وضعها النبي ﷺ وسار عليها الخلفاء ودونها الفقهاء والمحدثون في كتبهم؟!

حيث كان الترتيب في الدعوة إلى الشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، هذه التي تعرض على الكافر، فإن رضي بها وقبلها فقد أسلم.

أما الاسم فالذي أسلم هو الذي له حق اختيار الاسم المحبوب لديه من أسماء المسلمين، أما الأمير عبدالسلام فلم يسلك هذا المسلك بل قفز توآً على تغيير الاسم وفرض اسم آخر على الرجل، وكان يدفع الغلة مع كونه كافراً.

ثم انتهي إلى شن الغارة على هذا الملك باسم الإسلام وتشتيت شمله، وليت الأمير لم يفعل ذلك كله لأنه مخالف لقواعد الجهاد في الإسلام.

وقد اضطرب الكلام واختلط على كاتب «النور المصون» حيث قال:

«إن «ألافن أولوا يوو» قد قتل في «إلورن» مع «كورا» في حرب «برغو» وقطع رأسهما ودفنا في الأرض بساحة الأمير» . . هكذا قال في (ص ١٢) من الكتاب المذكور، كما ذكر أن «ألافن أولوا يوو» قتل في «عويولى» قتله «جنبا» وجمع أولاده إلى «إلورن» وكان أصغرهم «أتيبا».

وذلك ليس بصحيح عند المؤرخين اليرباويين قاطبة، بل الصحيح أن «أتيبا» أصغر أولاد «الأفن أبعودون» ولم يعش «أتيبا» في مدينة «عويولى» ولكنه عاش وكبر في بلد أمه «أكيتن» بالقرب من «آغو» التي صارت «عويو الجديدة».

وكان بين «ألافن أبعودون» و«ألافن أولوايوو» أربعة ملوك لكل منهم تاريخ متعلق بحياة «أتيبا»، أولهم «أوولي» الذي تنازع مع «أفنجا» ثم «أديبو» ثم «ماكو» ثم «ماجوتو» ثم «أولوا يوو» في فترة أربع وثلاثين سنة بعد موت «أبعودون».

وقد جاء «أتيبا» بنفسه إلى «إلورن» عندما بدأت أركان دولة «عويو» تتزعزع، ولقد لعب دور السفارة بين أهل «إلورن» وأهل «عويو»، وكان بذلك يدرس السياسة الفلانية وإدارة الحكم لديهم.

وقد كان ينزل عند «أجاناكو» وكان يدعى ابن الملك، وكان رئيس قريته يسمى «أوجا» ولما مات تولى أخوه «تمبلي بو» كان يرافق «أتيبا» إلى «إلورن» ويأخذان العمامة والقباءة من الأمير، ورب منزلهما «أجاناكو»، فلا يصح أن يكو ن «أتيبا» أصغر أولاد «أولوا يوو»، الثلاثة جاء بهم «جنبا» إلى «إلورن» وإنما جاء بنفسه وهو من أولاد «إباودن».

وبعد موت «عوجا» وأخيه «عيلى بو» خلا الجو لابن الملك الذي هو «أتيبا» أن يصير ملكًا[1] فبذلك قامت مملكة «ألافن» من جديد وبنيت مدينة «إبادن» واختار فيها «أولويولى» ليكون «بشرون».

●●●

وإليك الردود على ما قاله الأعداء

أولاً: يقول جونسن إن قتل «أفنجا» كان بيد العالم نفسه، قاله في (ص ١٩٨)، فالأمر ليس كذلك، وإنما يريد جونسن لصق العار بالشيخ العالم وهو بريء منه.

(١) راجع ص (٢٧٧) من تاريخ يوربا لجونسن.

والمتفق عليه أن ذلك كان بيد عبد السلام وإلا فكيف حدث نفس الأمر مع «سولا بيرو»؟ هل كان ذلك أيضًا بيد الشيخ العالم؟! كلا!!

ثانيًا: يقول جونسن في مواضع كثيرة من كتابه: إن الشيخ العالم استوفد العبيد والمرتزقين من بلاد «هوسا» إلى «إلورن» لسلب الحكم من «أفنجا» وسلب الدولة من الملك «ألافن» (ص ١٩٧)، قول ليس بصحيح، ولكن الحقيقة أن الجيش الإسلامى لما تكون كان مؤلفًا من مختلف الأجناس لهذا وجدنا لكل القبائل قائدًا خاصّاً بها.

فقائد الفلانيين كان من أولاد «أولوفادي»، وقائد الهوساويين كان من «دوسي» ثم من «علي» ولليرباويين قائدان اثنان: أولهما «عثمان أجي كوبي» وثانيهما «أبليغن» الذي اشتهر أخيرًا بـ«ألانامو»، وكل هؤلاء القواد صاروا قوادًا أيام عبد السلام بعد موت أبيه العالم، فتبين أن الجنود اليرباويين أكثر عددًا من الهوساويين والفلاحين.

ثالثًا: يحكي جونسن عن زوجات الشيخ عالم حكاية غريبة (في ص ٢٠٢) من كتابه ما معناه: «إن العالم قد عاش مع زوجته الكبيرة طويلاً بدون ولد، وذهبت الزوجة إلى عريف تسأله عما تفعل، فأشار لها تشترى أمة وتهبها لرجل عالم تقي، إن فعلت هذا فسوف تلد، وتفكرت الزوجة وعلمت أن ليس أمامها عالم تقي أفضل من زوجها، فاشترت الأمة لزوجها الذي اتخذها زوجة صغيرة، وهذه هي التي أنجبت «عبد السلام» و«شئت»، وأخيرًا حملت الزوجة الكبيرة فجاءت بولد اسمه «عثمان»، ثم تزوج ثالثة فجاء منها ولد اسمه دانيال، فانتهي الأمر إلى أن أبناء الأمة هم الذين يرثون الحكومة ولا شيء لابن الحرة الكريمة الكبيرة» اهـ.

أقول:

لست أدري ما أقحم چونسن في هذه الحكاية وهي قضية لا ناقة له فيها ولا جمل، ثم إن أول ما يكذبه هو زعمه أن عثمان هو الابن الصلب للشيخ عالم والحقيقة أنه ابن الابن. اسم أبيه أبو بكر بن العالم.

أما استئثار «عبد السلام» و«شئت» بالحكم فمن أجل كون أبي بكر ودانيال صغيرين أيام تأسيس الدولة وقد قسموا لهما ولايات يحكمون عليها كما في نظام الأسر المالكة في العالم.

●●●

المبحث الرابع

في قيام الجهاد ببلاد يوربا

ولا يغرب عن بالنا أن رئيس قرية «إلورن» قبل مقدم الشيخ العالم كان يدعى «أفنجا»، وهو القائد الأعلى للحرس الوطني للملكة اليرباوية، كما أنه كان ينتمي إلى الأسرة المالكة من جهة أمه ولا جرم أن تكون به نزعة الاستيلاء، وقد حاول عبثًا أن يعتلي على عرش المملكة قبل نزوله إلى «إلورن»، وأنه جعل يستعين بالعالم صالح لتقوية نفسه ضد غريمه «ألافن» كل ذلك يفسر ما يمكن أن يدور في نفس «أفنجا» عندما بايع المسلمون ضيفًا من ضيوفه أميراً بجانبه على مرأى ومسمع منه، وكانت البيعة أولاً بصورة بسيطة ثم كبرت.

ومن ثَمَّ بدأت سلسلة من المؤامرات والمشاغبات التي انتهت بالمناوشات ورمي الأسلحة التي وقع فيها هذا القائد اليرباوي صريعًا لا حراك به على أيدي هؤلاء الجنود الذين كانوا في يوم من الأيام رهن إشارته وطوع إرادته يستعين بهم لتقوية نفسه ضد غريمه.

فبهذا دارت الأرض حول رءوس أصحاب «أفنجا» وأنصاره في البلاد المجاورة مثل «أديغون» صاحب مدينة «أيكويي» و«توييجي» صاحب مدينة «عويو مشو» وأمثالهما.

فصمموا على استئصال شأفة هؤلاء الضيوف، ومن هنا بدأ الاستعداد للحروب والغزوات، وبينما كان هؤلاء الرؤساء يُجمعون أمرهم ويجندون جيوشهم إذ بالأمير عبد السلام يرسل إلى «غندو» يخبرهم بقيام الحكومة الإسلامية، فجاء رد الرسالة وفيها من الوصايا ما يؤكد ضرورة القيام بالجهاد في سبيل الدعوة، فاستعد هو من جانبه للغزوات والسرايا والمناوشات التي تتابعت حتى العهد الإنجليزي.

أخذ يراسل القرى المجاورة لـ«إلورن» بقيام الجهاد لدين الله وأعلن عليها أن تلك البلاد والقرى أصبحت دار حرب، فتجب الهجرة منها إلى دار الإسلام، التي هي مدينة «إلورن».

كما كان يراسل المدن الكبرى بالدخول تحت حماية الدولة الإسلامية القائمة وإلا فالحرب الضروس التي لا تُبقى ولا تذر.

استعد الأمير عبد السلام بكل خيل، ورباط، وجنود، وعتاد، فبدأت سلسلة من الغارات تهاجم القرى المجاورة، وتخطف منها ما تشاء من الأطفال والنسوان.

ولما خاف أولئك على أنفسهم وأموالهم هاجروا من دار الحرب إلى دار الإسلام فبذلك بدأت المدينة تمتلئ حتى صارت مدينة كبيرة.

أما أنصار «أفنجا» فقد توبشوا من شتى النواحي وتعسكروا في قرية «أوغيلي» فكانت الواقعة الأولى التي انتصر فيها المسلمون كما انتصروا في وقعة بدر الكبرى في الإسلام.

الغزوة الأولى: واقعة أوغيلي، وتسمى «مُوبَا مُوبَا»[1]

يقول صمويل چونسن: إن واقعة «أوغيلي» دعا إليها زعماء «يوربا» لأخذ الثأر على مقتل «أفنجا» وللانتقام من الفلاحين وطردهم من بلاد «يوربا».

وتقع مدينة «أوغيلي» بالغرب الجنوبي من مدينة «إلورن» وكانت متوسطة السكان لأنها فوق قرية، ودون مدينة حاضرة.

وبينما كان اليرباويين يتكتلون هناك بلغ الأمير عبد السلام شأنهم هذا، فأخرج إليهم جيشًا بقيادة «سولا بيرو» من «ربوة السنة» وتحته جنود من أهل «ربوة السنة»، وأهل «إلورن» من الهوساويين والفلانيين وكان أكثرهم فرسانًا يحملون الرماح والسهام والسيوف مقابل ما عند اليرباويين الذين كانوا رجالاً مشاة يحملون فقط خناجرهم وبنادقهم وسهامهم، وكان يقود اليرباويين «تويجي» صاحب «عوبومشو»، وقد ارتقى إلى درجة «ككنفو» بعد موت «أفنجا»، وكان تحته أوباش من المختلف القرى.

التقى الجيشان في «أوغيلي» وحمى وطيس القتال ولم يلبثوا طويلاً حتى انهزموا وانتصر المسلمون وأدخل ذلك الرعب في قلوب الآخرين.

فكانت فاتحة خير لعهد جديد ونصراً عزيزاً للدولة الإسلامية الجديدة، وذلك الذي حمل اليرباويين على أن يتهادنوا مع قبائل «نوفي» الذين كانوا ينافسونهم قديمًا فيما حول النيجر، فتحالف الاثنان وتألبا على الفلانيين. وكان من أثر ذلك وقعة «سوبي».

(١) ومعنى «أوغيلي»: المدينة الثانية والمئاتين -أو السابعة، والمئاتين- من المدن التابعة للملك «الأفن»، ومنها «عوفالي» أى السادسة والمئاتين.

غزوة جبل سوبي .. وهي الواقعة الثانية

كانت قبائل «نوفي» تقطن الضفة الشمالية فيما حول نهر النيجر، وكانت تعبر بالقوارب إلى الضفة الجنوبية التي هي مبدأ حدود «يوربا»، وكانت القبيلتان النوفاوية واليرباوية تتنافسان على استعمار مقاطعات «إلورن» قبل ظهور الفلانيين فيها وبظهور ثالثة الأثافي لهم في تحالف المتنافسان.

وكان أمراء النوفاويون في داخل بلادهم يتكالبون على الدولة النوفاوية من أيام سلطانهم «أيتشو محمد» الذي كان له أخ يسمى «جمادى»، وكان ينازعه الدولة، ولما مات صار ابنه «إدريس» رئيسًا على مدينة «رابا» وصار «ماجيا» رئيسًا على «زنغما»، ولما صار الأمر إلى «مالم دندو» الذي ظل يجول بلاد «نوفي» كما يجول صالح بلاد «يوربا»، وانضم هو إلى «إدريس بن جمادى» وطردوا «ماجيا» إلى جنوب النهر، وتعسكر حول «جبل سوبي» وهو يريد الاستيلاء على «إلورن» وما حولها.

ولما علم الأمير عبد السلام بذلك بعث إليه جيشًا بقيادة رجل اسمه «دوسي الهوساوي» فانهزم «دوسي» ومات وتولى مكانه رجل اسمه «على ميزنغو» الذي لحق بالعالم من «إيكوبي» ووفق في التدبير فانتصر على «ماجيا» ومن معه من الخلفاء اليرباويين.

ويقول صاحب كتاب «النور المصون» أن «ماجيا» قتل في تلك المعركة، ولكن صمويل چونسن يقول: إن «ماجيا» لم يقتل بل انهزم جيشه ولاذ بالفرار إلى بلده «زنغما» شمال النيجر.

أحدث هذا الانتصار الذي أحرزه الفلانيون صدى عظيمًا رنت في آذان جميع من ببلاد «يوربا» فصار الفلانيون مرفوعي الرأس مرهوبي الجناب موفوري الكرامة.

أرسل الأمير عبده «جنبا» إلى الملك ألافن المسمى «أمودوا» في عاصمة بلاد يوربا بدعوة الإسلام[١]، إما أن يدخل تحت حماية الدولة الإسلامية الجديدة وإما أن يتعرض للغزو، فوافته المنية قبل أن يبت في الأمر وتولى خلفه المسمى «أولوايوو»، إذ بغارات

(١) لم يرد في أي تاريخ ما يثبت أن عبد السلام دعا أهل «عويو» بدعوة إلى الإسلام كما ذكرنا أعلاه، ولكننا أوردناه على أساس شروط الجهاد. (المؤلف).

الفرسان من «إلورن» تفاجئ جميع المدن والقرى المجاورة للعاصمة بين عشية وضحاها، فاندفع سيل من الهجرة إلى مدينة «إلورن»، ولم يجد الملك «ألافن» من يتقوى به من زعماء البلاد ورؤساءها فتوجه هو بنفسه إلى «إلورن» كما سيأتي.

الواقعة الثالثة: حرب إيكوبي

سبق أن قلنا إن الشيخ العالم كان قد نزل مدنية «إيكوبى» ولازمها سنة، وكان بها مسلمون وعلماء قبل نزول العالم بها، ولم نعرف من تعلموا ومن أسلموا على يديه أو من لحق به في «إلورن» غير «على ميزنغو» الهوساوي الذي صار بعد ذلك قائداً في حرب «منجيا»، ولما أعلن الأمير عبد السلام قيام الجهاد في بلاد «يوربا» وصرح بأن مدينة «إلورن» وحدها هي دار الإسلام، وما سواها فهي دار حرب، إلا ما دخل تحت الحماية.

أرسل بذلك إلى «أيكوبي» فامتنع صاحبها أن يدخل في الذمة واستعد لمحاربة «إلورن»، لهذا اشترك في واقعة «أوغيلي». وبعد انتصار جيوش الأمير في الواقعتين أرسل الأمير عبد السلام القائد «سولا بيرو» إلى «إيكوبي» فتوجه إليها بجيشه، وحاصر المدينة. ولما ضاقت الأرض برحبها على صاحب «إيكوبي» استسلم وطلب الكف عن القتال فامتنع «سولا بيرو» فأرسل صاحب «إيكوبي» أميناً له إلى «إلورن» بالاستسلام.

وفي رواية: إن صاحب «إيكوبي» نفسه تسلل حتى جاء إلى الأمير فاستسلم واسمه «سينن بولا»، فأرسل الأمير إلى القائد «سولا بيرو» بالكف عن القتال ولكن القائد أصر على مواصلة القتال حتى يتحقق النصر الباهر، ورد على الأمير بأن السياسة الحربية تقتضي الاستمرار حتى النصر، ففعل ذلك حتى خرب مدينة «إيكوبي» وتشتت أهلها شذر مذر وخرج بعضهم إلى «إلورن» ونزلوا في ناحيتهم المسماة اليوم بـ«ربورة أيكوبي».

فكان ذلك من أسباب ما صار إليه أمر «سولا بيرو» بعد عودته إلى «إلورن» وما عقب ذلك من تخريب «أوكي سنة» في يد جيوش الأمير عبد السلام وقتل رئيسها «سولا بيرو» صديق والده وناصره الأول عند التولية.

ثم أرسل الأمير عبد السلام أو -الأمير شئت «جنبا» يدعو «ألافن أولوايوو» لزيارة الأمير فشاوره العقلاء الموالون للفلانيين بقبول الدعوة للاحتراز من هجوم الفلانيين

عليهم فقبل المشورة وعمل بالرأي، فتوجه إلى الأمير عبد السلام وأكرم الأمير نزله، ولكن المقابلة والمفاوضة لم تسفر عن نتيجة صالحة، وقد ادعى چونسن أن جماعة الأمير سلبوا من الملك طبله ونفيره وبوقه، وقالوا إن الأمير أولى بتلك الأبهة والجلال أكثر من الملك الكافر (انظر ص ٢٥٩).

فرجع الملك إلى بلده وعزم على أن يتصل ملوك «برغو» الأقوياء المحنكين في الأساليب الحربية، وأن يتحالف معهم على إجلاء الفلانيين في هذه الناحية من البلاد، وعلى هذا الأساس قامت الواقعة الرابعة المسماة حرب «برغو» (أو حرب الذئب) عام ١٨٣٠م.

●●●

الواقعة الرابعة: حرب برغو، وتسمى حرب الذئب

على أن بلاد «برغو» كانت تقع بالشمال الغربي من بلاد «يوربا»، وتدعى القبيلتان -البرغو واليروبا- أنهما يتصلان بصلة القرابة مع بعضهما في أعماق التاريخ حتى قرر صمويل چونسن أن ملك «برغو» هو الذي اقتطع لـ«اليوربا» من أرضه موضع «عويولى» العاصمة.

وعند ظهور الدولة الفلانية، وكانت مدينة «غندو» شرقًا من بلاد «برغو» بعث الأمير محمد بن عبد الله الموصوف بأمير الغرب جيوشًا لفتح مدينة «واوا» إحدى حاضرات بلاد «برغو» فاستعصت على الجيش.

وحين قامت الدولة الإسلامية في «إلورن» وانتظمت في سلك إمارة «غندو» وجد أمير «غندو» فرصة أخرى لإعادة الكرة على بلاد «برغو».

وفي هذه الآونة ظهر قائد عظيم في بلاد «برغو» يسمى «الذئب» قد طبقت سمعته الآفاق في شدة النجدة والشجاعة والحنكة الحربية.

لذلك اتصل به الملك «ألافن» وتحالف معه على إجلاء الفلانيين من بلاد «يوربا»، وحين علم الأمير عبد السلام أو «شئت» بذلك، أرسل إلى «غندو» يطلب المدد لمجابهة هؤلاء الأوباش والأحزاب فأرسل إليه الأمير خليل بن عبد الله بجيش يقوده «بخارى» و«محمد ثنبو» إلى الأمير «شئت» الذي تولى بعد موت عبد السلام.

وهذه هي الواقعة الوحيدة التي اشترك فيها الجيش من خارج «إلورن» وما عداها فقد كانت الجيوش الإلورية وحدها فارس الحلبة في جميعها .

خرج الجيش البرغاوي بقيادة هذا الذئب ، ثم انضم إليه الجيش اليرباوى بقيادة الملك «ألافن» فأقبلوا بخيلهم ورجلهم إلى «إلورن» حتى قاربوا دخول المدينة فاستقبلهم جيش «إلورن» بقيادة «ألانامو» فكتب الله النصر للإسلام فقتل «الأفن أولوايوو» وقتل الذئب في ميدان «كودما» بـ«ربوة بكة» .

وقد وقع الخلاف بين المؤرخين في تاريخ هذه الواقعة . ولكن المتفق عليه أنها وقعت في عهد «الأمير شئت» ، كما وقع الخلاف بينهم في قاتل الذئب هل هو رجل هوساوي اسمه «دن بوبو» أم هو «إناكوجر بن إبليغن» ، فبهذا الانتصار رفع أهل «إلورن» رأسهم .

ومن هنا بدأت الغارات تهاجم «عويولي» وكان يقود أكثرها «جنبا» الذي هو كبير عبيد الأمير عبد السلام ، وقد شن على أهل مدينة «عويو» من الغارات ما لا قبل لهم بها فخافوا وافترقوا في البلاد حتى تم لهم تأسيس مدينة أخرى في مكانهم المعروف اليوم تحت قيادة «أتيبا» الذي كان أول من لجأ بالفرار إلى «إلورن» من الأسرة المالكة بصحبة عمه يوسف وكبير أمناء أبيه «أجي روبا» المسمى عبد الله «إدي فالو» .

فبذلك استأمن جانب من الإولوريين ولم يشنوا عليهم الغارات في «عويو الجديدة» ، ومن هنا استطاع أهل «إلورن» أن يسيطروا تمامًا على مدينة «عويو الجديدة» إلى حين تأسيس مدينة «إبادن» ، فبها استعاد أهل «عويو» بعض نفوذهم وقوتهم .

●●●

غزوة أوشوبو (الواقعة الخامسة)

خرج الجيش الإسلامى من مدينة «إلورن» إلى مدينة «أشويو» وحاصروها ، ولما شعر سلطان «أوشوبو» بالخطر الداهم أرسل إلى «أولوبولي» في «إبادن» للنجدة ، وأرسل إليه هذا كتيبة من الجنود فانهزمت أمام الجيش الإسلامي ، ثم أرسلوا كتيبة أخرى فانهزمت كذلك .

ومن هنا أحس «أولوبولي» منهم الخطر وجمع أمره على إرسال صناديده مثل

«عودى رنقولا» إلى «أوشوبو»، فتوجهوا إليها ودبروا المكيدة الحربية أوقعوا بها الهزيمة على الإلوريين، إذ هاجموهم وهم نيام في جوف الليل فوقع أربعة من أبطال «إلورن» تحت أيدي الكفار. وهم «عثمان أجكوبى» و«لاتيجو» المسمى «عبده»، و«جنبا» الفارس المعروف وأحد أبناء القائد الهوساوي «علي ميزنغو» وساقوهم أسارى إلى «إبادن»، فقتل «أجكوبى» بإرساله إلى «عويولى» فمات شهيداً على فوهة برميل البارود، فكان أول شهيد إسلامي في بلاد «يوربا» قتل على أيدى الكفار فيما سوى «سولا بيرو» وجماعته الذين قتلوا على أيدي إخوانهم خطأً.

قتل «أجكوبى» كما قتل «لاتيجو» لأنهما يرباويان، أما «جنبا» وابن القائد الهوساوي فأعيدا إلى «إلورن» بالفداء.

●●●

الغزوة السادسة: غزوة عوفا.. وهي أطول هذه الحروب مدة

لقد سبقت هذه الغزوة عدة وقائع أشهرها واقعة «عوين» وواقعة «جالومى» بالقرب من «إيكرون» وكانت سجالاً بين الطرفين وهي السبب المباشر لغزوة «عوفا»، وقد مات علي القائد الهوساوي في غزوة «عوين» وتولى بعده القائد الفلاني «إناكونو» كما نصب «أبا بكر كراره» مكان أبيه على «ميزنغو» الذي قاد الحرب إلى النصر في غزوة «سوبى».

وقد خرج «أبو بكر كراره» إلى غزوة «عوفا» بدون إذن الأمير «علي» فبدأ سوء التفاهم بين الاثنين، حتى تعاون الأمير مع العدو المحارب فترة وتكتل اليرباويون في هذه الغزوة وتوبشوا من مختلف البلاد التي بلغ عددها مائة وثلاثين بلداً، ومنها بلاد «أيكتى»، وتعسكر في مدينة «عوفا» فأقبل جيش «إلورن» وحاصر «عوفا» من الشمال، ودام القتال سجالاً بين الطرفين مدة سبعة عشرة عامًا إلى أن تم النصر أخيرًا لأهل «إلورن» فرجع اليرباويون، وهناك مات القائد «كراره» وتولى مكانه ابنه «آدم».

●●●

الغزوة السابعة: غزوة أوري موبي

ومن ثَمَّ بدأ أمر التدخل الإنجليزي بالصلح في إيقاف الحروب الداخلية لتأمين طرق

التجارة وتحرير العبيد وإطلاق الأسارى في نيجيريا، ولم يقبل أهل «إلورن» هذا الصلح من أيام الأمير «ماما» إلى أيام الأمير «سليمان» حتى انتهي الأمر إلى غزوة «أوري موبى» التي قادها «آدم بن كراره» من ناحية «إلورن»، وقاد الجيش الإنجليزي شركة النيجر من ثغر «لوكوجا»، وكان والدي رحمه الله ممن شهد الغزوة وكان يخبرنا عن أسباب تدخل الإنجليز وأسباب هزيمة أهل «إلورن».

ولما كانت الخيول والسيوف والرماح التي اعتمدها أهل «إلورن» لا قبل لها بمدافع الجيش الإنجليزي، لم يلبثوا حتى انهزموا فمات القائد «آدم بن كراره» في هذه الواقعة، فرجع الجيش إلى «إلورن» فسكتت حركتهم واستسلموا للقوة القاهرة وهي قوة المستعمرين.

وبسقوط «إلورن» وسقوط «أبي بكر ناغاماشي» في بلاد «نوفي» استطاع «لوغارد» أن يتغلب على «سوكوتو» و«زاريا» وما حولها.

● الخلاصة:

إن مجرد الاطلاع على هذا البحث والمباحث التي قبله يفسر تمامًا المبادئ والمقاصد والأسباب والوسائل التي قامت بها الدولة الإسلامية والجهاد الإسلامي في بلاد «يوربا»، وللقارئ بعد ذلك أن يعلق عليها ما يشاء أو يفسرها كيف شاء، لكن الواجب على المؤرخ الصادق، أن يكون مع الحق حيثما كان، ولا يدافع عن الباطل ولو من أقرب الناس إليه، ويجب أن يدين المخطئ على خطيئته لئلا يحمل الإسلام جريمة كبرى لو قسمت على أهل الأرض جميعًا لوسعتهم.

●●●

مملكة يوربا

سبق أن تكلمنا عن بلاد «يوربا» بالإسهاب، وتكلمنا عن الإسلام وعلماء الإسلام بها على الإجمال، وبقي أن نتكلم عن كل بلد من بلدانها بالتفصيل.

وقبل أن نستفيض في أخبار الإسلام في كل بلد على التفصيل، يجب أن نقدم وصفًا موجزًا لمملكة «يوربا» لنأخذ من الوصف صورة مصغرة عن العرش الذي سقطت قوائمه، والشجرة التي تقلصت ظلالها وانزوت أغصانها بقوة الإسلام، وقيام دولته ببلاد «يوربا» فنقول:

هي مملكة واسعة عظيمة قوية، تمتد من ضفاف جنوب النيجر شمالاً إلى حدود نهر «بنوي» ونيجر السفلى شرقًا، وإلى المحيط الأطلسي جنوبًا.

وتشمل بلاد «الداهومي» (بنين الحاضرة) و«فانتى» و«أشنتى» غربًا، وكانت المملكة في مناطق نفوذ ممالك غانا، ومالى، وسنغى القديمة، وممالك هوسا، وكان ملكها يحمل لقب «ألافن» بمعنى: «صاحب البلاط أو القصر» يخضع له رعاياه تمام الخضوع إلى درجة التأليه والتقديس، ويدين له بالطاعة جميع الملوك والأقيال في بلاد «يوربا» ويبلغون حوالي ألف بلد وقرية.

يدير المملكة مجلس أعلى يسمى «عويوميسى» وعددهم سبعة رجال يرأسهم «بشورن» كرئيس الوزراء، وبيد هذا المجلس الحل والعقد في أطراف المملكة.

وهناك مجلس الأمراء الذي يرأسهم «عونا سوكون» وهو رئيس الأسرة المالكة، ووظيفة مجلس الأمراء اختيار من يتولى على العرش عند فراغه.

وللملك ولى العهد يسمى «أريما» يتمتع بكل شرف في عهد أبيه، وإذا مات أبوه وتمكن من التولية على العرش فعل، وإذا لم يتمكن خرج من العاصمة إلى إحدى القرى أو المدن يتحين الفرصة، وإذا يئس من الولاية واضطهد من جانب وال آخر انتحر ولحق بآبائه في العالم الآخر، وتضم مملكة «يوربا» جيشين عظيمين لا يقل كلاهما عن ألف جندي حامل السلاح:

أحدهما: الحرس الملكي ويتكون من عبيد الملك الذين يفدونه بأرواحهم ويسمون «إلارى» بمعنى: «فاصل شعور الرأس» تحت رئاسة «كود يفو» و «إلوسيمى».

وثانيهما: الحرس الوطني ويتكون من الجنود الشباب ويسمون «أيسوو» يحرسون الدولة بكل حماسة ويرأسهم «أرى ككنفو» الذي يجب عليه أن يخرج للفتوح مرة في كل ثلاث سنوات ولا يعود إلى الوطن إلا مفتخراً إذا انتصر، أو منتحراً إذا انهزم في مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر من خروجه.

وكان يتشبه بالملك «ألافن» جميع ملوك «يوربا» وهم على نوعين:

نوع يلبس التاج من الحرزان وهم ملوك «عوبا» ونوع لا يلبسون التاج وهم أقيال «بالى».

عاشت المملكة ثلاثة قرون ثم تداعت عليها أسباب الهرم والونى والفتور بمطالبة مستعمراتها الاستقلال، ثم بقيام دولة الإسلام فسقطت من أوج مجدها.

●●●

أخلاق ملوك يوربا وعاداتهم وأقيالها في العصر القديم

كان ملوك «يوربا» القدماء وعلى رأسهم ملك «ألافن» في مدينة «عويو» على طراز الفراعنة، كانوا يتخلقون بأخلاق نمروذ بابل، وفرعون مصر، وكسرى فارس، وقيصر الروم، كأنما تواصوا بها واتفقوا عليها من عالم الغيب.

لذلك زعم «ألافن» أن جدهم الأعلى كان من عشيرة «نمروذ بن كنعان» فأخذوا منه ما قال للنبي إبراهيم عليه السلام: ﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فمدحوا الملك «ألافن» أنه «إكوبابيى» بمعنى مالك الموت والحياة، وأنه «كابى أيسى» بمعنى لا يسأل عما يفعل، وأخذوا من قول فرعون: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾ [النازعات: ٢٤] بما يمدحون به «ألافن» بأنه «ألا يى لوا» بمعنى: «مالك الدنيا والوجود».

فكان «ألافن» يغتصب من كل إنسان ما يعجبه حتى زوجته طبقًا لقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ [الكهف: ٧٩]. وكان ملوك «يوربا» يقتلون كل من يعارضهم أو ينافسهم مباشرة إن استطاعوا أو عن طريق غير مباشر،

ويستحلون أموالهم ونساءهم ويستعبدون أبناءهم كفرعون ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [القصص ٤].

وكان ملوك «يوربا» يهدمون بيوت من يشاءون ويأمرون بحرق ديارهم عليهم بغير حق شرعي، سوى أنهم يوجسون منه خيفة على دولتهم كـ «نيرون» قيصر الروم حين أشعل النار على روما ووقف على جبل ليشاهد الحريق ويشم رائحة شواء لحوم البشر.

وكان الملك «ألافن» في الدرجة الأولى ثم ملوك البلاد في الدرجة الثانية والثالثة قد نصبوا أنفسهم آلهة يعبدون من دون الله، فالقلانس على الرءوس والنعال في الأرجل ممنوعة بين أيديهم، وبالقرب من قصرهم وساحتهم.

وإذا أراد أحد الأعيان أو أقيال القرى أن يدخل على الملك خلع عن نفسه جميع الملابس الفاخرة وبقي معه ما يلي الجسد ثم يمرغ عذاره في ساحة القصر أو فناء الدار بتراب الأرض، وحثا على رأسه حفنات من التراب إيذانًا بالرعونة والعبودية، وبعد تمام هذه المراسيم يؤذن له بالدخول على الملك، ثم بالسلام عليه في حالة الانبطاح، واضعًا ذقنه على الأرض أو متمرغًا بخده وعذاره في التراب.

وإذا استعصى على هؤلاء الملوك منافسهم تهاونوا وتظاهروا بالعفو والمسامحة، حتى إذا غافلوه سمموا له طعامًا أو شرابًا أو قميصًا أو امرأة فيموت مسمومًا، فيتشفون منه ليتركوه عبرة لغيره.

لذلك كان كل من عارضهم أو نافسهم يبتعد عنهم ويهجر وطنه ويسكن بعيداً عنهم في حذر واحتياط، فلم يسلم من شرهم العلماء إلا بالالتجاء إلى الله والاحتماء بالقرآن، فاستطاعوا أن يضعوا حداً وسطًا لأنفسهم على حالة الرعونة والاستكانة والتمرغ في التراب.

وبعد عراك عنيف وصراع شديد انتهوا إلى أن الانبطاح حرام على الأئمة والعلماء، وأنها ضجعة يبغضها الله ورسوله، فاكتفوا بخلع النعال والجثو على الركب والجلوس على الأرض الجرداء، وعدم خلع العمامة لأنها تاج الله ورسوله على رءوس العلماء والأئمة، فثبت لهم ذلك إلى يومنا هذا.

وعلى هذا سار العلماء في المحاكم الحديثة، فلا يخلعون العمامة كما يخلع سائر الناس القلانس.

أما ما كان يمارسه الملوك من الأخلاق البربرية ودعوى الربوبية والانتقام بأي وسيلة، فلم يستطع العلماء أن يقضوا عليها قضاءً مبرمًا حتى جاء الإنكليز، وقابلوا القوة بالقوة ومنعوهم ما استطاعوا منعه وأبقوا ما لايستطيعون، إلى أن تحررت البلاد وأعلنوا حقوق الإنسان وقيام النظام الديمقراطي النيابي، فبدأ ظل الملوك يتقلص وينزوي، وذهبت سيطرتهم إلى غير رجعة ولا يزالون يحلمون باسترجاعها، ولكن رجال الحكم من العساكر وزعماء السياسة يماطلون ويسلكون بهم الطرائق الملتوية، وخضع بعض الملوك المثقفين للواقع وتمرد الآخرون وتذمروا، وصاروا يشجعهم على طغيانهم علماء السوء في بلادهم يخادعونهم ويمالئونهم.

لا فرق بين ملوك «يوربا» وملوك «هوسا» القدماء في تلك الأخلاق البربرية إلا ما قضى عليه التطورات الإصلاحية على ظلال الدولة الإسلامية المتعاقبة هناك، بفضل دعاة الحق والعلماء الصالحين.

ويشهد لك ما كتبه الإمام السيوطي في رسالته إلى سلطان «كاشنة» من قوله: بلغني من أهل «غوبر» أن منهم من إذا مرض ذبح عبدًا له وأمة ويزعم أن ذلك يفديه من الموت، فما أكفره فيما صنعه وفيما زعمه، وهذا ما يسوله الشيطان ويزينه من العدوان وما يؤول به صاحبه إلى الكفران، فيعلم من بعد ذلك أن الله بريء منه ورسوله، وليس هو يبلغ مناه وسؤله، ولو أعتقه لكان أقرب إلى الفداء بعيدًا عن الاعتداء، فمن عرض له أمر فليعرضه على حملة الشريعة ويسأل عالـمًا يوثق بعلمه، ويجب عليه أن يطيعه، ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ومن ذلك ما ذكر «محمد بللو» في «إنفاق الميسور» أن سلطان برنو «ماى عمر» تفرعن على الشيخ «سليمان والي» والشيخ «ولد يد»، لما قاما بالوعظ والإرشاد على رأس الألف عام من الهجرة، فحبس الاثنين ثم ذبح أحدهما وهو «سليمان الوالي»، وأطلق سراح «ولد يد» الذي فر إلى بلاد «باغرمى» قبل خرابها.

هكذا كـان يفـعل النمـارذة والفـراعنة والأباطرة والأكـاسـرة، فـبـعث الله الأنـبـيـاء والمرسلين لقمع طغيانهم وتحرير البشرية من عدوانهم، وجاء خاتم الأنبياء والمرسلين برحمة النبوة والخلافة وقال: «إنها ليست كسروية ولا قيصرية، ولكنها نبوة ورحمة».

وجاء دور الخلفاء وكانوا يسمون أمراء المؤمنين، جردوا أنفسهم عن أبهة الملك والسلطنة، واعتبروا أنفسهم خدام الأمة، وورثة الأنبياء والرسل لا قيصرية ولا كسروية ولا فرعونية.

ولم يطل المكث حتى انقلب الأمير قيصريّاً وكسرويّاً أيام بني أمية وبني العباس فرجعت الخلافة ملكًا عضوضًا، يعض كل إنسان بالأنياب والأضراس.

ومن هنا ابتعد العلماء عن الخلفاء وصار كل منهما في واد على طرفي نقيض. وفي نيجيريا قامت الدولة الفودوية على غرار النظام الإسلامي الأول فقضت على البقية الباقية من أخلاق الملوك في شمال نيجيريا، وتسمى رؤساءها بـ «أمير المؤمنين» في كل بلد من بلدانها، لأن الذين أسسوها كانوا علماء فقهاء وظلت خلافة وإمارة ورحمة على يد مؤسسيها العلماء الأتقياء.

ثم خلف من بعدهم خلف ضيعوا الأمانة، واتبعوا الشهوات، يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون سيُغفر لنا، منهم من ورثوا الأمانة ورعوها حق رعايتها وهم قليل، ومنهم من تنمرذوا وتفرعنوا في أخلاقهم وأعمالهم يقولون قول إبراهيم وموسى ويفعلون فعل نمروذ وفرعون.. وهم كثير.

وأكثرهم من في الحدود المتاخمة لملوك «يوربا» قلدوا الكفار وتشبهوا بهم تمامًا حتى تفوقوا يحملون لقب أمير المؤمنين، ويتزعمون حماية الشريعة الإسلامية، ثم يرتضون تطبيق العرف والعادات المخالفة للشريعة، ويحبون التقاليد الجاهلية كالانبطاح بين أيديهم وهي ضجعة يبغضها الله، والتمرغ على التراب والجلوس على الأرض الجرداء أمامهم، وهم متبوئون على عروشهم نصبوا أنفسهم أربابًا يعبدون من دون الله.

ومن أولئك الأمراء أمير يقول لعلماء بلده ومدينته: أنا خليفة جدي الذي جمع أجدادكم هنا، وتعلم أجدادكم على يده، وأنتم خلفاء آبائكم وأجدادكم تلاميذ جدي، فيجب أن تكرموني في جدي وتكرموا جدي فى، فلا تعصوا أمري، ومن خرج عن ذلك

فهو مسلوب الرحمة، منزوع الخير والبركة. أنا بيدي الضر أصيب به من عصاني، وبيدي النفع أعطيه من والاني من أبناء بلدي» اهـ، فماذا بقي أن يقول الله رب العالمين؟!

وإذا قيل له: هذا يخالف تعاليم الإسلام، أخذته العزة بالإثم وسعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد.

يقول ذلك كله ويفعله لأن جده جاء بالإسلام والعلم إلى البلد فقط لا غير! وكيف يتفق ذلك مع قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩].

أما الأمراء والعلماء الذين مضوا فليسوا عتاه ولا بغاة، بل هم هداة ودعاة إلى سبيل الله، لا يحيدون عن جادة الحق والاستقامة قيد ذراع، ولم يجعلوا أنفسهم أربابًا من دون الله.

ولكل قوم في كل زمان ومكان نمروذ وفرعون وقيصر وكسرى وما من نمروذ إلا ويبعث الله من العلماء من يكون على روح إبراهيم، فيقمع رأس نمروذ بمقامع الحق والبرهان، ويلقمه الحجر، ويدخل في خيشومه بعوضة يشدخ بها رأسه.

وما من فرعون إلا ويوكل الله عليه من العلماء من يكون بروح موسى ويغرق فرعون في اليم من الهم والغم، ويقطع دابره كما قطع دابر فرعون موسى.

وما من كسرى وقيصر إلا ويبعث الله من يعزز بجنود أشداء على الكفار رحماء بينهم فيكسر شوكة كسرى، ويقصر سطوة قيصر، كما محا الله آثار الكفر والضلالة، ومد نور الإسلام والهداية بمحمد ﷺ وأصحابه، والعلماء ورثة الأنبياء، ولكنهم في المجتمع الإسلامى فريقان اثنان:

فريق منهم كالذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وأخلد إلى الأرض واتبع الشهوات، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم، لذلك كانوا ينصرون الأمراء على الظلم والاستبداد، ولا ينصحونهم ولا ينذرونهم، بل يسجدون لهم ويقبلون الأرض بين أيديهم ويقولون إنهم خلفاء الله!!

وفريق آخر جعلهم الله أئمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم ولا صولة صائل، أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده.

﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ [هود: ١١٦].

وروى أسامه بن زيد رضي الله عنه أنه سمع رسول ﷺ يقول: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**».

وروي عن الإمام مالك قوله: «بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عن تبليغهم العلم كما تسأل الأنبياء عليهم السلام بقوله تعالى: ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأعراف: ٦].

وحديث لم يحضرني الآن إسناده ولكن متنه صحيح يؤيده حديث آخر؛ قال النبى ﷺ: «**إن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الإسلام حيث دار**».

وحديث آخر يقول: «**إن السلطان والقرآن سيفترقان فلا تفارقوا القرآن، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، فإن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم**» قالوا: ما نصنع يا رسول الله؟؟ قال: «**كونوا كما كان أصحاب عيسى، نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب، والذي نفسي بيده لموت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله**» اهـ.

●●●

علماء بلاد يوربا ودعوتهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة

العالم في الاصطلاح هو من يقرأ القرآن ويكتبه ويعلمه غيره، إلى جانب ما يضيف إلى ذلك من معرفة مبادئ الدين الضرورية.

ثم تدرج الأمر إلى من يعرف الفقه والحديث وتفسير القرآن، ثم تطور إلى من يعرف آداب اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة، سواء أكان في المستوى الابتدائي أو المستوى المتوسط أو المستوى النهائي.

وأخيرًا، يطلق العالم على الأديب والفقيه المتبحر إلى درجة تأليف الكتب وإنشاء الأشعار، فينتظم في سلك من كانوا كرامًا كاتبين، هكذا بدأ الأمر في الإسلام وتطور وترقى إلى ما هو عليه اليوم.

ولقد كان الصحابه الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**» وصفهم عليه السلام بقوله: «**لا تسبوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه**» (رواه الأربعة).

كان هؤلاء الصحابه متفاوتين في درجاتهم العلمية، منهم من يحفظ القرآن كله، وهم قليل، ومنهم من يحفظ نصفه، ومنهم من يحفظ ثلثه، ومنهم من يحفظ بضع آيات وسور قصار.

منهم من روى آلاف الأحاديث عن النبي ﷺ وهم قليل، ومنهم من يروي بضع مئات أو بضع عشرات، ومع ذلك فهم هداة الأنام ومصابيح الظلام، وهم السابقون الأولون لا تدركهم اللاحقون.

ثم جاء بعدهم التابعون على اختلاف مستوياتهم كذلك، ثم جاء الفقهاء الأئمة، ثم جاء من بعدهم من النحاة والأدباء والبلاغيون واللغويون.. فهلم جرًّا.

وعلى مثل هذا الغرار يقاس الأمر في علماء بلاد «يوربا» الذين ضحوا بأنفسهم ونفائسهم لنشر الإسلام في هذه البلاد، وليسوا على المستوى العالي في العلم.

في الطليعة الأولى منهم من يعرف القرآن قراءة وكتابة فقط وبعض مبادئ الإسلام وهم الأكثرون، ثم يليهم من يزيد على هذا المستوى، ثم يليهم من يرتفع بمستواه إلى ما هو أرقى وأعلى، وقليل منهم من بلغ الذروة حتى ألف كتابًا وقال شعرًا في اللغة العربية، وهؤلاء يوجدون في نواحي «إلورن» و «إبادن» ولكن الكثيرين منهم قد قالوا الأشعار بلغتهم لتعليم قومهم بلسانها على قاعدة قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد اجتهد أولئك العلماء في بعض مسائل طرأت عليهم في بلادهم، وربما أصابوا في ذلك الاجتهاد وربما أخطأوا، ومع ذلك فإنهم لا يلامون بل يثابون على قدر حسن نياتهم لخدمة الإسلام ونشره في ديار الكفار. فإذا نحن ذكرنا شيئًا مما فعلوا أو تركوا، فلسنا بصدد الانتقاد أو الاعتراض أو الموافقة أو المخالفة، وإنما نحن بصدد سرد الحوادث التاريخية كما كانت مع العلم أن لا خير في لومنا إياهم على ما أخطأوا فيه.

قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٤] وإنما يجب علينا أن نقول: ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحشر: ١٠].

●●●

علماء بلاد يوربا على أربعة أقسام

يمكن تقسيم علماء «يوربا» إلى أربعة أقسام:

وينطبق هذا التقسيم على كثير من البلاد المجاورة لها في نيجيريا وفي غرب إفريقيا.

القسم الأول: هم الوعاظ الدعاة إلى الله، منهم المتجولون بوعظهم في المدن والقرى، ومنهم الملازمون به أماكنهم بالمساجد أو الساحات العامة كالأسواق، يخصصون بوعظهم هذا بعض الأيام والليالي، ليحضر الرجال والنساء على السواء.

القسم الثاني: هم الأساتذة المدرسون الذين يعلمون القرآن والعلوم في منازلهم أو دهاليزهم أو زواياهم أو مساجدهم، وكان هؤلاء غالبا يعلمون بالمجان، وربما ينزل عليهم تلاميذهم ويسكنون معهم في منازلهم، وإذا أتت الهدايا والصدقات

تقاسموها فيما بين الأساتذة والتلامذة، والأساتذة بدورهم يعتمدون في معيشتهم على كسب أيديهم: منهم الخياطون، ومنهم الحاكة (النساجون)، ومنهم المزارعون.

والقسم الثالث: هم العباد الزهاد أصحاب الأذكار والأوراد وملازمة الصلاة على النبي ﷺ بكتاب «دلائل الخيرات» للجزولي، وقليل منهم من يلازم تلاوة القرآن لأن أكثرهم يهربون من الوقوع في اللحن وعدم إيتاء القرآن حقه من شروط التجويد، إذ قيل لهم: «رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه» ، فمال أكثرهم إلى ما هو أخف ثقلاً، وهو الأذكار والصلوات فراراً من أحكام التجويد.

والقسم الرابع: هم أصحاب الطب الروحاني والطب الجسماني وهم على ثلاثة أقسام:

قسم: تعلموا الطب من الكتب العربية كالطب النبوي، وكتاب الحكمة للسيوطي وغيرهما.

وقسم: اعتمدوا على الأعشاب المحلية والعقاقير البلدية في معالجة الأمراض.

وقسم: استعانوا بالتنجيم وخط الرمل، ومن هؤلاء كُتَّاب الأحجبة للشرب والتعليق: وكان هؤلاء يسمون بأهل الطب والجلب وأهل النجوم والأوفاق.

ويغلب على الظن أن هولاء أكثر انتشاراً في بلاد «يوربا» قبل دعوة ابن فودي، ومن كتبهم «زينة الدارين» وكتاب «حجاب الظهار» و «درع الصالحين» وفيها آيات قرآنية وطلاسم وعقاقير مكتوبة بلغات «يوربا».

وغالبًا ما يكونون على طرفي النقيض مع الأقسام الثلاثة، من الوعاظ والمدرسين والعباد، ويوجدون بكثرة في القرى والمدن من كل بلاد «يوربا»، وقد كان الملوك يتخذون منهم أنصاراً ووزراء يستعينون بهم في هذا الباب، كما كانوا يستعينون بالكهنة والسحرة وسيأتي أخبارهم قريبًا في محله.

أما العلماء الذين يشغلون مناصب القضاء فإنهم قليلون في بلاد «يوربا»، إذ لا يوجدون

إلا في نواحى مدينة «إلورن» التي استفاض إليها شيء قليل مما في بلاد «هوسا» من التوظيف الرسمي بالعلم الإسلامي.

ولكن بدأت الآن أصوات تطالب بإدخال مثل ما في بلاد «هوسا» من نظام القضاء إلى بلاد «يوربا» ويا ليت الدعاة أخلصوا فلا تكون الدعوة كلمة حق أريد بها باطل، خصوصًا عندما تكون «هوسا» في طليعة الدعوة.

●●●

رواسب الكفر والوثنية في بلاد يوربا

الكهانة مما استولت على نفوس الخواص والعوام في بلاد «يوربا» القديمة وتسمى «إيفا» وكان الضرب بالحصا والخط في الرمل واستنطاق الحبوب والودع من وسائل التنبؤ بالغيب، وكذلك السحر، وهو قسمان:

الأول: حقيقي في ذاته وإن كان باطلاً في الشرع، وهو جمع الأضداد من العقاقير والأعشاب لإضرار العدو، وذلك من نوع ما قال الله فيه: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

والثاني: خيالي ليس له وجود في الواقع فهو كالشعوذة.

فالأول رائج ومنتشر في بلاد «يوربا» في جاهليتهم وفي أيام إسلامهم إلى يومنا هذا، ثم إن الأعياد الوطنية التي تتجلى فيها مظاهر الكفر والوثنية كانت ولا تزال تمارس في كل بلد من بلاد «يوربا» حتى ولو كان ملكها ورئيسها مسلمًا، فإنه لا يستطيع أن يمنع تلك التقاليد مباشرة منعًا باتًا، وهو وإن كان لا يؤيدها ولا يشاهدها، فإنه يترك الذين يريدون إحياءها من رجال حاشيته الكفار أحرارًا في تصرفاتهم يعمهون في ضلالاتهم حتى يهديهم الله ربهم.

ظلت الحال على هذه الصورة حتى اليوم، مما يجعل الغريب النازل في أى بلد من بلاد «يوربا» متحيرًا في حكمه، إذا صادف عيدًا من أعيادهم الوطنية وشاهد تلك المظاهر لا يتردد في أن يحسب أنه في بلاد الكفار، وإذا جاء وصادف عيدًا من أعياد

الإسلام كشهر رمضان ورأى مجالس الوعظ والقرآن تقام ليلاً ونهاراً ومصلى التراويح في كل مكان، ثم شاهد مظاهر الإسلام في عيد الفطر وعيد الأضحى جزم بأنه في بلاد الإسلام.

تلك هي المفارقات التي امتازت بها بلاد «يوربا» حتى اعتقدت قبائل «هوسا» أن إسلام «يوربا» غير واضح أو غير مستقيم.

وقد كادت هذه التقاليد تنمحي وتضمحل بالتدريج، غير أن الذي زاد الطين بلة تألب الاستعمار والتبشير على القضاء على عين الإسلام وأثره في نيجيريا بإرجاع كل شيء إلى الجاهلية الأولى قبل الإسلام تحت عنوان «إحياء التقاليد والثقافات الوطنية»، وكلها لا تسلم من آثار الكفر والوثنية، فعلوا هنا كما فعلوا في مصر بإحياء الفرعونية، والعراق بإحياء البابلية، وفي اليمن بإحياء القحطانية، وفي الحجاز بإحياء العدنانية، للبرهنة على أن ما قبل الإسلام فن وثقافة ومجد وحضارة، صاروا يبعثونها من مراقدها ويصرفون البلايين من الأموال في سبيل إحيائها في كل مكان.

•••

دواعي طلب العلماء بديلاً عما عند الكهنة والسحرة

إن العلماء لما علموا أن القوم لهم اعتقاد بقوة السحر وتأثير الكهانة مما جعل الملوك والعوام يستشيرونه في حركاتهم وسكناتهم.

رأوا أن ليس من الحكمة أن يقولوا للمدعوين إلى الإسلام: لا تعتقدوا بتأثير السحر فإنه باطل، دون أن يأتوهم ببديل من الحق الذي يزهق الباطل والله يقول: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة: ١٠٦].

لذلك لجأ العلماء إلى استعمال بعض آيات القرآن لقمع طغيان السحرة والكهنة، فعارضوا السحر والكهانة فنجحوا في ذلك، فرجع إليهم الملوك واستعانوا بالعلماء الذين أكثروا من استعمال سور القرآن وآياته لقضاء مآربهم.

سألت أحد علماء الكبار - وكان ممن يستعمل القرآن لهذه الأمور - هل له دليل صحيح؟ فقال لي: اقرأ معي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ**

الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد: ٣١]، ثم قال: فما جزاء شرط «لو»؟ قلت: لست أدري، فقال: الجواب: لكان هذا القرآن، ثم أكمل الآية وقال: ﴿ **بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا** ﴾ [الرعد: ٣١]. ثم قال: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فتحيرت في الرد عليه بنص آخر من القرآن أو من السنة، ثم قال لي: هل قرأت في كتب الحديث أن عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أبو سعيد الخدرى الذي قرأ فاتحة الكتاب على لديغ الحية فكانت الفاتحة ترياقًا؟ قلت: نعم، قال: إن ذلك من الرقى، ولا يصح إلا من الأبرار، أصحاب الإيمان واليقين.

على أن المسلم الذي يعيش في بيئة إسلامية بحتة، ومجتمع إسلامي خالص، وفي وطن عربي أو شعب عربى قح، يختلف تمامًا عن ذلك المسلم الذي يعيش في بيئة مختلطة مزدوجة بين أباش وأخلاط من أجناس ذوي العقائد المختلفة، ففي مثل هذا الجو يتعرض العلماء لأحوال غريبة وظروف قاسية، لا تخطر ببال من يعيش في وسط إسلامي صريح.

ومما يذكر دواعي اللجوء إلى بديل: ما يحكى[(١)] من أن سلطانًا كافرًا من سلاطين نيجيريا الأقدمين، وكان يؤمن بقدرة السحرة والكهنة على كل شيء، وجاء علماء الإسلام وقالوا: إن القدرة لله جميعًا فأراد هذا السلطان أن يعلم أي الحزبين أصدق قيلاً وأقوى سبيلاً.

فجمع السحرة والعلماء في قصره ذات يوم لامتحانهم واختبارهم، ووعد الفائزين خيرًا وأوعد الخائبين شرًا.

أمتحنهم في أمرين؛ أولهما: إدراك ما في الغيب. ثانيهما: إنزال المطر في الحال، طلب إنجاز كل ذلك يومًا تلو يوم آخر في الموعد المحدد لكل ذي دين ليظهر المحق والمبطل، وفي أول يوم طلب إليهم إنزال المطر، وحدد لكل من الكهنة والسحرة ساعات، ومن العلماء الدعاة ساعات معدودة، في ذلك اليوم.

فتقدم السحرة وتلوا عزائمهم وحركوا حبالهم ونفثوا فيها وجمعوا حطبًا سحريًّا وأضرموا فيها نارًا، وتصاعد الحريق والبخار إلى السماء ثم انتظروا أن تمطر السماء ساعات ولم تمطر حتى قنطوا.

---

(١) وينسب مثل هذه الحكاية لسلطان «مالى» كما في رحلة البكري، ولكن الحكاية هنا أشمل وأطول مما هنالك.

فجاء دور العلماء وطلبوا من السلطان أن يمهلهم حتى يرجعوا من مصلاهم فقال لهم: افعلوا ما تشاءون، فقام العلماء وتوجهوا إلى المصلى لصلاة الاستسقاء وصلوها، دعوا هناك، ثم رجعوا وقد قلبوا ملابسهم وتوجهوا إلى دار السلطان وهم ينشدون:

وقـــولـنا الإســـــلام لا تهـــدمـنه ولا تخــزنــا يا ربنا اليـــوم والغـــدا

وما كادوا يفعلون حتى أمطرت السماء عليهم مدراراً سحابة اليوم حتى الليل، قال السلطان: هذا اليوم لكم وبقي الغد.

وفي اليوم الثاني خبأ السلطان بقرة بيضاء في غرفة مظلمة وأغلق عليها الأبواب والنوافذ، ثم أحضر الفريقين وقال لهما: أيكم يخبرني بما في هذه الغرفة ما هو؟ ما لونه؟!

فتقدم رئيس الكهنة فقال: إن فيها حيوانًا ذا قرنين طويلين وذنبًا طويلاً ولونًا أبيض، ثم أقبل على العلماء وسألهم: ما تقولون أنتم؟ فتحير العلماء فيما يقولون، ولما استيئسوا خلصوا نجيا وسألوا من يعرف الخط في الرمل من العلماء أن يضرب خطه ففعل ووجد مثل ما قال الكهنة وأرادوا أن يخالفوا المشركين.

ثم بحثوا ونظروا إلى أن اتفقوا على أن يقولوا: إن في الغرفة حيوانًا أسود ميتًا، فضحك السلطان هزواً فأوجس العلماء في أنفسهم خيفة الأمر، فطلبوا من السلطان أن يمهلهم ساعة فأجابهم فقاموا يسألون الله يصلون ويقرأون القرآن ويدعون، ولما أتموا أعادوا الضرب في الخط فكان الجواب كالأول ولكن أوضح من الأول، حيث قالوا: إن في الغرفة بقرة سوداء ميتة، ومن ثَمَّ أمر السلطان بفتح الغرفة وإحضار ما فيها ففتحوا فإذا بها بقرة سوداء ميتة، كما قال العلماء وقد أكرمهم الله بموت البقرة وتغير لونها من البياض إلى السواد، ومن هنا صدق السلطان العلماء فأسلم وجهه لله. فقد تواترات الأخبار بهذه القصة واشتهرت بين آباءنا وعلمائنا قبل اليوم.

قلت:

وحيث علم العلماء أن الكهنة كانوا يتنبأون بالغيب للملوك وقواد الحروب على سبيل التكهن لم يجدوا بدا من تعلم خط الرمل الذي وجدوا كتبه بالعربية من آثار الذين مضوا فجاروا به الكهنة وفاقوا عليهم، ولعلهم اعتمدوا في ذلك على ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «**كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك**».

وكذلك نظروا في النجوم حيث وجدوا ذلك كله مكتوبًا في الكتب العربية التي كانت تربط علم التنجيم بقول النبي إبراهيم: ﴿ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]، كما وجدوا لذلك ربطًا في قصة النبى يعقوب مع بنيه عند قوله تعالى: ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾ [يوسف: ٤].

وإذا جاء الإسلام بعد ذلك وأبطل الخط في الرمل والتكلم في النجوم، وإنما جاء الإسلام مصححًا للنبوات السابقة كما قاله الأستاذ عباس محمود العقاد[١].

فإذا كان هناك لوم لعلماء هذه البلاد في هذه الأمور، فإنما يرجع أصل هذا اللوم إلى العلماء الذين كتبوا كل ذلك في الكتب العربية في بلاد العرب، وانتشرت مع انتشار كتب الإسلام فلا لوم لعلماء «يوربا» إذا كانوا يضربون في الخط للتنبؤ بالغيب أو كانوا ينظرون في النجوم، وإنما يلام الذين وضعوا لها كتبًا من العرب فعلماء «يوربا» لم يبلغوا درجة الاجتهاد فإنما هم مقلدون فلا لوم عليهم.

●●●

علماء يوربا ورعاية طبائع المدعوين

يقرر اليوم علماء النفس ضرورة دراسة الميول والرغبات لنجاح التعليم والإرشاد، فسلك المربون هذا المسلك في تربية النشء والشباب، كما سلك الدعاة المبشرون في استمالة من يدعون.

فقد سبق علماء «يوربا» إلى هذه الفلسفة واستعملوها في أساليب دعوتهم فيما يأتي:

أولاً: قد لاحظوا أن قبائل «يوربا» لهم ولع شديد بالرقص، وكلف عميق بالغناء، كما اعترف اليوم علماء الاجتماع أن للزنوج في الرقص والغناء شغفًا بالزيادة على غيرهم، ولعل ذلك من آثار جو بلادهم أو من طعامهم وشرابهم أو فراغ بالهم وضميرهم.

---

(١) حقائق الإسلام.

فقد اهتدى العلماء إلى هذه الطبيعة لقومهم فلجأوا إلى اختراع الأناشيد الدينية في اللغات المحلية وأطلقوا عليها اسم «واكا» ولعل علماء «هوسا» قد سبقوا إلى ذلك لأن كلمة «واكا» هوساوية وليست يرباوية في الأصل، إذ كان للهوسا قصائد دينية عديدة، وقد نسب إلى ابن فودي قصائد هاوساوية وفلانية، وعليها جاء علماء «يوربا» ينشئون قصائد يورباوية يعلمون بها قومهم التوحيد والصلاة والبر والتقوى ويمدحون بها رسول الله ﷺ.

وكان من هذه الأناشيد: الأراجيز والأغاني التي ينشدونها، على نغمات توقيعية يرقص عليها الصبيان والنسوان في الأعياد والمواسم في الأفراح.

ثانيًا: فطن العلماء أن عقلية اليورباويين في التدين تقوم على تعجيل المنفعة بنيل المصلحة الدنيوية للمتدين قبل المصلحة الأخروية، كان «اليوربا» يقولون: «من لم تنفعه ديانته في الدنيا فلا تنفعه في الأخرى» وهم على مثال قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ** ﴾ [الحج: ١١].

ومع ذلك فالنفس مولعة بحب العاجل، على أننا لسنا بصدد الفتوى بالحسن أو القبح والتحليل أو التحريم إنما نحن بصدد سرد التاريخ كما هو بخيره وشره.

وإن كان الإسلام نفسه يسلك مسلك تعجيل المنفعة للمتدين في الدنيا حيث فرض نصيبًا من الزكاة للمؤلفة قلوبهم، وحيث قال النبي ﷺ لعمرو بن العاص عندما كان حديث عهد بالإسلام: «يا عمرو، إني أريد أن أبعثك على رأس سرية فيغنمك الله فيها» فقال عمرو: يا رسول الله، إني لم أسلم لذلك، فقال النبي ﷺ: «**عرفت ذلك، ولكن نعم المال الصالح للرجل الصالح**».

وعلى هذا الأساس فتح العلماء الزوايا والتكايا لإغاثة الملهوفين والمنكوبين وعملوا على جمع الزكاة والتبرعات لتوزيعها على المحتاجين، حتى يرسخ إيمانهم ويقوى إسلامهم.

ولما جاءت النصرانية سلكت هذا المسلك وأغدقت الأموال على الكنائس لإغاثة الضعفاء وفتحت المستشفيات لعلاج المرضى، واقتدت بالعلماء المسلمين في اختراع الأغاني والأناشيد في عباداتهم وصلواتهم في كنائسهم باللغات المحلية.

علماء يوربا بين التشدد و التساهل

في التقاليد والبدع

لاستعمال القوة في إزالة المنكر شروط، منها أن لا يؤدي تغيير المنكر إلى ما هو أدهي وأمر، ومنها أن يكون بإذن الأمير والحاكم لئلا يحدث الفوضى وسوء التصرف. وأما الوعظ والإرشاد فيمكن أن يقوم به أي فرد بدون أي إذن من أحد، لذلك كان الدعاة من علماء «يوربا» يعتمدون غالبًا على الوعظ والإرشاد والتعليم والتطبيب، ولعل ذلك من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

أما دور تغيير المنكر فله درجات، أولها التغيير بالقلب، ثم باللسان، ثم باليد. . على الترتيب كما في الحديث القائل: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**».

فالتغيير بالقلب أولاً ثم باللسان ثم باليد، إما بالضرب بالعصا أو بضرب بالسلاح، وهذا مبدأ الجهاد، ولا يكون الجهاد إلا بعد تمام البيعة لإمام أو أمير بقود الجيش.

ولما كان علماء بلاد «يوربا» لا يزالون ضعفاء يحاولون أول كل شيء إثبات كيانهم ووجودهم في المجتمع، يجز لهم شرعًا أن يعلنوا الجهاد قبل استيفاء شروطه من قيادة وجنود وعتاد وبيعة.

لذلك لزمهم أن يستعملوا اليُسر والتيسير، والتدريج في الدعوة على أساس أن الإسلام لم يلجأ إلى قوة السلاح إلا للدفاع عن النفس وعن الدين، ولم يكن الجهاد لإكراه الناس على الدخول في دين الله.

لهذا لا يُلام علماء «يوربا» إذا سكتوا عن بعض تقاليد جاهلية منتشرة في بلادهم وهم يعلمون أنهم لا يقدرون على إزالتها إلا بالقوة، و هي ليست بأيديهم.

كما لا يلامون إذا طلبوا من الإسلام بديلاً عما عند أهل الأديان الأخرى فيما ألفوا من التقاليد، أو أعرضوا عن بعض تقاليد الناس إذا لم تكن كفرًا صريحًا أو بدعة شنيعة، وهم يتأولون قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [النحل: ١٢٥] بما أمكنهم من التأويلات والمحتملات.

مكانة علماء الإسلام في بلاد يوربا

لقد أوضحنا في أول الكتاب كيف كان الملوك في بلاد «يوربا» يستعينون بالعلماء في توطيد دعائم مملكتهم ويستنصرونهم في التغلب على أعدائهم في حروبهم أو منافسهم في دولتهم.

وأن العلماء كانوا يستعينون بقراءة بعض السور والآيات على حوائجهم، كما قرأ الصحابى الجليل سورة الفاتحة على الملدوغ فبرئ من السم.

وكانوا يستعينون بقراءة سورة يس، حتى عرف غير المسلمين أن سورة يس قلب القرآن، وأنها تنفع لقضاء المآرب والحاجات، وربما اعتمد العلماء على ذلك الحديث القائل: «**سورة يس لما قرأت له**»، لهذا كان الناس حتى اليوم يكرمون العلماء المسلمين، ليس لأنهم أئمة وقادة المسلمين ودعاة الإسلام فقط، ولكن لأنهم يستطيعون أن يقرأوا القرآن أو سورة يس أو غيرها من القرآن لجلب ودفع الضر أو لقمع طغيان الظالم.

دخلت أنا في تجاذب أطراف الحديث مع بطريق من بطارقة النصارى في «لاغوس» منذ عهد بعيد فقال لي: إن مما ينفر الناس عن الإسلام كون المسلمين يقرأون يس في قرآنهم من أجل إضرار غيرهم، وهذا لا يدل على أن دينهم هذا دين رحمة وغفران، بل دين الشدة والعدوان.

فجاريته على منطقه ورأيه وأجبته على ضوء ذلك وقلت: إن الدول الصغرى والدول النامية، في الدنيا الحاضرة، ظلت تخشى أمريكا وروسيا كخشية الله أو أشد خشية، ليس لأن أمريكا وروسيا دولتان تعملان لنشر الرحمة والسلام في أرجاء العالم، بل لأن بحوزتهما القنابل والصواريخ الهيدروجينية التي لا تُبقي ولا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم.

وإذا كان هذا هو الواقع في العالم المادى الحسى، فما الذي يمنع المسلمين أن يملكوا في حوزتهم في العالم الروحي القنابل الذرية والصواريخ الهيدروجينية لقمع طغيان الظالمين، على أن الله تعالى أنزل في القرآن آية توضح الموقف وتقول:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد قسم العلماء أنفسهم إلى ثلاث درجات:

الأولى: الإمام الكبير: وهو من يسمونه الإمام الجامع الذي يُصلى بهم الجمعة والعيدين.

الثانية: درجة صاحب تفسير القرآن في رمضان، وقد يكون مجلسه في الجامع، وقد يكون في بيت السلطان إذا كان مسلمًا.

الثالثة: درجة الواعظ الليلي وهو الذي يقوم بالوعظ في ليالى رمضان يحضر مجلسه النساء والرجال، فأكثر ما يكون هذا الواعظ قصاصًا، وخيرهم من يميل إلى قصص الأنبياء في القرآن والأناشيد الوعظية باللغة المحلية.

فالواعظ يترقى إلى صاحب التفسير، كما يترقى ويتدرج صاحب التفسير إلى الإمام الكبير.

هذا هو النظام المتبع في مدينة «إبادن» وما حولها من أمثال مدينة «أوشوبو» ومدينة «إيوو» وغيرها، حيث قصروا الإمامة في بيوت محدودة وأسر معينة فلا يلتزمون التدريج بل وزعوا هذه الوظائف على مختلف الأنحاء كما هو المتبع في «لاغوس» و«أبيكوتا» و«إيجيبو أودى» وما حولها. ومهما يكن الأمر من شيء فالإمام في كل بلد من بلاد «يوربا» يحتل مكانًا مرموقًا، إذ هو الأمير الذي يصدر الأوامر إلى أئمة المساجد الصغيرة في المدينة والجوامع في القرى.

خلق العلماء لأنفسهم دولة صغيرة تحت دولة كبيرة يرأسها الإمام، ويوازرها العلماء ويخضع له جماعة، وكلما يخرج إلى مشوار له في موكب عظيم يلتف حوله أنصاره ووزراءه من العلماء، يتقدمهم عدد من المغنين الشعراء الذين يمدحون رسول الله ﷺ ويمدحون الإمام معه.

ومن أثر تكوين هذه الدولة الصغيرة جاءت فكرة اختيار الإمام عددًا من أعيان المسلمين وعليتهم وخلع ألقاب الشرف عليهم حسب جهودهم وجهادهم، كالألقاب

التي عند ملوك «يوربا» مثل «سيركي» بمعنى الرئيس أو «بابا الدين» بمعنى متبني الدين، و«بلوعن» بمعنى البطل أو القائد.

كما اختاروا من النساء من يخلعون عليهن أم السنة (إبا السنة).

حدثت بدعة هذه الألقاب من «لاغوس» أولاً، ثم امتدت إلى سائر بلاد «يوربا» خصوصًا «أبيكوتا» وجميع البلاد التي لا ينتظرون من قريب أو بعيد أن يكون ملكهم أو رئيسهم مسلمًا.

نظر المبتدعون في معنى أبي بكر على أنه أول باكور الإسلام والذي أنفق جميع ماله لإرساء قواعد الدين، فأطلقوا على من فعل مثل ذلك في بلادهم هذا اللقب «بابا الدين» أبو الدين، وهو منصب سيدنا أبي بكر مع إضافتهم إلى لقبه (الصديق) «أولودودو». كما نظروا في معنى عمر الفاروق أنه الرجل الذي أعز الله به الإسلام ولقب «فاروق» لأنه كان يفرق بين الحق والباطل، وأطلقوا على من يماثله عندهم لقب «الحبيب لا يحب الكذب»، كما نظروا في معنى عثمان الذي أنفق ماله في جيش العسرة، وخلعوا على من فعل مثله لقب «أنماشاهن»، ولما صار مبتذلاً لكل عثمان لم يعتبروه بعد ذلك لقب شرف، ونظروا في مكانة على بن أبى طالب وصموده على وجه الكفار في مختلف الوقائع كالبطل الصنديد القائد، وخلعوا على كل من على شاكلته لقب «بلوغن» بمعنى قائد الجيش، وصار «بلوغن» علمًا على كل من اسمه علي.

وكذلك نظروا من صفات أمهات المؤمنين فوجدوا سيدتنا عائشة أنها المرجع الكبير لمعرفة سنة النبي ﷺ في منزله ولحديث: «**خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء**»، وأنها روت من أحاديث النبي ﷺ أكثر من بعض الرجال، فخلعوا على كل امرأة تعلم النساء الدين لقب «أم السنة» أو لقب «أم القراءة» أو لقب «أم الدين».. وهكذا شاعت هذه الألقاب بين مسلمى بلاد «يوربا».

مكانة الحجاج

إذا كان العالم من إمام أو واعظ أو معلم الصبيان يتمتع بالتكريم والتوقير بين مسلمي بلاد «يوربا» كما تقدم، فإن كل مسلم حج بيت الله الحرام وزار قبر النبي عليه السلام ينال أفضل تكريم وأكمل توقير بين الصرورة الذين لم يحجوا بعد.

ذلك لأنهم يرون أن الحاج قد اجتمع بالصفوة المختارة من أمم الأرض في الديار المقدسة، وشاهد مهبط الوحي والتنزيل، والديار الأولى للمسلمين الأوائل، واقتبس من تلك الأماكن ثقافات إسلامية رجع بها إلى بلاده، ومن نظير ذلك أن النساء في بلاد «يوربا» كن لا يلبسن القميص بل يلتحفن باللحاف ويغطين رءوسهن بالخمار ويرخينها على صدورهن حتى جاءهن الحاج «يوشع أولوولي» بقميص «بوبا» سنة ١٩١٠م وقدمه إلى جامعة النساء المسلمات بـ«لاغوس».

وقميص «بوبا» قميص منتصف تلبسه النساء فوق الدثار والشعار فيما يلي الصدر والبطن من العنق إلى الكتفين والذراعين حتى الكوع، يلبسنه أولاً ثم يكملن باقي الجسم من النصف إلى الرجلين باللحاف الفضفاض.

ومن مدينة «لاغوس» انتشر هذا القميص إلى سائر بلاد «يوربا» حتى إلى سائر بلاد «هوسا» ثم اعتبر اليوم زيّاً وطنيّاً للمسلمات وغير المسلمات على السواء.

لهذا ولغيره من الأسباب، كان الحاج يحتل مكانًا مرموقًا بين المسلمين، وكان العلماء الذين لم يحجوا بعد يرجعون إلى الحاج يسألونه عن بعض مشاهداته في الحرمين وفي البلاد الإسلامية التي مر بها في طريقه ذهابًا وإيابًا، وكان الحجاج يسلكون طريق القوافل فيما بين «فاس» و«كانوا» و«كاشنة» إلى «برنو» ثم السودان ثم يجتازون البحر الأحمر بالباخرة.

ولما انفتح طريق البحر جعلوا يسلكونه من سواحل المحيط إلى الإسكندرية بمصر، وأخيرًا رجعوا إلى طريق الجو الذي لا يستغرق غير أيام قلائل بدءًا وعودة.

وازداد مبلغ الذين يحجون كل عام بسهولة المواصلات، ثم بما يظهر في الحاج من بركات، وذلك لما لاحظ الناس أن الله يستجيب الدعاء في تلك الأماكن المقدسة اندفع أكثر الناس إلى الحج لا من أجل أنهم أحسنوا إسلامهم إلى ذلك المستوى، ولكن ليسألوا الله حوائجهم هناك فيستجاب لهم.

وعلى كل ذلك فإن زيادة عدد الحجاج كل عام من نيجيريا إلى الحرمين يعد فضلاً ومزية للإسلام، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

مكانة الأشراف (أهل بيت الرسول)

كان مسلمو «يوربا» يكرمون من يسمونه «الشريف» أكثر مما يكرمون العلماء والحجاج، لأن «الشريف» شخص ينتمي بنسبه إلى رسول الله ﷺ من فرعي الحسن والحسين. وما كان أكثر المتصوفين ينتسبون إلى الطريقة القادرية والتجانية إلا أن أحد الاثنين: حسني، والآخر حسيني.

ولعل هذا يصدق بعض الشيء على ما يقال من وجود العلاقة بين التصوف والتشيع.

عظمت مكانة الشرفاء في بلاد «يوربا» حتى صار الناس يكرمون كل عربى على أنه شريف، فانتحل كثير من جوالة العرب أنهم شرفاء من أهل بيت النبي ﷺ لينالوا كرامات الناس وهباتهم وهداياهم.

وكان الشريف إذا دخل قرية أو مدينة وعلم المسلمون به، أقبلوا عليه من كل صوب يقبلون يديه ورجليه، لأنه من ذرية خير البرية، ويتقدمون إليه بكل ما هو غال ونفيس[1].

ولو أن دعاة الشيعة وجدوا طريقا إلى بلاد «يوربا» منذ عهد مبكر قبل اليوم لصيروا أكثر اليرباويين شيعة لكثرة حبهم للنبي محمد ﷺ ولأهل بيت النبي محمد ﷺ.

لذلك كان هناك عدد كثير من اليورباويين من كانوا يعيشون حياتهم على قراءة المدائح النبوية كالبردة والهمزية والعشرينية في المساجد والمجتمعات، فتنهال عليهم الهدايا والهبات والصدقات من الرجال والنساء، وذلك مظهر من مظاهر حبهم وولائهم للنبي محمد ﷺ. وترى اليرباويين يرفعون أصواتهم عالية بهتاف التسليم كلما ذكر أحدهم عندهم اسم النبي محمد، فيرددون بصوت عال كلمة: صلى الله عليه وسلم.

ومن دواعي حبهم للنبي ﷺ وأهله أن سيدنا محمداً ﷺ خير خلق الله، وحبيب الله، وخاتم أنبيائه ورسله، وهبه الله الشفاعة الكبرى عند الله يوم القيامة لما جاء في

(١) ظهر في بلاد «يوربا» حوالي عام ١٩٢٥م رجل جاء من السنغال يدعى «سيدي بكاء» كان يطوف بالبلاد راكبًا فرسه في موكب عظيم أمامه من ينفر له الأبواق ويضرب له الطبول والناس يكرمونه على أنه شريف.

الحديث : «**لكل نبي دعوة مستجابة وإنى خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**». على أن جميع الأنبياء : آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى لا يشفعون لأممهم يوم القيامة. حتى يشفع هو لأمته أو حتى يشفع لهم النبي ﷺ جميعًا[1] ومثل هذا النبي الكريم الرءوف الرحيم يجب أن يُكرم ويكرم ذريته أبد الآبدين.

ولقد تضاءل اليوم قدر الشرفاء في بلاد «يوربا» وغاب ذكرهم في المجتمعات ولم يعد أحد ينتحل ذلك الشرف، ولو انتحله لم يبق مَن يبالى به ويكرمه كما كان ذلك قبل الاستقلال وفتح السفارات، ولعل هذا التضاؤل من أثر التواصل أو من أثر العلمانية أو شيء آخر . . و الله أعلم.

●●●

اليوربا بين الصوفية والسلفية

الصوفية: مجموعة أقوال من أذكار وصلوات نطقت بها الألسنة وخضعت لها الأفئدة، وتعود عليها المسلمون منذ أجيال حتى اليوم، كما أنها مجموعة من صلاة وصيام وصدقات تواطأ عليها الجمهور وسارت مع مسيرة الدعوة في هذه البلاد، منها الأصلية ومنها الدخيلة، فيها الصحيحة وفيها المعوجة، . لا يقبل كلها لما فيها من الدخيلة والبدع، ولا يرد كلها لما فيها من الأصلية والسنن.

والسلفية: مجموعة أقوال جاءت حديثًا لمعارضة الصوفية، وجعلت تقتفي آثار الصوفيين للقضاء عليهم في كل مكان، وتشدد النكير على كل من يؤمن بتلك الآثار ويعمل بها، وتحمل العصا لمطاردة المجتمعين على الأذكار والأوراد في المساجد والزوايا والدهاليز.

وهل ستقتضي السلفية على الصوفية في بلاد «يوربا»؟! أم ستصيران جنبًا إلى جنب بالتصالح؟!

الجواب معلق على ما يأتي:

إذا دامت السلفية مدعمة بالمادية كما هي الآن فإنها تنتصر نوعًا ما، لأن أكثر الناس ميالون مع المادة حيث مالت، وقليل من الناس من لا يخضع للمادة.

---

(١) كما في حديث الشفاعة.

وإذا كانت القوة والدولة والصولة مع أحد الطرفين فالغلب طبعًا مع القوة، ألا ترى الشيعة منتصرة على السنة اليوم في إيران مع انتصار الثورة؟ فقس على مثل ذلك.

ثم إذا كانت العلمانية طاغية على التدين فهي تقضي على الصوفية والسلفية معًا. وسيكون أبناء الجامعات أول الضحايا للعلمانية لأنها ميدان فسيح لحرية البحث والهرطقة، ثم لأنها تحمل لواء التطور والتجدد في الدين، كما تحمل لواء هدم الدين من الأساس. فتنقض الإسلام عروة عروة حتى لا يبقى منه غير الصلاة مرتين في اليوم بكرة وعشيّاً. وتبقى صلاة الجمعة التي هي مرة في الأسبوع، وصلاة العيدين أهم شعار الإسلام كما صارت النصرانية، أو لا يبقى من الإسلام غير: لا إله إلا الله.

ولو تركوا التصوف دون معارضة لتطور كما تطور في الهند ومصر والسنغال لكان أحسن، لأن نفوذ الصوفية اليوم أقل بكثير من نفوذهم في النصف الماضي من هذا القرن.

ولكني أعتقد اعتقادًا جازمًا أن مسلمي «يوربا» لا ينفكون بأي حال وبأي بال عن سؤال الله ببركة النبي محمد ﷺ وجاهه، ولا يتركون رجاءه في نيل شفاعة النبي ﷺ، وهم إن تركوا الطريقة القادرية والتجانية، فإنهم لا يتركون أورادهما وأذكارهما التي اعتادوها، وكان بمثابة الاسم الأعظم عندهم لاستجابة الدعاء.

وكل دعوة تهدف إلى إلغاء كل هذا وإبطاله، فإنها تصطدم بمعارضات عنيفة ما دامت روح الإسلام وروح التدين باقية في نفوس «يوربا»، وما دام حب النبي محمد ﷺ مشغوفًا بقلوبهم.

قد قرر الباحثون وجود العلاقة بين التصوف والتشيع، فإذا بقي التشيع بقي التصوف، وإذا زال أحدهما زال الآخر وذلك كقول الأشتر:

اقـــــــتلوني ومـــــــــالكًا واقــــــتلوا مـــــالكًا مــــعي

وهل استطاعت السلفية أن تقضي على الصوفية في العالم قضاء مبرمًا؟! كلا. . . وهل تظن أن السوقي اليرباوي سيترك الإيمان بتأثير الدعاء ببعض آيات قرآنية وسورة قرآنية؟!. . كلا. . .

●●●

ثم دار الفلك دورته فخلف أولئك العلماء والأمراء من نسجوا على منوال أسلافهم في الهدى والإرشاد، وخلف انحرفوا عن جادة الاستقامة وصيروا الدين طينًا والتبر ترابًا والفضة قضة، وكرهوا أن يقال لهم: اتقوا الله، يقولون للوعاظ ماذا تريدون أن تقولوا لنا ونحن نعلم كل شيء بل أنتم وآباؤكم تلاميذ لنا ولآبائنا، أو يقولون: أنتم عبيدنا وأبناء عبيدنا، إن شئنا بعنا، وإن شئنا أعتقنا، وإن شئنا استرققنا، لأن أصل علومكم من عندنا، وكل من يخالف هذا ويدعو إلى سبيل الرشاد، فهو عندهم قليل الأدب والتواضع. . بل هو شيطان.

وعندهم من العلماء من يمدهم في طغيانهم ويقول: «السلطان ظل الله في الأرض يجب طاعته بلا قيد ولا شرط، ومن خرج عليه فقد شق عصا الطاعة فعليه لعنة الله والناس أجمعين».

ويحتجون بقصة موسى وفرعون عندما قال الله: ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا** ﴾ [طه: ٤٤] مع أننا لا نلتزم بآداب موسى مع فرعون، إنما نلتزم بآداب محمد ﷺ قال له تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة: ٧٣].

هذا هو الذي عمت به البلوى اليوم فيما يسمونه بلاد الإسلام من أقسام نيجيريا، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وشر ما مني به علماؤنا اليوم التكالب على نيل الوظيفة تحت هؤلاء الأمراء والحكام أو الحكومات، فكيف يستطيع أمثالهم أن يقولوا الحق!

قال الشاعر:

قالت الضفدع قولاً حققته الحكماء
في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء

ولله در القائل: «إن الله أمر أجدادنا وآباءنا بالطاعة فأطاعوا، وخلع عليهم خلعة الشرف والمجد والكرامة، فجاء الأبناء والأحفاد وتخاصموا على الخلعة وغفلوا من الطاعة:

قال الشاعر :

ورثنا المجد عن آباء صدق … أسأنا في مكانهم الصنيعا
إذا المجد الرفيع تعاورته … ولاة السوء أوشك أن يضيعا

وقال آخر :

إذا افتخرت بآباء لهم شرف … قلنا صدقت، ولكن بئس ما ولدوا

لقد أوردنا لك أمثلة حية من دعاة الحق في كل عصر من مختلف العصور، إذا لم تجد اليوم من تقتدي به من علماء زماننا فاقتد بأولئك الذين سبقوا، فلا تكن مع الهالكين.

●●●

أشهر الوعاظ في بلاد يوربا

لابد للناس من دعاة يدعون إلى الله بالأقوال والأفعال، ينبهون الغافلين، ويذكرون الناسين، ويعلمون الجاهلين، ويرشدون الضالين، ويقومون المعوجين المنحرفين، على نحو ما بعث الله الأنبياء والمرسلين في الأمم الأولين.

ثم أورث الله الكتاب للذين اصطفاهم من عباده لينوبوا عن الأنبياء المرسلين، فكان الوعظ والإرشاد أهم طرق الدعوة إلى الله في جميع الأمم والشعوب بمختلف أنحاء العالم، وقد لعب هؤلاء الوعاظ دوراً هامّاً على أوسع نطاق في بلاد «يوربا» على الإطلاق، واستعمل الوعاظ أفانين القول، وتنوعوا أساليب التطبيق، وجربوا ألوان التنسيق، حتى أثمرت جهودهم قطوفًا دانية، ونتاجًا يانعة.

وأهم ما اتفقوا عليه من أسلوب للأخذ بمجامع قلوب السامعين «أسلوب الشاعر والغناء».

وقد اخترعوا ذلك الأسلوب للأخذ بمجامع قلوب السامعين، والتأثير في نفوس المستمعين حتى كانوا يدمعون العيون الجامدة ويلينون القلوب المتحجرة عند سماع كلام الله ورسوله بأصوات رقيقة رنينة.

ثم لكل واعظ منهج خاص في مواجهة أئمة الكفر والوثنية من الملوك الذين يخرون للأصنام سجداً، ويطلبون بعد ذلك من قومهم أن يتخذوهم أرباباً، لأنهم نواب الله وخلفاؤه في الأرض. كما كان لكل واعظ مسلك خاص. في إقناع الأغنياء الذين حفت بهم الشهوات، وكانوا يأتون في بيوتهم المنكر كما يشاءون، يتخذون خلق الله سخريا لأغراضهم وشهواتهم، ولا يرجون لله وقاراً، ثم كان لكل واعظ منهم طريقة معينة في مجاهدة الكهنة والسحرة، الذين كانوا يوهمون الناس أن بيدهم ملكوت كل شيء من إنزال الأمطار وحبسها، ودفع البلايا وطردها، وجلب المنافع وتحصيلها، وإلحاق الأضرار بأعدائهم، وتجويع البلاد وتدميرها.

فتحداهم هؤلاء الدعاة حتى تغلبوا عليهم فألقي السحرة والكهنة سجداً لله قالوا: إننا آمنا برب العالمين، رب القرآن، ورب محمد، ورب هؤلاء العلماء الصالحين.

يوجد في كل بل من بلاد «يوربا» واعظ قائم لمجابهة الأعداء في هذه الميادين المختلفة، وربما بلغ عدد الوعاظ ثلاثة أو خمسة في كل من تلك البلاد، يقفون في وجه أولئك الأعداء، ومما يضرب به المثل من أولئك الوعاظ الشيخ أبو بكر بن عبد الله السني في «لاغوس» ويحكى أنه وقعت بينه وبين أعظم كافر في «لاغوس» حادثة وواقعة نصر الله فيها الحق على الباطل فكان نصراً مبيناً للإسلام والمسلمين حوالي عام ١٨٩٠م، وذلك أن غولاً يسمى «غول آدو» وكان زعيماً من السحرة والكهنة وكان يتوعد الشيخ أبا بكر شراً، إذا لم يكف لسانه عن ذم طقوس الكافرين، وأنه سوف يدعوه يوماً إلى المبارزة بين السحر والقرآن، فأجابه الشيخ أن القرآن هو الحق وأن السحر هو الباطل، وأن القرآن كعصا موسى إذا ألقاه تلقف ما يصنع الساحرون وأبطل ما كانوا يفعلون.

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السِّحْرُ والساحرون

فقالوا: اجعلوا لنا موعداً، قال السحرة: الموعد يوم عيد الغول عندنا، فقال الشيخ أبو بكر: ذلك وعد غير مكذوب، ويوم يجمع له الناس وهو اليوم المشهود (يوم الجمعة) فاجتمع الناس فلزم الشيخ مكانه في دهليز بيته فما برح ينتظر حضور الغول بساحة داره وقد أوعد بالحضور بسحره، وكان بيد هذا الساحر سلسلة على علبة إذا أخرجها بحديدة وضرب بها شخصاً سقط ذلك الشخص فوراً وتمرغ في التراب فلا يقوم من سقوطه إلا بترياق من الساحر.

ظل الساحر يرقص ويلهو يذهب، ويرجع، ليسحر الشيخ. وأخرج السلسلة كعادته ليضرب بها الشيخ، فأخذ الشيخ حفنة من التراب وتلا عليه بعض آيات من القرآن فنشره نحو الساحر. فالتوت السلسلة بيده فانقلب على رأسه وظهره فوقع على الأرض بدلاً من الشيخ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ** ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ [الطلاق: ٣].

هذا مثال واحد من مئات الأمثلة التي كان يقاومها الدعاة الأولون في بلاد «يوربا»، وهذا ما لا ينادى فيه الوليد، ولا يستفتى فيه البليد.

ومن مشاهير الوعاظ الذين يتحولون بوعظهم في عواصم البلاد ومدنها ذات العماد: الشيخ محمد سنوسي صاحب «البيان». وقد ذكره الشيخ أحمد الرفاعي أنه من أوائل الوعاظ الذين خدموا بوعظهم الإسلام في «أبادن» و«لاغوس».

كان من أهل «إلورن» إذا خرج منها مر على كل بلد ومكث به مدة للوعظ، ثم اجتاز إلى غيرها حتى يصل إلى «لاغوس» وهناك اتخذ لنفسه مركزًا على الدوام حتى بنى بها مسجدًا في ساحة «بالوغن»، وقد ترك ابنه عبد الكريم في مدينة «إبادن»، فصار ينسج على منوال أبيه إلى أن مات بها، وله أسرة هناك معروفة باسم صاحب البيان.

ومن أشهر الوعاظ الشيخ سعد الإلوري «شادو» الشهير بلقبه «كو كيهو كو بيرى» بدأ في التجول بوعظه منذ حوالي عام ١٨٩٠م، وكان من الطراز الخاص يرافقه موكب عظيم من الأنصار ما بين ترجمان ومادحي النبي ﷺ وحاملي العصا، لم يترك بلدًا ولا قرية من بلاد «يوربا» الغربية إلا دخلها، وكانت له مواقف حاسمة مع الملوك الكفار والكهنة والسحرة على شكل ما أسلفنا ذكره، وكان ينتصر دائمًا في كل معركة وكل موقف.

ومن غريب ما يحكى له أنه كان يدخل على الملوك الجبابرة الذين يتخذون الأصنام آلهة من دون الله فتسقط الأصنام فتشعل نارًا من غير أن يرى أحد منشأ النار، وقد وقع له ذلك في مدينة «عويو» أمام الملك «ألافن لونى» حوالي عام ١٩٠٠م ولعله كان يرسل

واحداً من أتباعه ويدخل بيت الأوثان قبله، ويتصرف كما يشاء، ولا يُرى، وإذا رأى الكفار هذا الرسول أشعلوا عليه النار فلا يحترق، ويضربونه بالسكين والسيف فلا يتأثر، وربما كان الواعظ يستعين على ذلك بالسحر الحلال الذي هو جنس الكيمياء كالحرير الصخري الذي إذا وضع فيه نار لم يحترق، أو شحم الضفدعة الذي إذا مسح به الذراع منع أذى لهيب النار(١).

وكذا سر الحجاب عن أبصار الكفار كان منتشراً بين العلماء في الزمان الأول، من جنس ما يروى أن كفار قريش اجتمعوا يومًا على باب الرسول ﷺ ينتظرون خروجه ليؤذوه فإذا به يخرج وينثر التراب على رءوسهم وهم نائمون وهو يقرأ سورة يس إلى قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**﴾ [٩]. . . كذا في التفاسر.

استعان القدماء من علمائنا ببعض العقاقير، وأضافوا إليها تكرار قراءة بعض السور والآيات لأغراض خاصة، فنجحوا، فكان عونًا لهم في الدعوة.

لبث الشيخ سعد في عمل الوعظ والإرشاد حتى أسلم على يديه ما بلغ نصف مليون في الفترة ما بين أربعين عامًا قبل أن ينتقل إلى جوار ربه عام ١٩٣٥م. . رحمه الله رحمة واسعة.

ومن أشهر الواعظين الذين كانوا يتجولون بوعظهم في البلاد الشيخ «محمد كورنغا» الشهير بلقب «ألراني» كان من طراز «الشيخ سعد» السالف الذكر، وكان من علماء «إيسين» طاف بوعظه حول بلاد «يوربا» من «عويو» و«إبادن» و«أبيكوتا» و«إجيبو» و«لاغوس»، وانتهت إليه رئاسة الوعظ والإرشاد في بلاد «يوربا» قبل وفاته حوالي عام ١٩٤٥م.

أولئك الذين ألزمهم الله كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها.

---

(١) وحاصله: أن المجوس الذين يدخلون النار فلا تحرقهم كانوا يأخذون الضفدعة، ويقتلونها ويغلونها حتى يخرج الدهن ثم يجعلون هذا الدهن في البارود الثلجي ويخلطونه حتى يصير مرهمًا يمسحون به أجسامهم (فيدخلون النار لئلا تضرهم) انظر كتاب: كشف الأسرار ص ٦٦.

وهناك عشرات من صغار الوعاظ ينتقلون بوعظهم في البلاد الفينة بعد الفينة، ومنهم من لا يخرج بوعظه إلا في شهر رمضان، ومنهم من يتحين فرصة المناسبات الاجتماعية فيصدع بوعظه بين الجماعة.

واليوم بعد انقراض أولئك الأتقياء بقي من لا يقرأ غير آيات الإنفاق في سبيل الله، وآيات البشارة برحمة الله، مع أن النبي ﷺ كان بشيراً ونذيراً.

لقد كان الواعظ يعظ الناس فيبكي هو حتى يبكي السامعين من خشية الله، فأصبح الوعظ اليوم أضحوكة أو تمثيلية يتنزه بها الواعظ والمستمعون كلهم يضحكون ولا يبكون، أو لا يهمهم إلا قدح واعظ آخر وأكل لحمه لتشيع الفاحشة في الصاحب بالجنب، ليبقى هو وحده محبوبًا لدى الناس، محظوظًا عند الجماهير لا يضاهيه ولا يناهضه واعظ آخر ولو كان ذلك الواعظ يقول الحق ويهدي إلى سبيل الرشاد.

●●●

خطبة الجمعة وتطويرها وترجمتها

المطلوب من خطبة الجمعة الأسبوعية هو: توعية المسلمين بما لهم وعليهم من أمور دينهم ودنياهم، لذلك كانت الخطبة جوهرة الجمعة إذ هي المقصودة من قوله تعالى: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الجمعة: ٩].

ولكن هذه الخطبة في نيجيريا لم تزد رسالتها المنشودة، لأنها تلقى باللغة العربية ولا يفهمها إلا العلماء وحدهم، أما غيرهم فيحسبونها دعاء لهم حتى كانوا يبسطون أيديهم فيها ويؤمنون عقب كل جملة ينطق بها الإمام فيها.

فقام بعض المصلحين بالدعوة إلى إصلاح الأمر وطلبوا إلقاء الوعظ للناس قبل البدء في الخطبة، ولكن هذا لا يعد خطبة إذ لم يشتمل على شروط الجمعة وعدد الحضور ناقص.

والجمعيات الإسلامية التي تقيم الجمعة في مدارسها ومساجدها اختارت أن تلقي الخطبة باللغة المحلية ما عدا الآيات والأحاديث، فيرويها الخطيب بنصوصها العربية، ثم يترجمها إلى اللغة المفهومة.

أما في المركز الإسلامي الرئيسي وفروعه، فإنها تلقى بالعربية ويترجمها الترجمان فوراً إلى اللغة المحلية.

الدروس الدينية والوعظ والإرشاد في الإذاعات والتلفزة

لقد هيأت الحضارة للدعوة إلى الإسلام ميدانًا جديدًا في وسائل الإعلام من الإذاعة والتلفزة، فاستطاع الدعاة أن يجدوا لأنفسهم ساعة أو نصف ساعة يومياً لقراءة القرآن والدروس الدينية في كل محطة إذاعية، ويكون ذلك حينًا يدفع الثمن، وحينًا آخر بحق الوطن في إذاعة الدولة. غير أن ذلك الميدان ضيق لا يتسع لكل ما يريده الواعظ من التصريح بالحق والصدع بما يؤمر، ولكنه مفيد نوعًا ما، فعلى من هيئت له الفرصة أن يستغلها.

ومن مشاهير وعاظ الإذاعة الحاج مرتضى «أغما شاهين» المتوفي عام ١٩٧٠م كان يصدع بالحق في وعظه ولا يبالي، ثم الحاج مصطفي «أيكيمتدى»، ثم الحاج إسحاق إدريس، ومن قبلهم كان الحاج يوشع «شوديندى» من أوائل من فتحوا الباب لوعظ الإذاعة.

على أن هناك عدة محطات إذاعية للتبشير المسيحي الصليبي في نيجيريا وسيراليون وغيرها من البلاد، تذيع بمختلف اللغات وكلها في خدمة الإنجيل، علاوة على ما كان لهم من الحق في إذاعة الدولة ولا شيء يقابل ذلك من جهة المسلمين.

فقد أسلفنا الكلام عن علماء بلاد «يوربا» بالإجمال، فلنرجع الآن إلى ذكر الإسلام في كل بلد وذكر علماءه بالتفصيل فنقول.

●●●

الإسلام في عويولي القديمة

وقد عرفت أن موقع «عويولي» كان بالقرب من مناطق نفوذ الدول والممالك التي قامت شمال النيجر (جنوب الصحراء) من غانا ومالي وسنغي وبرنو.

وعرفت أنه لا بد من وجود صلات اقتصادية سياسية ثقافية بين تلك البلاد، وسجل التاريخ أن اليورباويين يسمون دين الإسلام بـ«دين الملاويين»، حيث عرفوه على أيدي التجار الوافدين إلى بلاد «يوربا»، وتسمية الإسلام بـ«دين أهل مالي» هو الراجح نقلاً وعقلاً وتفسيراً وتأويلاً.

أما الذين زعموا أن الكلمة مركبة من جزأين «إما ليلي» بمعنى العلم الشديد، فهو تأويل بعيد وتفسير مرجوح، ذلك لأننا لسنا في الكلام على العلم وإنما نحن في الكلام على الدين، وكيف يتركون الدين وينتقلون منه إلى العلم وهم قوم أميون لا يبالون بالعلم، ولا يناقشون فيه.

ثم إن بعض اليورباويين ظلوا يسمون الإسلام بـ«دين هوسا» أو «دين غنبري» حتى العهد القريب، ذلك لأنهم عرفوه مع «هوسا» في الآونة الأخيرة.

وهذا يشهد لمن يقول إنهم سموه «دين مالي» لأنهم عرفوه من أهل مالي في الزمان الأول.

وسجل التاريخ وجود الدعاة النوفاويين في بلاد «يوربا» منذ حوالى عام ١٤٥٠م.

وجد من بين ملوك «عويولى» من أسلموا ولكنهم كثيراً ما يخلطون إسلامهم بكفر، وكثيراً ما يرتدون عن الإسلام بعد الإيمان.

كان «أحمد كفو» أول إمام في مدينة «إدبادن» قبل «باسونو» سبطا للملك «ألافن أبأودن»، أبوه هاوساوى وأمه بنت الملك «ألافن»، وكان بحاشية «أبأودن» مسلمون منهم يوسف الذي تربى «الأمير أتيبا» على يديه، وكذلك خادم «أبأودن»

الذي يسمى عبد الله كان مسلمًا، كل ذلك قبل ظهور «الشيخ عالم» في بلاد «يوربا».

ثم أسلم بعض الملوك على يد أهل «إلورن» وقدموا على الأمير عبد السلام، ولما رجعوا ارتدوا. وممن أسلم على يد عبد السلام الأمير «أتيبا» الذي تسمى باسم صالح، وهناك تعلم أخوه الذي صار أول إمام في «عويو» واسمه سليمان.

●●●

الإسلام في مدينة عويو الجديدة منذ عام ١٨٣٧

أما الذين أسلموا في «عويو» الحاضرة فأولهم «أتيبا» الذي سكن «إلورن» مدة قبل ذهابه إلى تأسيس المدينة الجديدة، ثم صار الذين يتولون عرش «ألافن» مسلمين منهم «أديلو» ثم «أديييمى» ثم محمد الأول «لوني» ثم أبو بكر «لاديولو» ثم محمد الثاني «أدينرن» الذي أظهر إسلامه بحماسة وحج إلى بيت الله الحرام في موكب عظيم. ولما رجع تآمر عليه أعداء الإسلام النصرانيون فخلعوه. ثم تولى محمد بللو بن أبي بكر، ثم عبد الحميد بن «الحاج أدينبيرن». . وتاريخهم كالآتي:

١-أتيبا: ما بين عامي (١٨٣٧- ١٨٥٩م).

٢- أديلو: ما بين عامي (١٨٥٩- ١٨٧٥م).

٣- أديييمي: ما بين عامي (١٨٧٦- ١٩٠٥م).

٤- محمد الأول «لوني»: ما بين عامي (١٩٠٥- ١٩١١م).

٥- أبو بكر لادبولو: ما بين عامي (١٩١١- ١٩٤٤م).

٦- محمد الثاني «أدينرن»: ما بين عامي (١٩٤٤- ١٩٥٦م).

٧- محمد يللو: ما بين عامي (١٩٥٦- ١٩٦٩م).

٨- عبد الحميد: عام ١٩٦٩م.

●●●

أئمة مدينة «عويو» وعلماؤها

أول إمام في مدينة «عويو» الحاضرة هو سليمان أخو الملك «أتيبا»، ثم أبو بكر البرناوي الملقب «أ جوكى ديرو» بمعنى أنه كان يأمر النسوان يلبسن خلخال النحاس في أرجلهن ليرقصن عليها في أناشيد الصلاة على النبي ﷺ فيرغبن النساء الأخريات في الدخول معهن، ثم تولى بعده الإمام ذو الكفل، ثم الإمام هاشم، ثم الإمام «أودن لآمي»، ثم الإمام «تكرور»، ثم الإمام مهيب، ثم الإمام مصطفي تلميذ تكرور، ثم الإمام إسحاق علي. . لم يظفر بتاريخ ولايتهم الإمامة ولكن الترتيب ثابت كما هو.

أما العلماء: فمن أوائلهم الذين نشروا العلم في المدينة، منهم الشيخ «إبراهيم باعيسن» تعلم عند الشيخ هارون في «إبادن»، وله ابنان نجيبان هما: محمد بللو ومحمد راجي بدءا التعليم من أبيهما ثم أكملاه في «إبادن» عند الشيخ هارون، ومنهم الشيخ «شعيب سارومي» كان فقيهًا جليلاً بدأ التعليم في بلده ثم قدم على الشيخ هارون في «إبادن». ومنهم الشيخ محمد البوصيري الشهير بـ«أعانك الله» هو والد الشيخ أحمد التجاني الواعظ الشهير الشاعر، بدأ في التعليم ببلده ثم وفد على الشيخ هارون ورجع إلى «عويو». فكان أول من جلس لتفسير القرآن، ومنهم الشيخ أحمد الطيب سهل «پاكوبي»، أخذ العلم من عدة علماء وتبحر خصوصًا في متون اللغة.

ومن الذين شاركوا هؤلاء من قرية «آوي» بضاحية «عويو» الشيخ محمد راجي، وفد على الشيخ هارون ولازم ابنه مصطفي حتى تبحر.

هؤلاء الذين غرسوا الإسلام في «عويو الجديدة»، ومع أنهم تعلموا في «إبادن» ثبت بهم الإسلام في «عويو». حتى ضرب بهم المثل بقولهم: «مسلمي إبادن كمثل كهنة عويو» ذلك في الزمن الأول.

•••

الإسلام في مدينة «إيسين» وعلماؤها

تعتبر مدينة «إيسين» من المدن الإسلامية القديمة في بلاد «يوربا» ويقال إنهم فصيلة من قبائل «إيجبو» وأن هناك مدينة تسمى «إيسين البحري» ومنها نزحوا إلى «إيسين البري»، وقد أخذت اسمها من زراعة نخيل الزيت بها، لأن معنى إيسين: «ملتقط حبوب النخيل» وكانت مزرعة كبيرة للملك «ألافن» تحت إقطاعي كبير يخدم «ألافن» بحاصلاته الزراعية.

يرجع وقت ظهور الإسلام إلى ما حول عا م ١٧٦٠م، وأول مسجد بها بناه رجل كشناوي اسمه «ما لم أبوكي» حوالي عام ١٧٧٠م، وأول مولود في الإسلام «محمد أبو جبر» سماه «ما لم أبوكي»، وهو أول عالم مشهور من علماء «إيسين» ثم ابنه «بدماصى» بدأ التعليم من والده «أبو جبر» ثم أكمله على يد صاحب الكرسي.

ثم بنى «ألفا أجن» مسجده في سوق «أوجالا» حوالي عام ١٨٠٠م، ولعله أول من حج في بلده، نزل بالمسجد الشيخ صالح المعروف والذي استقر أخيرا بمدينة «إلورن».

ويقال إن الشيخ عالم نزل ومعه تلميذ كان يناديه باسم «بوي بوي» ولعله «بوبي» واشتهرت بذلك نهيرة كان الشيخ يتطهر فيها خارج البلد وسميت تلك النهيرة إلى اليوم «بوي بوي». مكث الشيخ عالم. في مدينة «إيسين» سنة ثم انتقل منها إلى «إيكوبي» ثم «كوهو» ثم «إلورن» ولما استقر بها لحق به من عرفوه أيام مكثه.

بالعكس من ذلك قد انتقل إلى «إيسين» فصيلة من أهل «أبجي» واتخذوا بها حارة خاصة عندما انتقل أكثرهم إلى «إلورن» بعد تخريب حارتهم «أوكي سنة» حوالي عام ١٨٤٤م، كما نزح إليها أفراد من «أوكي سنة» ومنهم «كورنغا» أبو صادق «إدابو».

وفي حارة «أبجي» بمدينة «إيسين» بني أول مسجد جامع لصلاة الجمعة، وأول من تولى الإمامة بها يسمى محمد «دوبي» وأصلة من «أبجي». وذلك حوالى عام ١٨٨٨م.

لقد مر على «إيسين» صاحب الكرسي في طريق عودته من «إلورن» إلى «إبادن» وتلقى علماؤها على يديه، منهم محمد بللو «أغراهو» الذي تعلم منه بخارى «إجنمبا» والد «فازازى» ومن بخارى تعلم سراج «جنمبا».

ومن الذين تعلموا من صاحب الكرسى الشيخ داود القصير المتوفي عام ١٩٠٠م. كان شيخ شيوخ زمانه في كل فن، وهو أول من جلس لتفسير القرآن في شهر رمضان. ثم محمد راجى صا حب «البيان»، وكان يحفظ الجلالين ويقرأه على الناس من حفظه في رمضان، وهو ضرير أخذ العلم من علماء بلده، ثم ارتحل إلى «لاغوس» وأخذ من الشيخ «عبد السلا م أوتن» هناك، ومن السنوسى «ألاوبي» الذي أخذ منه لقبه «ألاوبي».

وأشهر أئمة «إيسين» كرامة وجاهًا الإمام محمد الأول صاحب «القباء» الذي وقع بينه وبين الملك «ألافن» نزاع وصراع عا م ١٩١٥م. وأكرمه الله بكرامة خالدة، إذ أمر الملك بحبسه في قصره، ولم يلبث طويلاً أن حاربت الطبيعية قصر الملك فنزلت صواعق وأبرقت رعود، فخاف أهل القصر كلهم فأطلقوا سراح الإمام.

ومن جملة علماء «إيسين» الشيخ «صادق ادبو» بن «كرنغ» وفد إلى «إبادن» وتعلم من الشيخ هارون وكان والده «كرنغ» من تلاميذ صاحب الكرسي، وقيل إنه نزح من «أوكي سنة» وللشيخ صادق ابن نجيب اسمه سعد «ادابو» وكان يفتخر بأصالة مجده بقول امرئ القيس في شعره:

وكنا أناسًا قبل غزوة قرمل ورثنا الغنى والمجد أكبرا

وآخر أئمة «إيسين» كرامة وفضلاً هو الإمام محمد الأول شيخ شيوخ بلده في كل فن، تعلم من الشيخ هارون في «إبادن» وأقبل إليه أهل القرى والبلاد المجاورة يتعلمون، وممن تعلموا منه الشيخ «أحمد الزاكي» الذي اختار مدينة «لاغوس» منزلاً حتى الممات وسوف نذكره ضمن علماء «لاغوس».

ولقد تعرف إلى الشيخ عالم أيام مكثة في «إيسين» رجل من أهلها مؤمن اسمه عثمان، الذي تلقب أخيراً بـ«أجيكوبي»، هاجر إلى «إلورن» ولحق بالشيخ هناك، فتبعه مئات من أهل «إيسين» فنزلوا بجواره هناك منهم والد مصطفي «أولودو» وأخوه عثمان والإمام «كرنغ» إمام «عومادا» وغيرهم في «ربوة أبيدى».

صار عثمان هذا أول قائد حربي من اليوربا بعد مقتل «سولا بيرو» بريوة السنة ولكنه أسر في حرب «أوشوبو» عام ١٨٤٥م، وقتل في مدينة «عويو» انتقاما منه أنه يرباوي خان بلده بالتحاقه بالشيخ عالم فكان من الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون.

قتل معه «لاتيجو» المسمى «عبدو» ابن «بشورن غاح» وكان ممن لحق أيضًا بالشيخ عالم أو الأمير عبد السلام، لذلك قتل انتقامًا مع «أجيكوبي» رحمهما الله.

أما تتمة قصة «إيسين» فمن غريب المفارقات أن الغريب إذا نزل مدينة «إيسين» في أيام أعيادهم الوطنية، لا يشك أن المدينة بأسرها مدينة وثنية بلا استثناء، وإذا نزل بها في يوم من أعيادهم الإسلامية لا يرتاب في أن أهل المدينة بجملتهم مسلمون.

وذلك أن الكفار يتغيبون تمامًا في الأعياد الإسلامية، والمسلمون يغلقون على أنفسهم أبوابهم في الأعياد الوثنية أو يخرجون إلى القرى والبلاد المجاورة حتى ينتهوا.

ويمتاز مسلمو «إيسين» بمحبة رسول الله ﷺ وتكريم حجاج بيت الله غاية التكريم، ولهم في مدح رسول الله ﷺ في الأناشيد والقصائد المطربة أحوال عجيبة، حيث كانوا ينشدون بأصوات مبكية في حنان وشوق زائد إلى زيارة بيت الله وزيارة قبر رسول الله ﷺ كأنهم شيعة أهل البيت وما أشبه حالتهم بحال الشيعة.

ومما أكرمهم الله به أنهم إذا حل بهم أمر أو نابتهم نائبة اجتمعوا وتبادلوا الصلاة على

النبي ﷺ مثل قراءة «دلائل الخيرات». ثم توسلوا بذلك إلى الله أن يكشف عنهم ما بهم فيستجيب الله لهم ذلك.

فلا غرو فقد أخرج الإمام أحمد والحاكم والبيهقى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله: أفلا أجعل ثلث دعائي في الصلاة عليك؟ قال: «فإن زدت فهو أفضل». قال: أجعل الثلثين؟ قال: «فإن زدت فهو أفضل». قال: بأبي وأمي يا رسول الله: أجعل دعائي كله الصلاة عليك؟ قال: «إذن يكفيك الله أمرك من دنياك وآخرتك».

أما فيما يتعلق بأمر «دلائل الخيرات»، فنحن لسنا بصدد الاعتراض عليها كالسفليين[1]. ولا بصدد الاعتناء به كالصوفيين، ولكنا بصدد سرد الوقائع التاريخية كما هى، والتاريخ يذكر بقضه وقضيضه.

●●●

الإسلام في مدينة شاكي

الجدير بنا أن نلحق مدينة «شاكي» بمدينة «إيسين» بحكم الجوار ونقول:

مدينة شاكي: بناها رجل اسمه «أوكيكس» أخو «عورنين» مؤسس المملكة اليرباوية. تنازع مع أخيه على تزوج امرأة فاستطاع الصغير أن يفر بالامرأة، ولما ظل يفر بها من مكان إلى مكان حتى استقر أخيرًا في هذا المكان سماه أخوه الكبير: «من يفر من مكان إلى مكان» ولزمه الاسم، إلى أن نسب إليه البلد.

ثم لحق ابن «عورنين» الذي كانت أمه «برغاوية» قرب مدينة «شاكي» واسمه

(١) الذين أنكروا على «دلائل الخيرات» هم الحنابلة وقد ذكرها علماء الوهابية من الكتب الممنوعة وكانوا يتلقونها من أيدي الحجاج لإتلاقها.
لقد أنكروا ما فيها من التوسل بجاه النبي ﷺ كما أنكروا ما بها من الصلوات غير مأثوره وأن بها غلوا في نحو قولها: «اللهم صل على محمد حتى لا يبقى من الصلاة شىء».
وأنها ذكرت «هو» من أسماء الله ولا حجة لها في ذلك، وأنها مقسومة على أجزاء وأحزاب يومية وهذا التقسيم بدعة.
ولكن علماء المغاربة وعلماء نيجيريا قد تسلموا بها ومنهم الشيخ عثمان بن فودى، لذلك تحير الناس بين الأخذ والترك. وأنا- الكاتب- قد أدركت والدي على تداولها فكان أول ما تقربت به إلى الله من العبادات والصلوات في العقد الأول من عمرى.

«الشجاع كالنمر»، ولما استقر به المقام صار عمه يحيل إليه القضايا. على أنه ليس ضعيفًا في حكمة القضاء فصار ذلك اسمًا له «أوكي ري».

وقد عرف أهل مدينة «شاكي» الإسلام منذ قديم، وأول من عرف بها مسلمًا رجل جاء من «عويولي» يسمى عبد الله منذ حوالى عام ١٧٩٠م، ولكنه ضعيف الإيمان والإسلام، ويقال إنهم عرفوه من أهل «إيسين» أول وهلة.

ولم ينتشر الإسلام فيها إلا حوالي عام ١٨٧٠م. وذلك بعد تمام الهدنة بين أهالي «إلورن» وأهالي بلاد «يوربا» وانفتحت طرق التجارة بين الطرفين، ولما جاء التجار من «شاكي» إلى «إلورن» وجدوا رجلاً طبالاً يشبه ملكهم في الصورة جد الشبه، وأخبروا المكلك بذلك. فاستقدمه إلى «شاكي»، وأنزله وأكرم نزله، واسمه عبد الله- لعله هو السابق، أو غير عبد الله السابق والله أعلم، وهو الذي صار أول إمام لهم في مدينة «شاكي».

ثم بدأ الإسلام ينتشر على أيدي قبائل «دندي» وقبائل «هوسا» وأول من اشتهر بها عالمًا فقيهًا هو الحاج «جمعة ميغد» الذي كان يضيف علماء «هوسا» و«دندي» ويأويهم لديه.

وكان من أكابر علماء «هوسا» «مالم غافرتا» له تلاميذ كثيرة ثم «ألفادندى» كذلك، وبإشارته دخل شيخ «أحمد شاكي» مدرسة في «إيسين»، إلى أن تخرج أكبر عالم في بلاد «يوربا» و قد ذكرناه في جملة علماء «لاغوس».

وقد أسلم ملوك «شاكي» وأحسنوا إسلامهم وعليها اليوم ملكهم الفاضل «الحاج أحمد التجاني» وهو من أهل الخير والصلاح في الإسلام، قد تعرفنا عليه أيام كان تليمذاً للحاج جمعة زين الدين في «أكرا» غانا، وهو الذي أفادنا بحقائق تاريخ «شاكي».

●●●

المركز الثاني من أهم مراكز الدعوة في بلاد يوربا

«مدينة إبادن»

• تأسيس مدينة إبادن:

كلمة إبادن: معناها الطرف البري من الغابات. «أيبا أودن»، ويرجع تأسيس مدينة «إبادن» إلى نحو عام ١٧٨٨م على يد رجل اسمه «لغيلو».

ولما توالت عليها الغارات من أهل «عويو» خربت وتشتت أهلها ثم أعادوا تأسيسها الثاني بالقرب من المكان الأول تحت قيادة «إبا» حوالى عام ١٨١٠م ولم يزل أمرها يعلو بحسن قيادة «إبا» المسمى «أولويولي» طول حياته حتى أطلق كناية على أهل «إبادن» بأنهم أبناء «أولُوُيُولَى»، وقد عظم أمرها بعد أن لحق بها المنهزمون الذين هربوا من وجوه أعدائهم في حرب «أوهو» ثم من حرب «إجَابى»، وخافها جيرانها بعد أن انتظم فيها المحاربون من «إيجبو» ومن «إليفى» وصارت مرهوبة الجناب.

•••

ظهور الإسلام في إبادن

يقول الشيخ أحمد الرفاعي مفتي بلاد «يوربا» السابق في مذكرته التاريخية: إن أول من عرف داعيا إلى الله في «إبادن» رجل يسمى «إغون ألوهن» أي «غداف الله» ولكنه مسلم بسيط لا يمتاز عن أتباعه بشيء يذكر من العلم، ومع ذلك ظل يدعو إلى الله بما استطاع.

ثم نزل «إبادن» رجل عالم من أهل مدينة «عويولي» اسمه «أحمد كفو» كان أبوه كشناويّاً، هاجر إلى «عويو»، ومكث بها حتى تزوج إحدى بنات «ألافن» فأنجبت له «أحمد كفو». وتعلم من العلماء الرحالين السايحين في بلاد «يوربا»، ولما نزلت بأهل «عويو» عوادى الدهر وطبقت شهرة «إبادن» الآفاق كبلد جديد، هاجر إليها «أحمد كفو» زمن البطل «عولويولي» ثم جاء بعده الشيخ عثمان بن أبي بكر «باسونو» الذي على يده انتشر الإسلام وقوي شأنه في «إبادن» كما سيأتي.

كيف نزل عثمان «باسونو» في بلاد يوربا

لما قامت الدولة الإسلامية في مدينة «إلورن» على يد أبناء الشيخ العالم وسقطت من

جراء قيامها المملكة اليرباوية ظلت قرونًا طويلة تنافس الممالك في بلاد «هوسا» وتجاذبها السيطرة والنفوذ وهي في أقصى الجنوب، وكانت مرهوبة الجناب ذائعة الذكر والخبر لدى ملوك البربر والنوبة، وملوك مالي وسنغي، فها هي الآن تسقط تحت أقدام أبناء «عالم»، كما سقطت ملوك «هوسا» تحت أقدام أبناء «فودي» وأنصارهم في بلاد «هوسا»، وأقاموا الحكومة على أساس الشريعة، كما وصفها القرآن والحديث وطبقها الرعيل الأول من الصحابة.

ثم نجحت تجربتها على يد «أسكيا محمد» قبل عثمان بن فودي.

ثم جاء عثمان بن فودي ينسج على منوالها وقد أفتى الفقهاء بجواز إسقاط الحكومة الظالمة الكافرة لإقامة العادلة المؤمنة كما تقوم الثورات الإصلاحية اليوم في جميع الأقطار، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١]. لذلك نشطت عزائم الدعاة على مواصلة الجهاد من الشمال إلى الجنوب، اقتداء بالشيخ عالم الذي نجحت دعوته في «إلورن» وأسقطت دولة الكفر والطاغوت وأقامت دولة الإيمان والإسلام.

فانساقت تيارات من أمواج الدعاة إلى البقية من أطراف بلاد «يوربا» وأكنافها، ليثبتوا أقدامهم وليأخذوا نصيبهم في نشر الدعوة وتأسيس الدولة. فكان الدعاة الوافدون على ثلاثة أقسام: قسم استقدمهم أ مير «إلورن» من أقاصي البلاد وأدانيها وهم قليل عددهم، مشهورة أسماؤهم، أولهم: الشيخ «بتوري» والشيخ «بوبي» والشيخ «المِلوي» وبدر الدين، وجميع من بالقرب من دار الأمير من العلماء الفلانيين.

وقسم قدموا بأنفسهم، يريدون الاجتياز والمرور إلى الجهات التالية، فاستوقفهم الأمير «كالاولين» أو استوقفهم معارفوهم الذين سبقوهم إلى المدينة، فوقفوا وذابوا في هذا المحيط العظيم ومن هؤلاء «محمد بيغوري».

وقسم ثالث أفلتوا من أيدي الأمير ومن أيدي الأصدقاء إما بغير مرورهم على مدينة «إلورن»، أو بمرورهم بها على حين غفلة من أهلها، فنزلوا إلى بلاد «يوربا» في الجنوب حتى المحيط، ومن جملة هؤلاء القسم يعتبر الشيخ «عثمان باسنو الدندي البرغاوي».

ومن أين جاء عثمان «باسونو»

ذكـر الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى في مذكرته أن الشيخ عثمان بن أبي بكر هذا جـاء من «برنو» إلى «إبادن»، وكـان ينوي الإقـامـة إمـا في «إجـبـو أودي» أو في «إلوغن» عـاصـمـة «إيبـا» حين ذاك، أو في «إبادن» فـاسـتـوقـفـه بطل «إبادن» المسـمى «أولويولي»، وهذا الذي نقل عن أحفاده ومنهم الإمام محلى بن عبد الله.

وعندي أن القول بأن «باسونو» جاء من «برنو» فضعيف، لأن كلمة «باسونو» ليست «برنوية» بل هي «برغوية» أخت «دندية» ومعنى «باسونـو» عندهم «الأب السلطان» ومما يؤيد هذا أن أسـرة «عثـمـان باسـونو» اعـترفـوا بصلة القـرابة بينهم وبين الشـيخ «مـسلم دندي» في «أبيكوتا» وهـذا الأخيـر: جـاء من بلاد «برغـولا» من «برنو» وكـان الشـيخ عثمان عالـمًا تقيّاً وكان أميرًا من أمراء القرى في بلاده، لذلك اشتهر بلقب «باسونو»، عـزم على أن يهاجر إلى بلاد «يوربا» لنشر الدين بهـا، فرمى دولـة الدنيـا وراءه ظهريّاً، وتمسك بدولة الدين، ويقـال إنهـم كـانوا ثلاثة تخلف أحـدهم فـي «أوشـوبو» وتـوجـه الآخر إلى «أبيكوتا القديمة» وتوقف هو في «إبادن» بطلب البطل «أولويولي» واستقبله غداف الله و«أحمد كفو» و«يوسف ناكوجو» من كبراء البلد وتلمذوا له، وعندما أرادوا بدء صلاة الجمعة اتفقوا على أن يجعلوه أول إمام جامع لـهم سنة ١٨٣٩م، ولبث في إمـامـتـه اثنتين وثلاثين سنة، وتوفي عـام ١٨٧١م، وعلى يد «باسـونو» تألف الـرعـيل الأول من علماء «إبادن» وهم كالآ تي:

«أحـمـد كـفـو» و«هارون أبيني» و «يوسف نـاكـوجـو» والقـاسـم صـاحـب الكرسي وآخـرون، وبهـؤلاء وضع «باسـونو» اللبنة الأولى للمـركـز الإسلامي العـالي في بلاد «يوربا».

●●●

الرعيل الثاني وكيف تكون على يد أبي بكر بن القاسم «صاحب الكرسي»

مات الإمام الأول وتولى الإمام الثاني وهو «أحمد كفو» ولم يعش طويلاً في الإمامة حتى مات، ثم تولى الإمام الثالث وهو «هارون أبيني» وفي عهده ازداد انتشار الإسلام

في بلاد «إبادن» وازداد اتساع المدينة وكثر عدد السكان واحتاج المسلمون إلى زيادة العلوم، ولما فقدوا عالمهم ومرشدهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، جعلوا يتفقدون عالـمًا يعلمهم المزيد ومرشدًا يرشدهم إلى الإسلام الصحيح بالأساليب المحبوبة، وكان يجتاز بهم بعض العلماء من «إلورن» في طريقهم إلى «لاغوس»، منهم الشيخ «محمود دودو» الواعظ البليغ والشيخ «محمد السنوسي ألاويي» الواعظ الفصيح صاحب البيان وهو الذي أخبرهم أن في «إلورن» أحد أبناء «إبادن» اسمه أبو بكر القاسم، وقد تعلم هناك وتبحر، فلهم أن يطلبوا إليه العودة إلى الوطن ففعلوا ذلك عن طرف «السنوسي ألاويي» فرجع أبو بكر مع أبيه من «إلورن» إلى «إبادن» بدعوة من أهلها، وكان لا بد من المرور على مدينة «إيسين»، لأنها طريق القوافل حين ذلك فاستوقفه أهل «إيسين» يتعلمون منه مدة، ثم جاءه هناك رسول أهل بلده فودع أهل «إيسين» بهذه الأبيات:

للعلم حقّاً خرجنا   نطلبه حيث سرنا

ومن يرده لدينا   فليأتنا حيث كنا

والزاد لابد منه   كي لا يجوع لدينا

كان القاسم والد أبو بكر تلميذًا للشيخ «عثمان باسنو»، وكان تاجرًا يتردد بتجارته بين «إبادن» و «إلورن» إلى أن اضطر هو وابنه إلى النزول في «إلورن» وهناك تعلم الابن على يد الشيخ «عبد الله روفوغو» الهوساوي وعلى يد الشيخ عبد الرحمن «ناجي النوفاوي» ولما رجع إلى «إبادن» أسس مدرسة عالية وكان من تلاميذه الرعيل الثاني وهم كالآتي:

الشيخ «حسن أباتا» والد «مغاجي بخاري» والشيخ مالك بن حسين والد «طاهر متالاً»، والشيخ أبو بكر الواعظ وابنه «أمين أونأدو» والإمام «سليمان ألاغوفن» والشيخ عبد الله بن «باسونو» والد الإمام محلى والشيخ «عبد السلام غاتا» وأخوه «أبو بكر غاتا» وأكبرهم الشيخ هارون بن مطامي سلطان «أوشوبو» وكان نقيبًا عليهم.

اتسعت آفاق هؤلاء العلماء في قواعد اللغة والنحو والصرف، وحتى بلغوا مرتبة الاجتهاد والفتوى في اللغة والشريعة، ثم علت همتهم إلى زيارة بيت الله الحرام وزيارة البلدان الإسلامية الأخرى، ليشهدوا حقيقة الأوضاع والأحوال، وليجتمعوا بالعلماء

الفحول، وليحصلوا على نوادر الكتب وأمهاتها، لعدم انتشار الأوراق والمطبوعات حين ذاك، فخرجوا جميعًا غير مالك بن حسين الذي خلفوه على أهل «إبادن» واعظًا ومرشدًا تحت إمامه «سليمان ألاغوفن» حوالى عام ١٨٨٤م.

خرج الوفد العلمي والبعثة الدينية بقيادة هذا الشيخ فانزعج منها أعداء الإسلام وهم في صورة أصدقاء في بلاد «يوربا» فتآمروا على البعثة عن طريق حليفهم ملك «بربا»، فهجموا على البعثة وقبضوا على رئيسها وقتلوه، وأطلقوا سراح الأعضاء الذين امتلك الرعب قلوبهم ولم يستطيعوا مواصلة السير فقرروا الرجوع إلى الوطن فرجعوا راضين بالإياب من الغنيمة.

ومن هنا صار علماء «إبادن» يخافون من الخروج إلى الحج، حتى حج منهم السنوسي صاحب العشرينية، ورجع وتمتع بشرف حاج مدة طويلة.

•••

الرعيل الثالث وكيف تكون على يد هارون بن السلطان شيخ الشيوخ بلاد يوربا على الإطلاق

يقال إن سلطان «أوشوبو» المسمى «ما طامي» طلب ولدًا يخلفه في الملك ولن يرزق، إلى أن توسل بأحد العلماء أن يرزقه الله الولد، فعهد إليه ذلك العالم بأن يفرغ الولد للإسلام إذا رزق، ولما رزق وفي بعهده، ولما كبر الوالد وبلغ أشده فضل العلم على الملك و تفرغ للدين والعلم وخدمتهما، وهناك رواية أخرى غير ذلك.

وعلى كل تربى ابن السلطان تربية إسلامية، وتعلم مبادئ الإسلام على أيدي العلماء الأ جانب في «أوشوبو» إلى أن بلغة خبر ظهور مدرسة جديدة في «إبادن» فاشتاقت نفسه إلى الانتساب إليها فذهب فأدرك الشيخ أبا بكر بن القاسم «صاحب الكرسي» فتتلمذ له مع جملة زملائه، وآثر أن يكون بنجوة عن مكانة ملك أبيه فاتخذ مدينة «إبادن» و طنًا له، فصار ما عوضه الله من الدين والدنيا ملء القلوب والأسماع والأبصار، ولما اغتيل شيخهم في أول طريقهم إلى الحج، ورجعوا إلى «إبادن» اتفق الزملاء على أن يقدموه عليهم، إذ هو أعلمهم وأتقاهم ورضوا بأن يتعلم هو عند من يريد ليعلمهم بدوره، فبذلك بدأت صفحة جديدة في تاريخ التعلم الإسلامى العربي

في «إبادن» حيث قدر الشيخ هارون هذه المسئولية وشمر عن ساعد الجد، وأوفد إلى «إبادن» جلة علماء بلاد «إلورن» وبلاد «هوسا» وشرب من منهلهم حتى ارتوى وتبحر، فصار يعلم زملاءه بالفوج الأول، ثم تلاميذه من أهل «إبادن» بالفوج الثاني، ثم تلاميذه من كل بلد من بلاد «يوربا» بالفوج الثالث، ولم يبق بلد من بلاد «يوربا» طولاً وعرضًا إلا وقد نزل عليه وأخذ منه العلم، فبذلك أصبح تلقائيّاً شيخ الشيوخ بلاد «يوربا» على الإطلاق، حيث بلغ تلاميذه ثلاثمائة شيخ.

وقد قرر بذلك المنصب الشيخ أحمد بن أبي بكر الألوري في مرثيته بعد موته حيث قال:

ألهفي على ما القلب منه تفجعا — وما عارض الأكباد حتى تصدعا
لموت فقيه عالم متورع — صبور صدوق مستجاب إذا دعا
وأعني به شيخ الشيوخ ومقتدى — لدى كل إذا الأمر أفزعا
قضى محيي هذا الدين في أرض يعربا — ومجلى ظلام الشك إن كان موقعا
قضى الشيخ هارون الإمام لقومه — ومرشدهم في جملة الأمر أجمعا
قضى من يرد مشكلات المسائل — إليه فيجلي ما عليه تطبعا
مجد قضى نحبًا وقد كان في الورى — من الغيث أروى أو من الليث أروعا
لقد زلزلت أرض إبادن بأهلها — وبيت العلا مما ألم تزعزعا

توفي الإمام هارون عام ١٩٣٥م عن نيف وتسعين عامًا من العمر، وإليك أسماء تلاميذه على ترتيبه من الفوج الأول والثاني والثالث:

الفوج الأول من تلاميذ هارون بن السلطان الشهير بإمام غيغي

هذا الفوج الأول من تلاميذ هارون هم: الرعيل الثالث من علماء «إبادن» وهم الذين كانوا شركاءه وزملاءه عند شيخهم الأكبر أبي بكر بن القاسم «أوكي أريما» وأولهم الشيخ حسن والد بخارى (بمفترق الطرق الأربع) ويدعى «ألفا أبتا» والشيخ عبد الله بن عثمان «باسونو» والد الإمام محلى والشيخ أ مين بن أبي بكر الواعظ والد بدماصي «عونا أدو» والشيخ مالك بن حسين والد طاهر «متالاً» والشيخ عبد السلام

ابن الحسن فيما وراء «الهوة» وغلب عليه اسم «الساكن فوق الغار» وهو الشيخ الوحيد الذي أبقى لنا الدهر تأليفه المسمى «طريق الجنة». وهو كتاب وضعه في التوحيد والفقه والتصوف عام ١٣٣٨هـ، وكان هذا الشيخ مرجع أهل مدينة «عيدي» في الدين والعلم، والشيخ أبو بكر أخو عبد السلام السالف الذكر من أكابر الواعظين في «إبادن» ومنهم الشيخ السنوسي ذو العشرينات وابنه أول من حج من «إبادن» بعد واقعة البعثة، والشيخ محمد السنوسي والد محمد بللو «دار الشاكي» ومنهم المشهور بـ «ابن أدهم».

وهؤلاء هم الذين وضعوا اللبنة الثانية للعلوم العربية والإسلامية، وأنجب كل واحد منهم ولداً عالـماً، وتلاميذهم علماء طبقت شهرتهم آفاق بلاد «يوربا» وبات العلم في كنفهم ممدود الرواق.

●●●

الفوج الثاني من تلاميذ هارون السلطان

ثم تكون الفوج الثاني من تلاميذ هارون بن السلطان، وكانوا ملحقين بالرعيل الثالث من علماء «إبادن» أولهم الشيخ محمد ثاني الملقب بـ«دانيا بن اليمين» كان فقيهاً متقناً يحفظ المختصر الخليل في المذهب المالكي عن ظهر القلب، و منهم الشيخ محمد بللو بن عثمان الذي رافق أخاه «بودجا» من «إيسين» إلى «إبادن» في عهد «آري لاتوسا» فأنزلهما بالقرب من داره واشتهر باسم «ألفا أوكي أري» ويتصل الشيخ عثمان هذا بالشيخ «كورنغا» في «إيسين» كما يتصل بـ«إلورن» من جهة أمه، وأنجب الشيخ بللو هذا أعلم زمانه في جميع الفنون الإسلامية والعربية و ذلك هو الشيخ أحمد الرفاعي، توفي الشيخ محمد بللو عام ١٩٣١م، ومنهم الشيخ عبد الكريم بن السنوسي «الأوبي» (صاحب البيان) ومنهم الشيخ محمد بللو بن يوسف، «ناكوجو» كان عالـماً متفنناً وقد نجب على يده كثير، منهم الحاج جمعة «ماپو».

ومن أعيان تلاميذ هارون: محمد السنوسي الكاتبي الذي نزح من «عوفا» تبحر في جميع الفنون وعلى يده تخرج الشيخ أحمد الرفاعي بن بللو وابنه أحمد الفازازي ومحمد البوصيري.

ومنهم أيضًا الشيخ جنيد «عورنين» والد عمران، ومنهم الشيخ ابن عبد القادر والد برهان الدين السنوسي «الاكـا» الذي أوفده الشيخ هارون إلى «إلورن» للتخصص في علم العروض والقافية، وليكون بعد ذلك أستاذ أهل «إبادن» في هذين العلمين (وهذا مثال حسن وتعاون وثيق بين التلميذ النجيب وأستاذه.

ومنهم الشيخ محمد طاهر بن مالك الذي كان مرجع أهل «إيوو» أنجب ابنًا أديبًا اسمه «بنيامن» غير أنه توفي شابّاً، ومنهم الشيخ عبد السلام بسهل «عوشن» ابن إمام «أبينى» وعبد السلام الصغير والد مدثر ومرتضى، ومنهم الشيخ سليمان «ألاغنفن» ومنهم الإمام محلى بن هارون، «أبيني» وقد تولى الإمامة بعد الإمام هارون ابن السلطان، ولم يخلف نجيبًا، ومنهم الشيخ بدماصي «عونا أدو» وكان من الوجهاء، ونجب من أولاده الفازازي الخياط وعبد الحميد وآخرون.

ومن صلب الإمام هارون تخرج أعلام أولهم باكوره «محمد مصطفى» غير أنه توفي مبكرًا، ثم ابنه محمد البوصيري والد عبد الرءوف، ثم ابنه عبد الهادي وكان عالـمًا متفننًا، ثم الفازازي وآخرون من أحفاده يطول بنا ذكرهم.

●●●

قراءة تفسير القرآن في شهر رمضان

بدأ الشيخ أبو بكر ابن صاحب الكرسى قراءة تفسير القرآن في رمضان وكان يفسره بلغة «هوسا» التي بها تعلم في «إلورن» وكان يترجمه هارون بن السلطان من «الهوسا» إلى «اليوربا».

بدأ ذلك في دار الإمام الأول ثم انتقل المجلس إلى بيت الإمام «ألاغنفن» ثم إلى بيت الإمام «غنبري» ثم إلى بيت «عثمان بشورن» الذي هو من كبراء المدينة وزعماءها وكان من تلاميذ الشيخ، وقد أنفق من جيبه الخاص لإيفاد الشيوخ إلى «إبادن» ووسع على الأساتذة والتلامذة معًا، وفي عهده جاء وزير «بدا» إلى «إبادن» عا م ١٩١٠م ثم انتقل التفسير إلى الجامع الكبير بسوق «أوجابا».

ومنذ ذلك الحين كان صاحب التفسير ينزل المنزلة الثانية من الإمام ويتدرج إلى منصب الإمامة بعد موت الإمام.

وقد تعاقب على منصب صاحب التفسير جلة علماء «إبادن» منهم الشيخ مالك ابن حسين ثم الشيخ هارون نفسه ثم الشيخ محمد بللو بن عثمان ثم الشيخ محمد بللو «ناكوجو» ثم الشيخ طاهر بن مالك ثم الشيخ أحمد الرفاعي بن بللو ثم الشيخ محمد صادق «بوبو» ثم الشيخ سنوسي «ألاكا» ثم الشيخ مدثر عبد السلام بسهل «أوشن».

●●●

الفوج الثالث من تلاميذ الشيخ هارون «غيغي»

هم الذين خرجوا من بلادهم وقصدوا الشيخ هارون في «إبادن» ليأخذوا منه ما تيسر لهم أخذه حتى نبغوا ورجعوا إلى بلادهم ينشرون العلم هناك.

فما من مدينة أو قرية من مدن بلاد «يوربا» وقراها إلا وللشيخ هارون فيها تلميذ أو تلاميذ أو الذين تلقوا من تلاميذه، ولسوف يلتقي القارئ بأسمائهم ضمن أسماء الأئمة والعلماء الناشرين الإسلام والعلم في بلاد «يوربا» عند ذكر كل بلد على انفراد.

●●●

الفوج الرابع من تلاميذ الشيخ هارون «غيغى»

هم الذين ختمت بهم القافلة في «إبادن» وكانوا آخر من أخذوا من الشيخ في آخر أيامه سواء من أخذ قبل توليه الإمامة ومن أخذ بعد توليه.

منهم الشيخ أحمد المحلى بن عبد الله بن عثمان «باسونو» ومنهم الشيخ صالح «إياوسا» ومنهم الإمام صادق «بوبو» ومنهم من لا يحصون عدداً.

تلك آثارهم تدل عليهم فانظروا بعدهم إلى الآثار

وإذا قارنت بين هذه الآثار وبين هؤلاء التلاميذ استطعت أن تعترف بالواقع أن علوم أهل «إبادن» سلسلة متصلة الحلقات.

ويرجع أصل علومهم إلى «باستو الدندي» ثم إلى عبد الله «روفوغو» وعبد الرحمن «ناجي» بواسطة ابن القاسم ثم إلى عبد المؤمن الهوساوي من «زاريا» ثم إلى «كافهمت» كذلك وأخيراً محمد «وزير بدا».

كما أخذوا من تلاميذ «بيغوري» وأولاده في «إلورن» ثم قاموا بدورهم لنشر هذه العلوم في بلاد «يوربا» وللشيخ هارون دور كبير في بلاد «يوربا». وليس كثيراً أن يطلق عليه لقب شيخ شيوخ بلاد «يوربا» رحمه الله ورحم جميع تلاميذه، وأسكنهم فسيح جناته وحشرنا الله معهم بفضله وحنانه.

ومن الجدير بالذكر في بقايا علماء مدينة «إبادن» حركة الشيخ عبد السلام «بنديلي» الذي أخذ عن الشيخ يوسف الحمداني «الابجي» الذي له أتباع يهتمون غالبًا بالدعوة إلى التمسك بالسنة في إطلاق اللحى والتعمم وضرب الحجاب على النساء، وقد أخذ عليهم العلماء في بادئ أمرهم أنهم يكرهون علوم النحو والصرف، ولكنهم الآن رجعوا وتعلموهما وغيرهما من الفنون.

أما الذين لعبوا دوراً هاماً في إصلاح منهج التعليم في «إبادن» فأولهم المرحوم معلم «خراشي» ثم المرحوم الحاج عيسى «مغاجي» وعلى أيديهما تثقف كثير من أبناء البلد.

وأخيراً نجح في هذا الميدان الشاعر المنطيق مرتضى عبد السلام وقد نجب من معهده عشرات.

ويلحق به عدد كبير كالحاج عبد الكريم الرفاعي والحاج عبد الرءوف «غيغي» وآخرون يحتاج الكلام عنهم إلى كتاب خاص في التعليم.

ومن القرى التي تأثرت بمدينة «إبادن» قرية «لاغن» بطريق مدينة «إيوو» على بعد عشرة أميال ظهر فيها إمام جنيد له أولاد نجباء أمثال مرتضى وعاقب وحاشر وثابت وسابق وآثارهم باقية في المنطقة.

●●●

المسلمون من ملوك إبادن[1].

لم يعتنق الإسلام أحد من ملوك «إبادن» الأولين مع أن الشيخ عثمان «باسنو» قد عاصر أربعة من أولئك الملوك، منهم الرئيس «أولويولي» ثم الرئيس «أوغومولا» ثم

(١) لم تكن «إبادن» من البلاد التي يحمل رؤساءها تاجًا، لذلك لا يسمون ملوكًا بل أقيالاً حيث إنهم محاربون، وإطلاق الملك عليهم مجازيّاً ولكن أول رؤساء، «إبادن» هو «بشرون عولو يولي» «إبا» ثم بشرون عثمان ابن «بالي» وأول من رفع ملوك «إبادن» إلى المستوى العالي هو عباس حيث خلع عن نفسه لقب «بالي» وحمل التاج وتلقب «أولو بادن» عام ١٩٣٥. وعلى هذا اللقب يسير رؤساءه «إبادن» حتى اليوم.

الرئيس «أوبي أبي » ثم «أورمو» كلهم كفار وإن كانوا يلجأون إلى الشيخ ويستغيثون به عند الحاجة كما لم يعتنق الإسلام بطل «إلورن» «أفنجا» على يد الشيخ عالم .

وأول من أسلم من الزعماء هو محمد الشمالي ثم ابنه أبو بكر، ثم حفيده عثمان «باشرون» ثم محمد «لاتوسا آري» ثم ابنه «شئت» ثم عباس «أولو بادن» ثم صلاح «إدي عويو» ولكل واحد منهم أياد بيضاء في الإسلام .

ومع أن علماء «إبادن» استطاعوا أن يحولوا المدينة مركزًا إسلاميّاً ثقافيّاً فإنهم لم يستطيعوا أن يؤسسوا دولة صغيرة للإسلام داخل دولة كبيرة في البلد ليثبتوا بها كيانهم .

●●●

الإسلام في مدينة إليفي وما حولها

لقد سبق في مستهل البحث كلام حول أول داعية دخل مدينة «إليفي» فيما بين القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلادي، ولكننا بعد ذلك لم نعثر على الدلائل التي نعتمد عليها للتصريح بالقول إن الإسلام كان له قدم راسخة في تلك العاصمة الوثنية إلا ما كان بعد تخريب مدينة «عويولي» سنة ١٨٣٥م، ولجأ طائفة من أهلها إلى الجانب الجنوبي من «إليفي» فيما أطلقوا عليه «موديكي» التي تأسست عام ١٩٠٩م فيما أنهم «اليوربا» الخالصة، فروا من وجوه الجيش الإسلامي إلى ذلك المكان، وإن كثيراً منهم قد اعتنقوا الإسلام في مدينتهم القديمة.

تقرر انتشار الإسلام حول مدينة «إليفي» منذ ذلك الوقت، على أن الزحف الإسلامي إلى تلك الناحية بطيء جداً بالنسبة لسرعة انتشاره في الجهات الأخرى صوب المحيط، ولذلك لم يسجل التاريخ حركة إسلامية في «إليفى» ولم ينبغ من أبناءها فقهاء وعلماء كما في غيرها، وإن كان هناك من لا بأس بهم من معرفة مبادئ الدين الضرورية، ولم نعرف من أبناء «إليفى» من برز في العلم والفقه على المستوى العالي غير الحاج يوسف «جاغن» مكث في «إبادن» و«لاغوس» وطلب العلم بهما، ثم رجع إلى بلده وصار بها إمامًا جامعًا.

وهناك من البلاد المجاورة لمدينة «إليفي» مثل «إليشا» عاصمة قبائل «إجيشا» وكذلك مدينة «آدو» عاصمة قبائل «أيكتي» ومدينة «عووا» عاصمة قبائل «أكوكو» وهناك عدة قرى متقاربة ومتجاورة تساهل الدعاة الإسلاميون في التغلغل في أوساطها، قبل أن يتمكن التبشير فيها تمكنًا عظيمًا.

وأخيرًا نشطت جمعية أنصار الدين، ونافست الهيئات التبشيرية خصوصًا في أوئل الأربعينيات، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

لذلك ظل أبناء تلك البلاد يقارنون بين الإسلام وأنصار الدين، إذ أنهم عرفوه تمامًا على أيدي الأنصار وتحت قيادة الحاج مصطفى بن القاسم «أيكميندي» إمام أنصار الدين ومرشدهم الأول الذي خلفه الآن الأستاذ علي حرازم «ألايا» خريج الأزهر الشريف.

أولئك الذين تغلغلوا في بلاد «أيكتي» وبلاد «أكـركـو» وبلاد «أوندو» للتـعليم والإرشـاد من مـدينة «إلورن» منهم ألفـا سليـمـان «أريمو» من حـارة «عـومـادا» والحـاج يوسف «بتوري» من ربوة «آبومو».

•••

البلاد حول مدينة إليفي

يحيط بمدينة «إليفي» شرقًا وغربًا مدن كثيرة يقطنها قبائل متعددة تبلغ ستة عشرة قبيلة من قبـائل «يوربا» ولهـم روايات حـول تاريخـهـم مـخـالفـة لروايات أهل «عـويو» بفـارق يسير، غير أنهم اتفقوا على أن أصلهم من «إليفي» وأنهم من أبناء «ألافن أولوفن».

ويمكن حصر تلك القبائل في أربع فصائل رئيسية وهي:

قبائل «إجيشا» وعاصمتها «إليشا» وهي بغرب مدينة «إليفي».

وقبائل «أيكتي» وعاصمتها مدينة «آدو».

وقبائل «إدوكو» وعاصمتها «أوندو».

قبائل «أكوكو» وعاصمتها «عووو».

أما قبائل «إجيشا» فأصلهم غامض لما ورد في تاريخ «يوربا» لصمويل جونسن أنهم كـانوا يقدمون قرابين للأوثان، لهذا عـرفت مـدينتهـم الأوثان «إلى أوشا» وعـرف سكان المدينة وما حولها بطعمة الأوثان «إجي أوشا» هذا أصلهم ثم نزل عليهم غيرهم.. والله أعلم.

أمـا قبـائل «أيكتي» فـأصلهم من الزنوح الأصليين للبـلاد، وكـانوا يقنطون التـلال المرتفعات المسما ة «أوكي تي» في لغة يوربا»، لذلك عرفوا بأهل «أيكتي».

ويتفرعون إلى ستة عشر فرعًا، لكل فرع منهم مدينة عليها ملك ذو تاج، وقد تأخر انتشار الإسلام في تلك الناحية، حتى أواخر القرن التاسع عشر.

ولست أدري السبب الرئيسي لهذا الانتشار البطيء، والراجح أن الإسلام قد انتشر في تلك الناحية على أيدي «النفاويين» وقبائل «كنكدا» المجاورين للنوبة، وظل الإسلام يعتبر دين الأجانب والغرباء أمدًا بعيدًا لم يدخل فيه الأهالي حتى أوائل القرن العشرين،

فوجد التبشير الصليبي في تلك النواحي مرتعًا خصيبًا لغرس العقيدة النصرانية فيها بصحبة نشر التعليم الإنكليزي، ولم يلق التبشير مقاومة إسلامية هناك إلا بعد قيام جماعة أنصار الدين بنشاطها في فتح المدارس ونشر التعليم منذ أوئل الأربعينيات.

وأما قبائل «أدوكو» فزعموا أن الملك «ألافن أجاكا» تزوج برغاوية وجاء له منها توءمان أو ثلاثة، وكانت التقاليد قتل الأم وأولادها، فأشفق عليهم الملك ورحلهم بعيدًا عنه، وأرسل معهم عبيدًا وعاشوا هناك وكثر نسلهم فرسموا على خدودهم رسم أمهم طولاً، بعد أن كان رسمها عرضًا وتسموا باسم «أدوكو».

●●●

كيف انتشر الإسلام في هذه الناحية

أما مدينة «آدو» فهي عاصمة بلاد «أيكتي» أسست حوالي عام ١٧٩٢، ودخل الإسلام فيها منذ حوالي عام ١٨٤٠م أثناء الحرب بين أهل إلورن» وأهل «أيكتي».

ومن أوائل الذين نشروا الإسلام بها: «ألفا علي «أولو كودانا» ثم أول إمامهم المسمى صالح «أييسني» الذي تولى عام ١٨٤١م ثم الإمام داود ثم جامع بن صالح «أييني» ثم الحاج يوسف «أكوريدي» ثم هارون «أييني» ثم جامع «كيهوليري». قد ارتكز بها التبشير الصليبي وامتد رواقه في جميع الأرياف والقرى المجاورة، ولما فتحت أنصار الدين لها هناك فروعًا استوفدوا المعلمين للتدريس بمدارسها، ومنهم المعلم أبو بكر «غوغورو» تلميد «ألفا ألبي عومادا» وكان له نشاط لا بأس به هناك في الدعوة والتعليم، ثم «ألفا أريمون عولوسن».

أما بلد «أوندو» وقد تأسست قديمًا حوالي ١٥١٦م كما ذكرنا، ولم ينتشر الإسلام بها إلا منذ حوالي عام ١٨٨٦م، وكان ذلك على يد رجل اسمه «ألفا عالم» وهو أول من تولى بها الإمامة ثم تولى بعده محمد حبيب ثم تولى بعده محمد الأول بن عالم ثم تولى بعده حسن ثم أرمياء.

ومن الذين نشروا التعليم الإسلامي هناك أستاذ اسمه عبد الحميد «كمنبا» كان يعمل في مدارس أنصار الدين، وقد نزلت عليه عام ١٩٥٢م فهو نشيط الحركة مثقف متنور.

أما بلاد «إكاري» فهي واقعة بين بلاد «أكوكو» وبلاد «إغبره»، وقد أسلم أهلها على أيدي النفاويين قديمًا ولكن أول من نشر الإسلام بها من أبنائها رجل اسمه محمد «غوروسو» ابن سلطان البلد ثم عمر ثم قوي بها شأن الإسلام حتى صاروا لا يولون عليهم سلطانًا غير مسلم منذ عام ١٩١٧م.

وكان أئمة «إكاري» على الترتيب الآتي: أولهم آدم الهوساوي، ثم يوسف الهوساوي، ثم محمد الهوساوي، ثم جبريل وهو أول أبناء «إكاري»، ثم محمد، ثم إبراهيم زبير.

أما مدينة «إليشا» فقد انتشر الإسلام بها في آخر عام ١٨٩٠م على يد[1] ألفا عبد الباقي وهو أول إمام منذ عام ١٩٠٦ حتى عام ١٩٤٦م، ثم تولى بابا سعيد «أورموغوجي» وهو من أهل «عيبي»، ثم تولى أول إمام جامع اسمه عبد الله «أكوريدي» ثم تولى إمام على «أموكي أوجا»، ثم الإمام الحالي عبد الرحمن بن عبد الله «أكوريدي».

وممن نجب من أبناء «إليشا» رجل اسمه الحاج عبد الرحيم «سميث» اعتنق العقيدة الأحمدية المهدوية في أوائل العشرينيات، وزار لندن والهند وباكستان ومكث بها عدة سنوات يتعلم الإسلام، فرجع بعد عودته من الأحمدية والتحق بجماعة نوار الدين، ثم ترأس على المؤتمر الإسلامي النيجيري عام ١٩٥٠م، توفي أخيراً عام ١٩٦٩م.

أما مدينة «أكوري» فهي قاعدة ولاية «أوندو» بما فيها «آدو» و«اكاري» و«عووو» وهي من أهم بلاد «يوربا»، وقد عاش أحد سلاطينها نحو مائة عام في الدولة إلى أن مات.

وأخبرني الإمام الحاضر الحاج «يأيى أكوريدي» أن الإسلام انتشر فيها منذ عام ١٨٩٧م على يد «ألفا بللو» و «ألفا بدماصي» و«ألفا عبد السلام» ولكن أول من تولى الإمامة فيها رجل من أهل «إلورن» اسمه عبد الرحمن، وكان يساعده محمد الأول ثم

---

(١) وفي مراسلة مع الدكتور ميكائيل المحاضر في كلية العلوم بمدينة «إليشا» أن أول من نشر الإسلام بها رجل من «إلورن» اسمه «ألفا باركوبي» عام ١٨٧٠م بمساعدة البطل الشهير «أوغيدنمبي» الذي خصص لهم أرضا لبناء أول مسجد عام ١٨٧٥م، وأول إمام جامع اسمه إدريس «كنكي» تولى عام ١٩٠١م وهو برناوي.

تولى عبد السلام من أبناء البلد وصار يتعاقب على إمامتها حتى جاء الآن الحاج قاسم «يأيى أكوريدي»، وأول عالم قام بتفسير القرآن بها هو محمد راجي «الطنبولي» عام ١٩٣٠م.

أما مدينة «عووو» فقد انتشر الإسلام فيها حوالي عام ١٩٠٠ م مع زحفه في بلاد «أكوكو» على أيدي النفاويين وأشهر أئمتها الإمام عثمان «آصولو» الذي له فضل كبير في إيفاذ العلماء الوعاظ إلى بلاده وفي تأسيس جمعية أنصار الدين من أبناء بلاده، وهو الذي أوفد إلى بلده الشيخ خضر صلاح الدين «أبا أوكاغي» فمكث بها حوالي «أربعين سنة وترك هناك آثاراً صالحة، من ذلك أنه نجب على يديه ابن هذا الإمام المسمى عثمان أحمد، وقد أكمل التعليم في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وتولى مكان أبيه في الإمامة بعد عودته وبعد وفاة والده.

●●●

عوائد أهل بعض بلاد إيكيتي

يستحسن أن نستأنس هنا قليلاً، بتقاليد وعادات أهالي تلك البلاد لربط الماضي بالحاضر لاستنتاج المستقبل من الحاضر فنقول بأن من العادات المعروفة لأهل بلاد «إيكيتي» وما حولها وقد قيل: «لكل امرئ في دهره ما تعود».

إن لهم شدة المحافظة على التقاليد الموروثة، وهم رقم واحد في الصدق والأمانة والوفاء لا يكذبون كما أنهم سريعو الغضب ويكاد أحدهم يموت غيظًا إذا أهين بقول أو فعل، ونساءهم شديدات الغيرة على أزواجهن، وهم كسائر قبائل «يوربا» في الاعتقاد، بتأثير السحر والكهانة وقد امتازوا عن سائر قبائل «يوربا» بشغفهم الشديد بأكل لحوم الكلاب في جاهليتهم إلى حين قريب مما يوقع الغريب النازل ببلادهم في حذر من شراء طعامهم في السوق خوفًا من أكل لحم الكلب، هذا خاص بأهالي تلك الناحية قديمًا خلافًا لأهالي النواحي الأخرى في البلاد اليرباوية، زيادة على ما يشترك فيها قبائل «يوربا» مع غيرهم في أكلها مثل الحلزون، والأفاعي والثعابين، والفيلة، والخيل والسباع من الأسود، والفهود لأن غالبهم كانوا قناصًا يعيشون على صيد ماتناله أسلحتهم في الغابات.

هذا كله قبل انتشار الإسلام وعند ذيوع تلك الحشرات والسباع والدواب.

أما اليوم، وبعد انتشار الإسلام في تلك البلاد، فقد تغير الحال تغيراً كبيراً غير أنه انتشر أخيراً أكل الكلاب في هذه الأيام في قبائل «إيبو»[1] بشرق نيجيريا، فلا عجب، إذ ليس ذنب أعظم من الشرك ولا عيب أكثر من الكفر.

فقد علم المسلمون ما حرم الله عليهم فاجتنبوه، وما حلل لهم فأتوه، علموا تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير بنص القرآن من قوله: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** ﴾ [المائدة: ٣].

وعلموا تحريم أكل ذي ناب من السباع كالأسد والفهد والنمر والكلب والفيل والتمساح بنص الحديث: «**كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير فهو حرام**» (متفق عليه).

أما ما لم يتحققوا في تحريمه كالحيات وما ليس له نفس سائلة كالضفدعة والحلزون فلا يزال سكان البادية المسلمون وغيرهم يأكلونها وإذا أخبرهم عالم ثقة بتحريمها تركوا وكان قبائل «هوسا» يعيرون «يوربا» بأنهم أكلة الحلزون.

•••

الحكم الشرعي

الكلاب كلها نجسة، المعلمة منها وغيرها، الصغير والكبير من البدوي والحضري وعليه الأوزاعي وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق وأبو ثور أنها نجسة يغسل الإناء من ولوغه سبع مرات آخرهن بالتراب لحديث: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه وليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب».

وفي مذهب مالك والزهري وداود والحسن البصري وعروة بن الزبير أنه طاهر وإنما يغسل الإناء من ولوغه تعبداً، احتجوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ** ﴾ [المائدة: ٤] ولم يذكر غسل موضع إمساكها.

---

(١) انظر جريدة بونش يوم الأحد ٩ أغسطس سنة ١٩٨٧م.

واحتجوا بحديث ابن عمر قال: «كانت الكلاب تقبل وتدبر في مسجد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يرشون شيئًا من ذلك» (ذكره البخاري في صحيحه).

ومن الغريب أن يتصف العرب أو يتسموا في الجاهلية بوصف الكلب أو باسمه مفردًا وتصغيرًا أو جمعًا؛ كالكلب وكليب وكلاب، من ذلك دحية الكلبي، الذي يقال إنه أجمل أهل زمانه، وكان جبريل يتمثل بصورته ومع ذلك ينسب إلى الكلب، ومن ذلك كلاب بن مرة من أجداد النبي، وأغرب من ذلك معاملة الغربيين رجالاً ونساءً للكلاب، في معاشرتها ومعانقة النساء له إلى ما يندي له جبين الحياء الإنساني.

●●●

هل يجوز اقتناء الكلب أم لا؟

فبما أن الحديث ذو شجون والإنسان ذو شئون والشيء بالشيء يذكر يجدر بنا في هذه المناسبة أن نأتي على الكلام في جواز اقتناء الكلب أو تحريمه حيث يخيل إلى العامي التعارض في النصوص الواردة في الأمرين وقد أفتى العلماء بعدم جواز اقتناء الكلب لغير الضرورة، فابتعد المسلمون عن معاشرة الكلاب ومخالطتها، وعندما انفتحت طريق الحج وتوافد الناس إلى مكة المكرمة استغربوا من انتشار الكلاب في دروب مكة وعلى أبواب منازلها فصاروا يقولون: لم هذا؟ وكيف ذلك؟ لاعتقادهم أن كل شبر من أرض مكة حرم مقدس، طاهر للصلاة فالكلاب تروح وتغدو فيها بهذا الشكل الرحيب، رجعوا إلى بلادهم يعيدون على علمائهم الفتوى في اقتناء الكلاب.

لذلك رأينا ضرورة إتيان الكلام حول الموضوع فنقول أولاً: في تعريفه نقلاً عن الدميرى في كتاب الحيوان وما نقل عن غيره كالجاحظ:

«الكلب لا هو سبع ولا بهيمة، لأنه لو تم له طباع السبعية ما ألف الناس ولو تم له طباع البهيمة ما أكل لحم الحيوان وله من الأوصاف الحسنة والقبيحة، ومن أوصافه القبيحة أنه يأكل العذرة ويرجع إلى قيئه إذا شبع، والقيء والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض، لذلك قال الجاحظ:

«لكل جيفة كلب، ولكل قذر طالب، ولكل نحو راغب، ولكل وسخ حامل، ولكل سم جارع، ولكل طعام آكل، ولكل ساقط لاقط، ولكل ثوب لابس ولكل فرج ناكح».

ويعرض للكلب داء يسمى الكلب - بفتح اللام- وهو داء يشبه الجنون تحمر به عينا الكلب ويندلع لسانه ويكثر لعابه وسيلان أنفه يمشي ملتويًا كأنه سكران يجوع ولا يأكل ويعطش ولا يشرب وإذا عقر إنسانًا في هذه الحالة عرض له مرض مثل ذلك الداء» اهـ.

وقلت:

إذا تأمل القارئ هذه الأوصاف الخبيثة ابتعد عن الكلب ليسلم من أدواته وأوضاره، ونظرًا لأوصافه الخبيثة، ورد النهي عن اقتنائه كما في حديث: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة**» (متفق عليه) بمعنى ملائكة الرحمة والبركة لكثرة أكل الكلب النجاسات التي تفوح منها الرائحة الكريهة، ولأن من الكلاب ما هو أسود من جنس الشياطين ومنها ما هو العقور الذي يؤذي الناس.

وحديث: «**من اتخذ كلبًا غير كلب ماشية أو صيد أو زرع نقص عن عمله كل يوم قيراطان**» وحديث: «**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه وليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب**».

أما أوصافه الحسنة؛ فيتلخص في أنه ذو أمانة ووفاء لصاحبه لذلك يحرس ربه ويحمي حريمه شاهدًا أو غائبًا ويكرم الكريم، ولا ينبح ذا جاه ويقبل التأديب والتعليم، ويلاعب صاحبه، وإذا عضه لم يؤذه، والكلب السلوقي يعرف الميت والمتماوت من الناس، وقد جاء في الحديث الذي رواه جابر أن النبي ﷺ: قال «**إذا سمعتم نباح الكلب ونهيق الحمار بالليل فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم، فإنها ترى ما لا ترون، وأقلوا الخروج إذا هدأت الرجل فإن الله يبث في الليل من خلقه ما يشاء**» (رواه الحاكم).

ونظرًا لهذه الأوصاف الحسنة رخص الإسلام في اقتناء الكلب للصيد وحفظ الماشية والزرع وحفظ الأبواب والدروب مع التحفظ وقال تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ**﴾ [المائدة: ٤].

نكتفي بهذا القدر لنعود إلى ما نحن بصدده من تاريخ الإسلام في البلاد.

●●●

مقاطعات عوشون

يلي هذه الناحية مقاطعات «عوشون» التي تشمل «أوشوبو» و «إكرون» و «إيوو» و«أوبومشو» وما والاها. . فلنبدأ الآن بتاريخ الإسلام بها ونقول:

الإسلام في مدينة «أوشوبو»

مدينة عاصمة مقاطعات «عوشون» في بلاد «يوربا»، كانت بالقرب منها رأس نهيرة تنبع بها، وكانوا ينسبون لها خرافات طوطومية، لذلك كانوا يقدسونها ويفعلون لها مثل ما يفعل الأقباط لنيل مصر قبل الإسلام، ويرأس موكب الطقوس قيل المدينة المسمى «أتوجا» وحاشيته والكهنة، ويزعمون أن هذه طقوس تسبب الرخاء والنماء كل عام.

أما ظهور الإسلام في المدينة فيرجع إلى ما بعد الهدنة الإنكليزية بين أهل «إبادن» وأهل «إلورن» عقب انتهاء حرب «عوفا» عام ١٨٨٩م.

أما ثبوت الإسلام فتقول الروايات الشفوية إن الذين نشروا الإسلام فيها وفدوا إليها من الشمال عبر مدينة «إلورن» حتى نزلوا «أوشوبو» هم فصيلة من ركب «باسونو» الذي نزل «إبادن» واختلفوا في تعيين اسم الذي نشر الإسلام في «أوشوبو» لعله أبو بكر أو عثمان وهو أول من تولى الإمامة بها، ثم أبو بكر ثم عبد الرحمن «أنشيرى» ثم الإمام «أو كا» ثم عثمان «أوبا تيدو» ثم «أولوكوتا» (صاحب الحجر) ثم بوصيري «أتوفهن» ثم الإمام حبيب الله «أديكولا» ثم الإمام أويس الواعظ ثم «أباجا أورو» ثم إمام «أداكو» ثم أحمد التجاني ثم صلاح الدين.

●●●

علماء مدينة أوشوبو

أولهم الشيخ هارون بن السلطان الذي تقدم ذكره في تاريخ «إبادن» بدأ التعليم في «أوشوبو» على يد الغرباء الوافدين إليها، ثم هاجر إلى «إبادن» واستوطنها وطلب العلم بها، حتى صار قطبًا وقبلة يقصدها الطلاب في كافة بلاد «يوربا» ثم جاء إلى «أوشوبو» عالم كبير من مدينة «إلورن» حوالي عام ١٨٩٥م يعرف بـ «ألفا أولوغن»

واسمه سنوسي، كان من شيعة أمير «ماما» بن زبير، ولما ثار عليه أهل «إلورن» وقتلوه هرب أنصاره يلوذون بالفرار إلى مختلف الأنحاء.

ومنهم هذا الشيخ السنوسى ويقال إن أمه كانت من بنات سلطان «أوشوبو» ولما ضاقت عليه الأرض برحبها في بلد أبيه، لجأ إلى بلد أمه ينشر العلم بها حتى مات، ومن أولاده الواعظ أمين «أديوالي» غير أنه مات مبكرًا وكان من تلاميذه زكريا «عومادا» الإلورى المتوفي عام ١٩٣٤م.

ومن العلماء الذين نشروا العلم في «أوشوبو» الشيخ محمد البوصيري «أوغودو» وخرج إلى «إبادن» وطلب العلم بها ثم رجع إلى بلده وأخذ منه محمد الأول «أوكي أكن» ومحمد بللو صاحب القلم، الذي له تلاميذ نجباء وله ابن أخ نجيب اسمه مصطفي أحمد، كان محمد البوصيري هذا شريكًا للشيخ عثمان «أوباتيدو» في طلب العلم، وتعاقب أحدهما على الآخر في الإمامة قبل موتهما كما مر سابقًا.

ومن الذين نشروا العلم في «أوشوبو»: الشيخ أحمد النوفاوي الملقب «دنغناجى» كان أمينًا لمالية مدينة «بدا» وكان من أقران الحاج محمد الوزير ولكنه ترك الوظيفة أخيرًا وانتظم في سلك الدعوة والتعليم في بلاد «يوربا».

ومن الأعيان الذين عملوا على تقوية الإسلام في «أوشوبو»: الزعيم سليمان «جاغن» كان يقوم بدور السلطان بين المسلمين في الأعياد والمواسم الإسلامية لأن سلاطين «أشوبو» حين ذلك ليسوا مسلمين، ومنهم يحيى شيخ الغرباء.

ومن أبناء «أوشوبو» الذين خدموا الإسلام في غير بلدهم، يذكر الشيخ جنيد «الكتبي» أخذ من الشيخ تاج الأدب ومن خليفته تاج المؤمنين زكريا، واشتهر بنشر العلم في بلاد فرنسا القديمة بلاد «كيتو» و«سافي» و«ساكيتي» وغيرها من بلاد الداهومي (بنين الحاضرة)، له تلاميذ لا حصر لهم هناك، ومقر دعوته مدينة «إدوغو» قرب «إلارو» منذ عام ١٩٣٠م.

ومن العلماء الذين اتخذوا مدينة «أوشوبو» مقرًا لدعوتهم الإسلامية: الشيخ أبو بكر الصديق بن سيمان «جيجي» الإلوري واشتهر بـ «ألفا داطن كوا»، كان قاضيًا

شرعيّاً في «عيدي» ثم رجع واعظًا مرشـداً في «أوشـوبو» وبقي بها حتى مات، ومن أتباعه «ألفا بابا ما دبلي» الإلوري من تلاميذ الشيخ صلاح «أبا أو كاجي»، له باع طويل في علوم العربية والإسلام.

ومن مـشاهير الوعاظ الذين بدأوا في الوعظ منذ عام ١٩٣٠م ولا يزال على قيد الحياة الشيخ «غطاط» بساحة ذي الوحدة «أو لو كن» ومنهم الحاج «شئت» ذي البيت الذهبي من تلاميذ صاحب القلم وشريكه «ألفا أيكو» لذيذ الصوت في القراءة ويقوم على تفسير القرآن حاليًا الشيخ جمعة السنوسي وهو ممن يكتب الرسائل حسب مستوى المحيط.

●●●

الإسلام في مدينة عيدي

تقع مدينة «عيدي» على بعد عشرة أميال من «أوشوبو»، لذلك تأثرت بنفوذ الإسلام بها، وأول من نشر الإسلام فيها السلطان حبيب الله «لاغنجوا» ابن «أود نييي»، تعلم في «إلورن» في بيت إمام «غنبري» من أبي «بدوي»، تولى منصب «تيمي» ومكث فيه خمسين عامًا، ولكنه عزل ومات في معزله بـ«إبادن» عام ١٩٠٠م.

نبغ من أسرة «لاغنجوا» الشيخ «محمد بشري» كان فقيهًا مبرزًا، أخذ العلم من هارون «غيغي» بـ«إبادن»، ونشر العلم بـ«عيدي»، وأخوه إبراهيم «لا تنجي» الذي أخذ العلم عن أحمد الرفاعي بـ«إبادن».

وهناك أئمة كبار خدموا الإسلام في أول ظهوره ولا تزال الإمامة موروثة لهم حتى اليوم، وبها اليوم حركة ثقافية ملموسة من الشبان الذين تخرجوا من الجامعات الإسلامية بالبلاد العربية وعليهم ترجى الآمال، وبهم يعقد لواء الجهاد والجهود، منهم عبد اللطيف وحامد إبراهيم وآخرون.

وأول من أسس نشاطًا للتعليم الحديث، هو محمد محيي الدين الذي تعلم من «سيرالون» ولما رجع أسس مدرسة عام ١٩٤١م وأخذ عنه عبد الوهاب.

وهناك الآن الحاج صلاح «أولوشن»، له مدرسة ومسجد كبير مع جماعة من أعيان البلد.

وعلى شكل «عيدي» مدينة «إلوبو» متوسطة بين «عيدي» وبين «أشوبو» لها مثل ما لمدينة «عيدي»، و«أوشوبو» من الحركة والنشاط، بل كادت البلدان الثلاثة تتوحد باتحاد منازلها وديارها.

وقد عرفنا فيها أبا بكر (صاحب الحجر) غير أنه مات مبكرًا، وعرفنا فيها محمد جمعة أبو بكر الحديدي، نعم المثقف هو لو كان يخرج من بلده وبالقرب منها مدينة

«عيدن» ظهر فيها من نبغوا في العلم كإمامهم وتخرج من ليبيا أخيراً أحد أبنائها المسمى هارون بدماصي وغيره.

وفي مدينة «أودي أوموا» التي أسسها عام ١٩٠٩م أهل «موداكي كي» بالقرب من «إليفي» كان الشيخ يوسف السنوسى الذي تلقى العلم من تاج الأدب ورزق التنوير، له ولد نجيب اسمه «محمد ألبي» أخذ من عبد السلام يوسف «ألكنلا» وتبحر في الأدب.

●●●

الإسلام في مدينة إيوو

زعموا أن رجلا اسمه «تيلوا» خرج من «إليفي» صائدًا وجاء إلى مكان اسمه «إبورتا» قرب «إليشا» ومكث بها ولحق به آخرون ومكثوا مدة ثم هددهم أهل «إليشا» بالغارات الليلية فهربوا من مكانهم الأول إلى مكانهم الحالي ولما وصلوا قال قائدهم: انتظروا حتى نرى هل يطيب لنا المقام هنا؟ فصاروا يكررون هذا القول حتى اشتهر المكان بذلك الاسم «إيوو».

ظهر الإسلام في مدينة «إيوو» منذ حوالي عام ١٦٥٥م ولكنه كان يدين به الأجانب الغرباء إلى أيام سلطانهم المسمى «أندي» ابن «الآوسا» وكان لا يعيش له ولد فطلب إلى واحد من العلماء المسلمين الذين ينزلون المدينة من «أوكي سنة» قرب «إلورن» أن يسأل الله له الولد، فوعده العالم خيرًا بشرط أن يسمي الولد محمدًا إن كان ذكرًا أو يسميها آمنة إن كانت أنثى.

حملت زوجة السلطان، ووضعت ذكرًا فسماه محمدًا، ولقبه «لامويي» بمعنى «الله يحييه» وذلك حوالي عام (١٧٥٥ - أو ١٧٨٥م) - كما في بعض الروايات.

تربى الولد تربية إسلامية ونشأ وكبر حتى تولى السلطنة، فعمل على نشر الإسلام بالمدينة بكل ما يملك، وكان معمرًا طويلاً عاش نحو مائه وعشرين سنة وتوفي عام ١٩٠٥م وفي عهده تولى محمد «أديسا» إمامة «إيوو» حتى توفي عام ١٨٥٠م، ويقال إنه عاش أكثر من مائه عام، ومن هنا اشتهرت مدينة «إيوو» بالإسلام وسط الكفار.

وفي عهد السلطان «إيمبولا» أحد أبناء «لاموبي» جاء العامل الإنجليزي المسمى «غرين» من قبل «قبطين روس» فطلب إليه أن يعين له من العلماء من يتولى القضاء الإسلامي فتعين بذلك أحد العلماء المسمى محمد الأول القاضي عام ١٩١٦م، فصار القضاء إسلاميًا في مدينة «إيوو» إلى أن توفي عام١٩٢٨م، ثم توفي ابنه سلمان، غير أنه عزل قبل وفاته بنحو ثلاث سنوات وذلك عام ١٩٣٦م.

ومن أكابر علماء «إيوو» الشيخ بدر الدين بن عباس بن إبراهيم من علماء «إلورن» نزل بدر الدين في «إيوو» حتى أنجب «محمد مدثر» بها، فأخذ من الشيخ هارون في

«إبادن» وتبحر، وعاش «مدثر» حتى تولى إمامة قبل وفاته، وهو خال الحاج «محلى بخاري» المتكلم الحكيم والمثلي المنطيق صاحب مركز الشباب الإسلامي، له تلاميذ غير أنهم لم يكونوا يعملون معه في حقل واحد.

ومن علمائها الشيخ بدر الدين آمين، والذي رزق ولداً نجيبا اسمه محلى بدر الدين، له مدرسة عربية، اغتبطه الموت حديثًا في حادثة سيارة هو وابنه.. غفر الله لهما.

ومن علمائها الشيخ «محمد عاقب» الذي أخذ من «تاريخ الأدب» غير أنه توفي ولم يعقب ولداً ولا تلميذاً واشتهر بالوعظ منهم: ألفا صلاح «متوكي شي» عليه نحو ٥٠ عامًا وتولى الإمامة قبل وفاته، والإمام الحالي الحاج «هدية الآي» الذي كان ثريّاً سخيّاً تقيّاً ورعّاً، وإليك ترتيب الأئمة:

الإمام محمد أديسا المتوفي عام ١٨٥٠م، الإمام محمد أبو بدماصي المتوفي عام ١٨٧٠م، الإمام عثمان حارة الوطواط، الإمام زكرياء، الإمام بدماصي بن محمد أديسا الإمام بوصيري الإمام زبير، الإمام الشفا بن عثمان، الإمام عبد الكريم، الإمام الشفاء بن بوصيري، الإمام عبد الجبار بن بدماصي، الإمام مدثر بن بدر، الإمام صلاح «متوكي شي».

جمعية إصلاح الدين بقيادة محمد عبد الباقي وهي فرع من أقسام جماعة السنة في «إبادن» بقيادة عبد السلام «بنديلي» ويسمون «أصحاب العمائم».

وإصلاح الدين: أسسها الشيخ أسامة أويس من أهل قرية «كوتا» بالقرب من مدينة «إيوو» عام ١٩٥٤م تعلم من صلاح الدين «متوكي شي» كبير الواعظين هناك، وعلى يده تدرب على الوعظ حتى تفوق وكان يساعده في الجمعية الشيخ عبد الباقي محمد الذي أخذ عن محلى بدر الدين، وتدرب على الوعظ حتى برز على الأقران، وهو الآن الرئيس العام والمدير لجماعة «إصلاح الدين» التي لها نشاط ملموس في ميدان الوعظ في تلك الناحية.

●●●

الإسلام في مدينة إكرون

ظلت مدينة «إكرون» موضع نزاع بين أهالى «إبادن» و «إلورن» ردحًا من الزمن، وبعد سقوط «عوفا» عام ١٨٨٦م عين أهل «إلورن» عليها حاكمًا، كما عينوا عليها سلطانًا من أهلها اسمه عبد القادر «أوبي وولي» ذلك الذي أظهر الإسلام في عهده فتعين أخوه جبريل كأول إمام جامع للبلد، ثم خلف مختار بن عبد الرحمن عم يعقوب الكتبي، ثم «شئت» ثم صلاح، ثم بدماصي.

وأول من اشتهر بالعلم فيها هو محمد الأول الذي جاء من «إلورن» ثم ابنه صلاح الدين كبير علماء المنطقة، ثم يعقوب الكتبي الذي أخذ عن الشيخ صلاح وعن سليم أفندي وعن مصطفي «شير وباون باجاشي» حتى صار يؤلف للناس ويطبع مؤلفاته في مصر منذ عام ١٩٣٠م، حتى توفي عام ١٩٦٥م.

لا بأس بقلم الشيخ يعقوب الكتبي، غير أنه يمزج تحقيقه وتعليقه بأصل الكتاب فلا يكاد القارئ يميز بين الأصل والفرع.

ومن آثار قلمه «المواعظ البليغة» كانت مخطوط ومنقولة من كتاب «التحفة المرضية» وهي منسوبة إلى النبي إبراهيم والنبي موسى والنبي داود عليهم السلام في ثلاثين سورة، وأظن القدماء قد لخصوها لدروسهم بليالي رمضان، يستعملها من لا يقدر على تفسير القرآن فجاء يعقوب ونشرها مطبوعة.

ثم كتاب «خمسون فريضة» وهي آيات مختارة من القرآن تتضمن ما يجب على كل مسلم يوميّاً من الاعتقادات والعبادات جمعها محمد بن أبي بكر وحققها يعقوب وأضاف إليها آيات.

ثم كتاب «نهي الناهين» وهو قصة وعظية رواها أبو بكر الزمامي وفيها من الإسرائيليات.

وتقع تحت نفوذ مدينة «إكرون» قرى كثيرة مجاورة تبلغ عشرة: منها «إنيسا» و«أو كوكو» و«هربجي» و«حيري» وكلها تستنير بنور علماء «إكرون».

ومن علماء «إكرون»: الشيخ راجي وأخوه سليمان، ولقد رزق هذا الأخير ولداً نجيبا اسمه أسماعيل نشر كتاباً على طراز «نوابغ الكلم» للزمخشري عام ١٩٥٠م، غير أنه مات مبكراً.

الإسلام في أوبومشو

تقول الروايات المحلية أن الإسلام دخل مدينة «أوبومشو» على يد عالم برناوي عام ١٧٧٠م ولعله من أهل «أوكي سنة» لأن المدينة قريبة منها، وكان قد نزل بها ولازمها حتى أنجب ولدًا سماه عبد الرحمن عاش حوالي ثمانين، وخلف ولدًا اسمه حسين عاش طويلاً كذلك على نشر الإسلام ، ثم خلف ولدًا اسمه حبيب الله وهو الذي ترك ولده بخاري الذي أنجب مصطفى كمال المولود عام ١٩١٠م، وهو معروف في تلك الناحية بالجد والاجتهاد.

نزل الشيخ «عالم» بـ «أوبومشو» ومكث بها ثلاثة أشهر أو ستة ونبع الماء في مكان يتوضأ فيه مما جعل بعض الكفار يقدسون المكان ويتخذونه وثنًا.

دعا الشيخ «عالم» بـ «أوبومشو» أن لا يغلبهم محارب لأنهم أكرموا مثواه أيام إقامته، وقد خرج منهم عدد إلى «إبادن» لطلب العلم، وأخذوا من الشيخ هارون.

ثم ظهر فيهم عدة شخصيات لهم مواقف حميدة في الوعظ، منهم «أكوريدي» و«ألاوبي» وأمثالهم، وقد تمركز بها التبشير وفتحوا فيها مركزًا لتربية الأساقفة وتخريج المبشرين، كما لعبت مستشفي التبشير بها دورًا هامّاً لمعالجة المرضى منذ عام ١٩٣٠م.

●●●

الإسلام في مدينة إلاح، ومدينة أجاشي بو

إن مدينة «إلاح« من أقدم بلدان «يوربا» الأصلية، وكان يعد ملكها من الملوك الكبار حملة التاج في بلاد «يوربا»، وهي بلاد قبائل «إبومنا»، ولا شك أنها تأثرت بنفوذ الإسلام ضمن البلاد التي تأثرت به من «إلورن» وهي أيضًا من القبائل التي تكتلت ضد الجيوش الإسلامية في معسكر «عوفا» إلى أن انهزموا جميعًا في آخر الأمر وخاتمة المطاف.

لكن المشهور بنشر الإسلام فيها هو الشيخ عباس بن إبراهيم الإلوري، دخل مدينة «إلاح» على إثر هدنة «عوفا» حوالي عام ١٨٩٠م فصار بها إمامًا ولا يزال أحفاده يرثون المنصب إلى يومنا هذا.

أما مدينة «أجاشي بو» فهي: عاصمة قبائل «إبومنا» وملكها «أولوبو» من الملوك الكبار حملة التاج، وكانت أراضي «عوفا» و«إلورن» واقعة ضمن إقطاعيات ملكها «أولوبو» قبل قيام الدولة الإسلامية وقبل سقوط «عوفا» تحت سنابل خيل الفلانيين، وكلها اليوم داخلة في حدود إمارة «إلورن»، أما «عوفا» وما حولها من «أجاشي» غير «إلاح» فهي في حدود ولاية «عويو».

ومن هذه المدينة نزح الذين أسسوا مدينة «أجاشي» في الداهومي (بنين الحاضرة) منذ حوالي القرن السابع عشر الميلادي.

●●●

الإسلام في مدينة عوفا

يقال إن صياداً يدعى «أولويولي» خرج من «عويو» وسكن مكاناً اسمه «إلوفا» بجانب صياد آخر، ثم تنازعا فخرج إلى تأسيس قرية أخرى في مقاطعات «لافيجي»، ثم هاجمه إدريس ثم طرده جنود النوبة فذهب إلى «عوفا» الحاضرة.

وكان أول قيل مسلم في «عوفا» يسمى «أحمد أغاكا»، ثم «أولوموري» الذي كان معاصراً للأمير عبد السلام، ثم بعد ذلك دخلت «عوفا» تحت حماية «إلورن» بحكم العهد والذمة، ثم رفع ما أدى إلى نقض العهد ثم تبعه الحرب.

أما ظهور الإسلام فيها فالراجح أنه يعود إلى ما قبل قيام الدولة في «إلورن» إذ ما من شك أنها قد تأثرت بنفوذ «أوكي سنة» لأنها قريبة منها، وقد سجل التاريخ ما بينها وبين مدينة إلورن» من الوقائع أهمها الواقعة التي تجمعت بها جميع القبائل اليوباوية من جانب، يقودهم «أولويولي إبادن» و«أوغيد يمبي» من «إليشا» ويقود الجيش الإسلامي القائد «أبو بكر كرارة» من «إلورن»، فدامت المعركة سبعة عشرة عاماً قبل انهزام «عوفا» عام ١٨٨٦م فبذلك دخلت تحت إمارة «إلورن».

وكان أشهر من تولى القضاء الإسلامي بها: القاضي مصطفى ابن أخي الشيخ تيجاني بسهل «الوكو إلورن» تولى القضاء بها مدة طويلة منذ عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٣٣م.

واشتهر من علمائها الحاج محمد «دُمْدُمْ» وهو من أبناء «عوفا»، والحاج مصطفى من علماء «إلورن» أقام لنشر العلم في «عوفا» مدة طويلة وتليمذه «أحمد شنبكى» أديب نجيب.

ومن أبنائها الحاج عبد العزيز بن عبد الله نزيل «كاودنا»، وله هناك نشاط في الوعظ والإرشاد.

ومن الجدير بالذكر ظهور صوفي كبير من أبناء «عوفا» له خوارق عادات كثيرة، وكان مكاشفاً يخبر المغيبات ويصح ما يقول، وهو مجاب الدعاء، وله أشعار كثيرة على النمط الصوفي وهو الشيخ محمد جمعة «بولالا»، وتطلق كلمة «بولالا» على

قبيلة من قبائل «برنو» لها تاريخ حافل بالأمجاد هناك، كما تطلق الكلمة على سوط من جلد البقر لضرب العصاة، ولعل الناس كانوا يطلقون الكلمة على الشيخ جمعة لأنه كان يصطحب معه سوطًا يضرب به المخالفين على طريقة الحسبة الشرعية، فاشتهر بذلك إلى أن انتقل إلى جوار ربه عام ١٩٨٩م، عن نيف وسبعين من العمر، رحمة الله عليه.

●●●

المركز الثالث والأخير للدعوة الإسلامية
في مدينة لاغوس

مدينة لاغوس (إيكو) وكيف تأسست

لأهمية هذه المدينة في نيجيريا بصفتها العاصمة السياسية، والعاصمة الاقتصادية، وكيفية ارتكاز التبشير بها أولا ثم انقلابها مركزًا إسلاميًّا أخيرًا.

لهذه الأسباب مجتمعة نخصص لها أهمية كبيرة من الدراسة في عدة نواحي مختلفة، فندرس كيف نشأت، وكيف تطورت ونقول:

اشتهرت «إيكو» - «لاغوس» بهذين الاسمين وصار كلاهما علمًا لها عند الناس، وأهل البلاد يسمونها «إيكو» وهو اسم مأخوذ من «إيكولا» بمعنى «البامية المتجلدة»، لأن أول من سكنها رجل يصيد السمك في الخليج هناك، ويزرع الخضراوات حول الخليج اسمه «أروميري»، وكان هناك ملتقى الطرق الثلاث يعرض بها حاصلاته للمارين، ثم صار يترك بالمفترق ما لا يعنيه من سقط المتاع خصوصًا البامية المتجلدة، فأخذت الجزيرة اسمها من ذلك منذ حوالي عام ١٤٥٠م، ثم لحق به رجل واحد ثم اثنان حتى استقرت بهم القرية[(١)].

أما تسميتها بـ«لاغوس» فكان على لسان البرتغاليين ومن تبعهم من أجناس الإفرنج، وحاصل ذلك أن اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢م دفع بالأوربيين إلى مغامرات اكتشافية بغرب إفريقيا في أواخر القرن الخامس عشر لإيجاد مستعمرات جديدة وإنشاء سوق دولي بها.

فكان البرتغاليون أول من سبقوا غيرهم إلى هذه المغامرة، ثم اندفع كل من الأسبان والهولنديين والفرنسيين والإنجليز إلى ذلك، فكان البرتغال هم الذين أطلقوا على الجزيرة اسم «لاغوس» عندما رست بها أول بواخرهم عام ١٤٨٢م نظرًا لكونها جزيرة من بحيرة مفرطحة على لسان خليج.

---

(١) ومن لواحق ذلك أن قصر ملك لاغوس مبنى فيما يسمونه «إدو نغاون» بمعنى «الفلفل» -أي مزرعة الفلفل، مما يدل على احتمال كونها بستانًا للخضراوات والتوابل.

ولم يعرف الإنجليز «لاغوس» حتى عام ١٥٥٣م فصاروا بعد معرفتها يقصدونها للنخاسة (تجارة الرقيق) حتى صارت أكبر مرافئ النخاسة في غرب إفريقيا.

لهذا قال السلطان بللو في كتابه «إنفاق الميسور» عام ١٢٢٦هـ- (١٨٢١م): «وبجانبهم «أليروبا» مرسى سفن النصارى، وكان أهل هذا البلد يجلب لهم العبيد من بلادنا هذه، ويبيعونهم للنصارى المذكورين، وإنما ذكرت لك هذه القصة لئلا تبيع عبداً مسلمًا لمن يجلبه إليها، وقد عمت به البلوى».

استطاع الإنجليز أن يغلبوا البرتغال والأسبان والهولنديين في الاستيلاء على جزيرة «لاغوس» فاتخذوها بابًا ومنفذًا، ينطلق منه إلى داخل البلاد، ومن «لاغوس» ابتدأ الاستعمار الإنجليزي في «نيجيريا» حتى بلغ ما بلغ قبل الاستقلال.

●●●

جزيرة لاغوس وكيف تحولت مدينة لها شأن عظيم

سكنوا أولاً في الجزيرة ثم هربوا منها من وجه الغزاة المهاجمين واستقروا في قرية «إدو»، لقد نزح قوم من قرية «أوتا» وآخرون من «إشيري» وطائفة من مدينة «بنين» فبذلك تكونت بهم «أدو» ثم دب الخلاف بينهم وبين امرأة مرموقة المقام فاتسع خرق الخلاف إلى أن ذهبت المرأة إلى مدينة «بنين» تستغيث بملكها المسمى «أكينسوا» الذي أرسل معها جنوداً تهاجم «إدو» إلى أن أخضعتها فصارت بعد ذلك تابعة لمدينة «بنين» تؤدي إليها الضرائب السنوية، ثم انتقلوا من «إدو» إلى «لاغوس» الحاضرة منذ حوالي عام ١٦٦٩م.

وتعود الأسرة المالكة بـ«لاغوس» إلى أصل واحد هو «أولوغن كنتيري» وهو الذي ترك ثلاثة أولاد: «عوشيلوكن» و«أديلي» و«أكنتوبي» وإليهم ترجع الأسرة المالكة في «لاغوس» حتى اليوم.

ولقد تأصلت الوثنية بها منذ تأسيسها، ثم أضافت إليها ما عثر عليه من وثنية «بنين» التي هي أعظم مملكة ظهرت في المسرح الدولي بغرب إفريقيا منذ القرن السادس عشر.

وقد استعمرت مدينة «لاغوس» لمدة تقرب من قرن واحد قبل الاحتلال الإنجليزي.

ظهور الإسلام في مدينة إيكو (لاغوس)

يقول الشيخ آدم «أنماشاهن» في رسالته «الإسلام في لاغوس»: إنه عرف الإسلام في «لاغوس» منذ عام ١٧٧٥م في عهد الملك «أديلي الأول» فتم بناء ثلاثة مساجد بها: مسجد «إدولووا» أسسه رجل كشناوي اسمه عمر، ثم مسجد «أدومايو» لعله منسوب إلى أبي بكر وإلى الجيران هناك، ومسجد «أوكونو» بناه السلطان لابنه موسى والد محمد حبيب «أوكونو».

ازداد انتشار الإسلام بـ«لاغوس» في عهد الملك «إيديهو أوجولاري» ابن «عوشيلو كن»، وتولى أول إمام جامع بصفة رسمية في عهد الملك «أكنتوبي» عام ١٨٤١م، وأقيمت صلاة الجمعة أول مرة بمسجد «إنماشهن» ذلك العام.

ثم انتقل أخيراً إلى مكانه الحالي، وكان يقود المسلمين حين ذاك رجل اسمه «رونمانكن»، وبنى الجامع أولاً بالطين اللازب عام ١٨٦٤م، ثم جدد بناءه «وليام شتابك» بن حسين بالآجر عام ١٨٧٣م، ثم أحصيت المساجد الصغيرة فبلغت ٥٧ مسجداً تابع للجامع الكبير ما عدا ستة مساجد التابعة لجماعة أهل القرآن.

أما جماعة «أهل القرآن» فهم فرقة يقولون بتجريد القرآن من كتب التفاسير، أحدث الفكرة رجل نوفاوي اسمه سليمان عام ١٨٢٦م، وتبعه عدد من الناس انفصلوا عن الجماعة الأصلية، ويظهر أن الرجل ضعيف أو جاهل بقواعد اللغة فأبغضها وهجرها وأحدث تلك البدعة، ولكن أتباعه قد تراجعوا الآن وصاروا يستعينون بكتب الحديث وكتب العلوم الأخرى لتفسير القرآن، والجديد بالذكر هنا -ليستأنس به القارئ- ما حكاه المحدث المعاصر الشيخ ناصر الألباني في كتابه «حجة النبي» حيث يقول في أسفل صفحة (٩٥):

«طائفة يسمون أنفسهم بالقرآنيين، والقرآن منهم بريء، يزعمون أن لا حاجة بهم لفهم القرآن إلى سنة النبي، ويكفي في ذلك المعرفة باللغة العربية وآدابها، مع أن هذا لم يكف جابراً وأصحابه لاسيما وهم عرب أقحاح نزل القرآن بلغتهم، بينما هذه الطائفة كلهم أو جلهم من الأعجام، وقد نبع هؤلاء في الهند ثم سرت فتنتهم إلى مصر وسورية و . . . إلخ» -(نشر الألباني كتابه عام ١٩٧٢م).

قلت:

إن القرآنيين الهنود ليست لهم علاقة بالقرآنيين بـ«لاغوس»، لأن تاريخ هؤلاء يعود إلى عام ١٨٧٦م، وتاريخ أولئك في أواخر القرن العشرين عام ١٩٧٠، حوالي مائة عام، ولو كان أهل القرآن هذا من ذلك، لتفاقم الأمر على نطاق أوسع، كما تفاقم أمر الأحمدية الهندية التي سرت إلى «نيجيريا» وسائر أنحاء العالم.

●●●

النصرانية وكيف تمركزت بمدينة لاغوس

علمت أن أول حملة إنجليزية وصلت إلى شاطئ غرب إفريقيا يعود تاريخها إلى عام ١٥٥٣م، وأنهم تمكنوا من إنشاء سوق لهم فيها إلى جانب أسلافهم الذين سبقوهم إليها، وكانت النخاسة أكبر شيء تعتمد عليه تجارتهم، ثم زيت النخيل، ثم الفلفل، والعاج، لقاء ما يأتون به من الأدوات الحربية كالبارود والبنادق والخناجر، وأشياء أخرى من منتجات بلادهم.

وكانت مدينة «لاغوس» و«بنين» و«بداغري» أهم أسواق النخاسة في غرب إفريقيا حتى اشتهرت بـ«ساحل العبيد».

ولما كانت الثورة الفرنسية قد أيقظت عقول أوربا، وكان من الأشياء التي تمخضت عنها منافذ تجارة الرقيق في مجلس العموم البريطاني.

وفي سنة ١٧٧٢م أعلنت إنجلترا حرية العبيد في بلادها ومستعمراتها، وظهرت فكرة إنشاء وطن قومي للعبيد المتحررين بـ«سيراليون»، فأنشأوا مدينة «فريتاون» بخمسة عشر ألف عبد، فانتهز التبشير هذه الفرصة وأسرع إلى إنشاء كلية «فورابي» لتعليم هؤلاء المحررين وتخريج الأساقفة منهم فنجحت هذه الفكرة، وأخرجت الكلية عدداً من أبناء العبيد الذين جلبوا أولاً من «نيجيريا» ومن أوائلهم «صمويل أجاى كراوثر» الذي وضع أحرف «يوربا» بالحروف اللاتينية لكتابة الإنجيل، فأرسلوه إلى «نيجيريا» مبشراً ومعلماً فوضع اللبنة الأولى للأعمال التبشيرية، فوصلت الدفعة التبشيرية الأولى إلى «نيجيريا» ووطنت أقدام المبشرين أول مرة مدينة بـ«داغري» عام ١٨٤١م، ثم ذهبوا إلى «إبيكوتا» ولم يطب لهم المكث بها ثم رجعوا إلى «لاجوس» ثم «كالابار».

بدأ التبشير في تأسيس المدارس بـ«لاغوس» عام ١٨٤٤م ، أولها المدرسة الكاثولكية الرومانية، ثم تليها مدرسة الجمعية الإرسالية الكنيسية عام ١٨٥٩م، ثم مدرسة البنات للجمعية المذكورة عام ١٨٦٨م وكانوا يبنون الكنائس مع المدارس سواء في المدن الهامة والقرى العامة لا يسأمون من ذلك، وكذلك يبنون المستشفيات . وكان من فضل الله على الإسلام أن بقي من هؤلاء المتحررين مئات احتفظوا بعقيدتهم في ديار العبودية، إلى أن تحرروا فانضم طائفة منهم إلى الذين سكنوا «فريتاون» و«سيراليون» وطائفة أخرى طلبوا إرجاعهم إلى وطنهم الأصلي وتخصيص مكان لهم للسكنى، حيث لم يعودوا يعرفون أهليهم ولا هم يعرفونهم، فوافق المسئولون على ذلك وخصصوا لهم في جزيرة «لاغوس» قطعة واسعة في الجزء الغربي منها، واقتطعوا لكل أسرة أرضًا للبناء والسكن، فهؤلاء هم الذين تجد مع أسماءهم العربية الإسلامية أسماء أسيادهم في البرازيل وغيرها مثل: «مارتن» و«كول»، و«لاغود» و«تومسن» و«سافيج» و«أغسطس» و«بيدرو» و«سلفادور» و«ليمس»، وهي أسماء أسياده التي بها عرفهم المسئولون أنهم تحرروا من أولئك الأسياد، ولهم في حارتهم مسجد باسم «فورابي» كان يؤمهم الحاج «كيرو» ثم الحاج عيسى الإلوري .

فكان هؤلاء أول حجر عثرة للتبشير في «لاغوس» لأنهم أول من عرفوا كيف يتعاملون مع السباع، لذا حذروا الناس من الوقوع في شبكة التبشير عن طريق التعليم والتطبيب والتوظيف وغير ذلك .

●●●

شعب «كريو» في لاغوس

الكريو: شعب هاجر من الهند العربية ولعلهم فصيلة من السكان الأصليين في بريطانيا، ووفدوا إلى غرب إفريقيا وأنزلتهم الإنجليز بسيراليون، وليبريا، واستخدمتهم للتبشير والتجارة منذ حوالي عام ١٧٨٨م، وقررت لهم الحقوق المتميزة فامتازوا على من سواهم من القبائل، ربما كانوا أول جنس أسود اعتنقت المسيحية، أطلق اليوباريون على كل مسيحي أسود اسم «كريو»، إلى يومنا هذا[١] كما أطلقوا اسم «مالي» على كل مسلم .

---

(١) إفريقيا الغربية البريطانية تأليف عمر رضا كحالة . طبع دمشق .

مدينة لاغوس وكيف تحولت عاصمة نيجيريا

لقد علمت أن الحكومة الإنجليزية قد اختارت مدينة «لاغوس« مركزًا تجاريّاً وسياسيّاً في غرب إفريقيا، وفي سنة ١٩٠٠م أوفدت رجلاً اسمه «ألفريدريك لوغاد» كمندوب سام ثم حاكم عام، فعمل على توحيد أقاليم البلاد تحت إدارة واحدة باسم «نيجيريا» عام ١٩١٤م، وجعل مدينة «لاغوس» عاصمة لها فانتبه المسلمون على هذه الحركات والنزعات فاقتبسوا من وسائل تلك الثقافات والدعايات فأنشأوا الجمعيات وبنوا المدارس ونشروا المقالات وأقاموا المناظرات بينهم وبين أهل الكتاب، وكذلك استفاد المسلمون من المسلمين الأجانب الذين أتوا للتجارة كالجالية العربية السورية الذين نزلوا بـ«لاغوس» عام ١٨٨٠م. وكالجالية العربية المغربية الذين نزلوا مدينة «كانو» فيما قبل ذلك، ولكن الجالية السورية تركت أثرًا ثقافيّاً في «لاغوس» أكثر وضوحًا من غيرها، فظلت أفئدة الأفراد والجماعات تهوي إلى «لاغوس»، كل يقصدها لمكانتها السياسية والاقتصادية، منهم من قصدها لعرض سلعته على الراغبين فيها، ومنهم من قصدها لنيل بُغيته، فصارت المدينة ملتقى الأجناس ومحطة الأفكار والآراء، ومجال الصراع بين الثقافات والدعوات والدعايات.

●●●

كيف تحولت لاغوس مركزاً إسلاميّاً

وفي زحمة هذه المفارقات والملابسات والعقبات ومن بين الأمواج المتلاطمة والتيارات الجارفة والعواصف التي إذا أتت على كل شجرة قلعتها من أساسها غير الجبال الراسيات، التي لا تزعزعها الرياح ولا تقطعها المياه ولا السيول.

استطاع الدعاة الإسلاميون بقوة إيمانهم وصلابة يقينهم أن يتصدوا لتلك العوادي والدواهي، التي ما من عادية أو داهية إلا والتي بعدها أكبر مما قبلها، ولو أتت على غير الإسلام لجعلته هباء منثوراً.

توافد وتدارك أفراد الدعاة تباعًا من مدينة «إلورن» و«إبادن» و«إسين» فنزلوا مدينة «لاغوس» واختط كل فرد منهم لنفسه مركزاً للدعوة في مسجد من المساجد أو ساحة وجيه من الوجهاء، وبرز إلى الميدان أفذاذ من العرب المغاربة لمشاركة أولئك الدعاة

والتعاون معهم على البر والتقوى، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الكفر هي السفلى.

أشهر أولئك العرب المغاربة: الشريف عبد الكريم المرادي الطرابلسي، نزل «لاغوس» حوالي عام ١٨٩٠م، وأسس بها مركزًا للتعليم، وجعل يطوف غرب إفريقيا فيما بين «سيراليون» و«غمبيا» و«نيجيريا»، إلى أن وافاه الأجل في مدينة «كانو» عام ١٩٢٦م، له مؤلفات مطبوعة عديدة، وأسس منظمات واشترك في إنشاء جمعيات منها «أنصار الدين» الأولى، وله تلاميذ في بلاد «يوربا» وفي «سيراليون» و«غمبيا» و«كانو»، ومن تلاميذه في «لاغوس» الحاج أبو بكر «أوتن» والحاج عبد العزيز «أوشولونغي» والحاج إسكندر.

ومن العرب المشارقة الذين أسسوا مدرسة عربية لأبناء «لاغوس» الأستاذ: محمد مصطفى الشامي عام ١٩٠٤م، صاحب كتاب «مفتاح اللغة العربية»، لعب كتابه هذا دورًا هامّاً في مرحلة الانتقال من الأسلوب القديم إلى الحديث.

وهناك عدد من العرب ومن السنغاليين الذين ساهموا في الصحوة الإسلامية الحديثة.

والمسلمون في «لاغوس» برئاسة «شتابك» بنوا الجامع الكبير بالآجر عام ١٨٧٣م فاقتدى بهم المسلمون في داخل بلاد «يوربا»، فجعلوا يتسابقون إلى بناء مساجدهم الصغيرة والكبيرة على غرار ما سبق في «لاغوس».

اهتم مسلمو «لاغوس» بتأسيس الجمعيات أسوة بالإرساليات التبشيرية فأسسوا جماعة «الصلاة على النبي» عام ١٨٩٠م، ثم جماعة «أنصار الدين الكبرى» عام ١٩٠٠م، ثم «أنصار الدين الصغرى» عام ١٩٢٣م. و«الزمرة الإسلامية» عام ١٩٢٥م.

ثم اقتدى بهم مسلمو بلاد «يوربا» من «إبيكوتا» و«أجبوأودي» وغيرها، فأسسوا ما يماثلها من الجمعيات، وبالجملة نقول: كل حركة تقدمية أو إصلاحية قامت من «لاغوس» بين الرجال والنساء. لا تلبث أن تعم بلاد «يوربا» بأسرها، فذلك صارت أكبر مركز إسلامي اليوم.

أئمة لاغوس وأشهر علماءها

لا يخفي على كل فرد أن العلماء الذين كانوا يهتمون بنشر الإسلام هم القائمون ببناء المساجد بمفردهم أو بالتعاون مع غيرهم من الوجهاء والأثرياء والملوك والزعماء. . وسواء أكانت المساجد صغيرة فيما أطلقوا عليه «المسجد الراتب» أم كبيرة فيما اصطلحوا عليه «المسجد الجامع». ولا نهتم بذكر أئمة المساجد الصغيرة إلا ما كان أول مسجد في البلد، أما الأئمة الكبار في المسجد الجامع بـ«لاغوس» فكالآتي:

١- الإمام صالح عَيْبيَ (١٨٤١- ١٨٥٢م).

٢- نافع بن عبد الله (١٨٥٣- ١٨٨١م).

٣- نالة بن أبي بكر (١٨٨١- ١٨٩١م).

٤- إبراهيم سليمان (١٨٩١- ١٩٢٣م).

٥- الإمام الغالي بن نالة (١٩٢٣- ١٩٤٧م).

٦- تجانى بن إبراهيم (١٩٤٧- ١٩٥٥م).

٧- محمد حبيب بن أبي بكر (١٩٥٥- ١٩٥٦م).

٨- الهادي بن إبراهيم (١٩٥٦م).

وحيث لم يكن سلطان البلد مسلمًا عمل المسلمين في بلاد «يوربا» على أن يختاروا من الوجهاء والأعيان والأثرياء المسلمين من يمثلهم في الشئون السياسية عند ملوك بلادهم. . ابتدأت هذه الفكرة من «لاغوس» وإليك أسماء زعماء المسلمين في «لاغوس»:

وأول زعيم قاد الجموع الإسلامية في «لاغوس» هو عثمان «أنما شهن» في مسجده أقميت صلاة الجمعة مدة طويلة قبل الانتقال إلى المكان الحالي ثم اختاروا:

١- أرومانيكو (١٨٤١- ١٧٩١م).

٢- شتابك بن حسين (١٨٩١- ١٨٩٢م).

٣- يوسف خليفة (١٨٩٢- ١٩١١م).

٤- أباترا وتهامي سافيج (١٩١١- ١٩١٩م).

٥- آدم الغاياتي (١٩١٩- ١٩٢٤م).

٦- عباس أوبيري (١٩٢٣- ١٩٣٧م).

ومن هنا بدأ الوزن في الخفة حيث انقسمت الجماعة على نفسها بين الجامع الكبير ومسجد (على بلوغن) وانفرد كل طرف بزعيم، ولم يجتمعوا إلا على عبد الوحيد إلياس الملقب «بابا الدين»، وقد مر الكلام على معناها في أول الكتاب. ومن أعيان «لاغوس»: مصطفى «بشرون ألوبووو» وأبو بكر «أغورو»، ومن زعماء «لاغوس» من يسمى «أغورو» ولكنني لا أعرف امتيازه، ومن الزعيمات المسلمات في «لاغوس» أم هانئ زوجة «تومسن» بنت مسجداً أوقفت عليه أربع غرف للإمام، افتتح المسجد عام ١٩٤٠ وعين عبد الكريم «لاديميج» إماماً وسلمان «كيبي» نائباً.

●●●

علماء لاغوس

أما علماء «لاغوس» فمن أجل توضيح درجاتهم حسب أوقاتهم نقسمهم على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: طبقة الآباء، وأولهم محمد حبيب الله «أوكونو» وهو ابن موسى ابن سلطان لاغوس، وقد ولد ونشأ في الإسلام وأكب على التعليم، بهذا ضاع حبل الملك من أبيه موسى بن السلطان.

٢- محمد السنوسي صاحب «البيان»، وهو من «إلورن» بـ«دارا لاكوسو» قرب «دار أجيبكوبي» كان يأتي للوعظ والإرشاد، ومسجده في ساحة «بلوغن» وحفيدته الحاجة منيرة والدة الحاج على صلاح «أولو كادي».

٣- يوسف الحبيب لا يحب الكذب، هو أيضاً فقيه عالم واعظ ومسجده بالقرب من حارة «هوسا» بلاد «لاغوس».

٤- أبو بكر عبد الله بساحة «أكنني»، من كبار العلماء وكان يعتقد في صلاحه وتقواه وقد مر ذكره، توفي عام ١٩٠٩م.

٥- أحمد التجاني الواعظ أبو يوسف، له شهرة فائقة في الوعظ والإرشاد.

٦- عبد المؤمن أبو عبد الباري، وهو صاحب تفسير «إدو مابو» مسجده يعد من أوائل المساجد في «لاغوس».

٧- ومنهم الإمام إبراهيم بن سليمان البرناوي، أعظم أئمة «لاغوس» على الإطلاق وأفقههم، وقد تلقى العلم على عدد من الأعلام منهم الحاج عمر بن بكر «الكركي» والحاج محمد بن عبد الله البرناوي، عفا الله عنا فيما فاتنا أو نسينا.

●●●

الطبقة الثانية من علماء لاغوس

ويلي أولئك الطبقة طبقة الأتباع: منهم الحاج علي الفاهم في «أولووولي»، وقد حج عن طريق البحر وفتح مكتبة كبرى لاستحضار المطبوعات من مصر منذ حوالي عام ١٨٩٠م، ومنهم الحاج عيسى بن «شتا» حج ومكث مدة في الأزهر، ورجع عام ١٩٢٥م، ومنهم الشيخ القاسم «أيكيمندي» أبو مصطفى، تلقى العلم في «إلورن» هو مع زميله أبو بكر «أورأيكن»، ومنهم الشيخ إدريس «إنمشاهن»، جمع بين الثقافة العربية والإنجليزية وتولى نظارة المدرسة الإسلامية الأولى عام ١٩٨٧م وعلى يده تخرج النواة الأولى من المثقفين المسلمين، ومنهم الشيخ حمزة زين الدين، كان شريكًا لعبد السلام، استحضر عددًا من العلماء «إلورن» للأخذ منهم، ومنهم بدر الدين صاحب الحياء، وهو رب منزل الحاج أحمد اليرباوي، ومنهم الحاج «أبو بكر بن أوتن» الذي تولى الإمامة في مسجد «على بلوغن» للصلوات الخمس، وكان زاهدًا ورعًا خياطًا كتيبًا، ومنهم الشيخ عبد الرفيع الهوساوي، ومنهم الحاج حمزة أول مقدمي التجانية بـ«لاغوس»، ويلحق بآخرهم الحاج يوسف «بشرون» الذي تولى الإمامة في «زنغو»، تلقى العلم في غانا على السنغاليين وعلى عبد الكريم «مرادي»، ومن العلماء مصطفى «أيكيمندي» إمام أنصار الدين تعلم في «إبادن» عند «هارون غيغي»، ومنهم الحاج يوسف بن حبيب «أوكنو»، هو أول من ابتدع جمعية النساء للصلاة على النبي، توفي عام ١٩٤٠م.

●●●

الطبقة الثالثة من علماء لاغوس

طبقة النزلاء وهم الذين أتوا من مختلف البلاد، ثم ألقوا عصا ترحالهم بـ«لاغوس» حتى وافتهم المنية بها:

أولهم الشيخ جمادى النوفاري الشهير بلقب «شاد» وكان من جلة علماء النوبة، مكث برهة في «إبادن» و«أبيكوتا» ثم لازم «لاغوس» حتى توفي عام ١٩٣٥م. ومنهم الشيخ عاقب الحافظ، ينتمي إلى دار «أيوو» في «إلورن»، كان حافظًا ماهرًا يقرأ القرآن ويفسره بأسلوب نادر بين علماء عصره، ومنهم الواعظ محمد الأمين «باباتا الإلوري»، له جرأة فائقة في التصريح بالحق في الوعظ والإرشاد، قضى فوق عشرين عامًا في «لاغوس» وكان يحضر مجلس وعظه الألوف، وتوفي عام ١٩٥١م، ومنهم الشيخ أحمد التجاني اليرباوي، أخذ العلم من إمام «إسين» ومكث برهة في «أوشوبو» و«عيدي» ثم «لاغوس» فكان من أبرز العلماء اليرباويين الذين سكنوا «لاغوس» وانتهت إليه الرئاسة العلمية بزمنه، غير أن السياسة القبلية نالت من مكانته العلمية ولذلك تعرض لقدح أقرانه العلماء، ونسجل فيما بعد قصيدة له في التحذير من الدنيا هي نبذة وجيزة تعبر عن مستواه الأدبي، وهو من تلاميذ هارون «غيغى» وهو قرين الشيخ أحمد الرفاعي في «إبادن» وصنوه، ومن آخرهم الحاج محمد بن إبراهيم الدندى، ولد في «لاغوس» عام ١٩٠٨م، وتربى في «إيسين» ثم مكث في «إبادن» و«أبيكوتا»، تلقى العلم من عدة أعلام وأخذ عنه عدد من الناس، وتوفي بـ«لاغوس» عام ١٩٧٢م.

ولا يفوتنا أن نلحق بجزيرة «لاغوس» ما كان بالجزء الشمالي من شبه جزيرة كانت بمثابة أخت شقيقة لجزيرة «لاغوس» تسمى «أبيوتي مُيْتَا» فيها مثل ما في «لاغوس» من كل شيء، وبها حركات تجارية ثقافية فنية كذلك، وللدعاة فيها نشاط مكمل لنشاط «لاغوس»، وظهر فيها من الأئمة والعلماء والوعاظ عدد لا يستهان بهم.

أولهم الشيخ القاسم الشهير بلقبه «أولوكودانا» ومعه أخوه بخاري، كان داعية، بنى مسجدًا خاصًا بها عام ١٩٠٦م ثم تولى الإمامة في مسجد الوجيه المسمى «فادراره» عام ١٩١٧م، وأقام صلاة الجمعة فيها إلى أن توفي عام ١٩٣٢م وخلفه أخوه بخاري، ثم تعاقب على الإمامة بذلك المسجد الإمام موسى «أتيري» ثم «أساكا» ثم يوسف «بشورن» وعليه الآن «إبراهيم غطاط».

ومن مشاهير الدعاة في هذه الناحية الشيخ حنفي الإلوري الذي يعود بصلة قرابة إلى (أوجبارة) في «إلورن».

نكتفي بهذا القدر خوفًا من التطويل، وإليك قصيدة أحمد اليرباوي نزيل «لاغوس» من مدينة «شاكي»:

أعـــــوذ بـالله مـن الـزرايـا وكـل شـــيطـان أبـي البـــلايـا
بـاسم الإلـه خـــالـق البـــرايـا الـغـــافـــر الـذنوب والخـطايـا
لله حـــمـــدي عـــالـم الخـبـــايا مـن الأمـــور الكـل والجـــلايـا
ثم الـصـــلاتان مع الـتـــحـــايا عـلى الـنـبـي صـــــاحـب المزايـا
وبـعــــد ذا يأيـهــــا البــــرايـا فـكــلـــنــا رهـائــن المــنـايــا
تلـســـست خــواصنـا البـــلايا تعـــمـــمـت عـــوامـنـا الـفـنـايـا
هبـــوا بهـــا الأصبـــاح والعــشـــايا على الجـــلايا وعـلى الخـــفـــايا
مـــضـى الملـوك من ذوي المطايـا حـــتى الصـناديـد ذوي الســـرايا
قـــد غـــيـــرت أزمـــانـنا الدنـايا وبَـدَّلَتْ أحـــــوالـنا الخـــــزايـا
ومَن يـشـأ فلـيـخـتـــر الخـــزايا أو فليـكن من صـــالحي الـسـجـايا
فـإن الحـجـيج سـائقـو الهـدايا قـــد حـط عنهـم جـــملـة الخطـايا
والصــائمـــون من ذوى الـنقـــايا هم قـــد بدوا بالصـــوم كـالحـنايا
وحـــافظـوا الصـــلاة بـالثـنايـا أدوا الـزكـــاة لذوي الـنقـــابـا
يــا ربــنــا قــنــا مــن الــرزايـا وكل مـــا يـؤذي من القـــضـــايا
بجــــاه طـه صـــاحب العطـايا ومَن رعـــــوا لـدينـه الوصـــــايا

أوردنا القصيدة لتكون مثلا للعالم اليرباوي في مستوى البلاغة الرفيعة والقدرة على التعبير بالشعر والإيجاز المعقول.

ولا يقوم معه عالم يرباوي على قدم واحدة في الأدب إلا أحمد الرفاعي، ومن آثار قلمه قصيدة أنشأها عندما نشب الخلاف بينه وبين علماء «إبادن» في قيمة الدينار والدرهم نقتطف منها ما يأتي:

ومَن لا يـطيع الحق بـعـد ظهـــوره يصيـــر شـقـيّـاً بالمعـاصي ومـاردا
إذا نلـتَ عـــين الحق لا تـكتـــمـنه وكن في ثبـات الحق للدين صـامـدا
ومَن قـام يبـغـي الحق والحق غـائب فـفي كـوثر الرضـوان أحلى مـواردا

وآباؤنا كانوا أخايرَ أمة وقد ألبسونا حلة وقلائدا
وماتوا على خير اجتهاد لدينهم ولولاهم لسنا نراعي العقائدا
فيارُبَّ مخلوق قبيح خصاله يصير بظلم الخلق للخير فاقدا
منافقهم نوعان فانظرهما ترى لنعمة رب الخلق في الغير جاحدا
وأما الذي قد يظهر الخير جهرة ويخفي قبيح الشر في النار خالدا
ومَن سَبَّ أهل الله ظلمًا فإنه لسوء عذاب الله يأوي مكابدا
وقد طلبوا إنكار رشد بمرية لدى الحق كل قد أتى متحاسدا
ولا يُطفأ النور الإلهي بالقِلَى وعيش لئيم القوم جا متأكدا
وليس يضر الشمس نفي شعاعها ولا يمنع المقت البزاة المصائدا
ومن كَذَّب الشيخ المحقق في الدنا فأحرى له في توبة أن يناشدا

●●●

الطبقة الرابعة من علماء لاغوس

هم آخر من اشتهروا بالعلم من أبناء «لاغوس» وعددهم قليل نخص بالذكر منهم: عبد الوهاب بن بدر، من أنجب تلاميذ أحمد اليرباوي، وقد ناب مناب شيخه في الوعظ والتنفسير عند غيابه في الحج، ومنهم على «بوبوأولا» إمام «أدومتا» أخذ من الشيخ أحمد «جيجي»، ومنهم عبد الوهاب «باو الله»، ومنهم عبد اللطيف «أكودوا» إمام أنوار الإسلام وأصله من «عيبيي».

وآخرهم: عبد الحفيظ أبو بكر خريج الأزهر، ويوسف أحمد إمام أنوار الإسلام، ومحمد شتا حفيد عيسى شتا الذي يسكن الآن في «كادونا» ومختار أفندي وأصله من مدينة «عيبيي».

ومن علماء «لاغوس» الشيخ عبد السلام «فاجي»، له تلاميذ كثيرة منهم ألفا أبو بكر «أني بابا»، وقد تولى مكانه كالإمام في مسجد ابنه عبد الرءوف، وكان عبد السلام هذا تلميذاً للشيخ «جمادى النوفاوي» وشريكًا لعبد السلام «أوتن».

الإسلام في مدينة عيببي

مدينة عَيْبَيْي: إحدى البلاد التي وقعت تحت نفوذ «لاغوس» وهي ما بين «لاغوس» و«إكورود» و«إيجيبوا»، والسكان الأصليون كانوا من قبائل «إيجبو».

وأخذت المدينة اسمها من النملة الحمراء التي كثرت في الشجيرات هناك، وازدادت المدينة رونقًا وبهاءً بعد أن هاجر إليها سلطان «لاغوس» المسمى «كوسوكو» عام ١٨٥١م، وكان بصحبته عدد من المسلمين من جنود المرتزقين، منهم النوفاويون والهوسويون وعلى رأس الجنود «أوشودي» وهو نوفاوي، ومن بينهم عالم كشناوي اسمه «مالم أوده» عبده وهو الذي بنى مسجده في «أوكي بلوغن» وجعل يعظ الناس في رمضان بلغة «هوسا»، وكان يقوم بالترجمة إلى لغة «يوربا» واحد من أتباعه، إلى أن مات وخلفه ابنه عثمان بن عبده، وكان حافظًا للقرآن مكان أبيه، ثم جاء إلى «عَيْبَيْي» الشيخ ثالث الملقب «إيبونلا» ذو الغابة الكبرى وهو من أصل «إلورن» وكان أخًا كبيرًا للواعظ الشهير الشيخ سعد الإلوري، فقام بتفسير القرآن في رمضان بعد ما تولى عثمان بن عبده على الإمامة، وفي زمن الإمام خضر ما بين (١٨٦٦- ١٨٧٠م) وقع التنازع على منصب الإمامة فاضطروا إلى تقسيم البلد إلى ثلاثة أقسام: قسم «أوكي بلوغن» ثم «أوكي إبوسو» ثم قسم «بادوسالي».

وكان أول من حج من «عَيْبَيْى» الحاج «أباد» والحاج «دَغَا دَاسَ» زمن الإمام «أويس» حيث أنشئ الاحتفال بالمولد النبوي (١٨٩٨- ١٩٠١م) ولعل ذلك من أثر ما جاء به الحجاج من الحركات الإسلامية التي استفاضت من «لاغوس».

تولى الإمام موسى ثم الإمام إسماعيل خضر وفي عهده جدد بناء المسجد الجامع بتوسع (١٩٠٩- ١٩٣٩م).

قوى الإسلام في مدينة «عَيْبَيْى» ولم يستطع التبشير أن ترسخ قدمه هناك، وظهر في رؤساء «عَيْبَيْي» عدد من المسلمين أولهم «أساري سنة» ثم إبراهيم «عيدو» الذي تولى (١٩٠٣- ١٩١٧م) ومنذ ذلك كان يتولى عليهم رئيس مسلم إلى اليوم.

ونشب الخلاف بين السكان الأصليين والنازلين الجدد انتهي بانفصالهم ، وأسس «أيجيبو» مسجدهم الخاص عام ١٩٤٥م وتولى إمامهم عبد القادر ثم تبعه الآخر إلى اليوم.

ومن العاملين للدعوة في «عَيْبَيْي» في موكب أنصار الدين الشيخ عاقب «بشورن» رحمه الله، والحاج لقمان «أيدو» والد محسن «أيدو». . جزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

●●●

مدينة بداغري

تقع على بعد أربعين ميلا في الجهة الغربية من «لاغوس» وكان سكانها الأصليون قبائل «أيغن» المنتشرة منها إلى «أجاشي» وما حولها، ثم نزل بجوارهم قبائل «عيبادو» وكانت تابعة لمدينة «لاغوس» يتولى رؤساؤها من قبل ملوك «لاغوس»، وقد تزوج ملك «لاغوس» بإحدى بنات «بداغري» وجرى بين رؤساء البلدين تزاور وتحالف.

وفي هذه المدينة بنى أول قصر في جنوب نيجيريا حوالى عام ١٨٤٥م، وفيها نزلت أول بعثة تبشيرية للإنجيل عام ١٨٤١م، وبنيت بها أول كنيسة ثم انتقلت البعثة إلى «أبيكوتا» ثم رجعت إلى «لاغوس» وتمركزت بها.

وقد تأثرت مدينة «بداغري» بـ«لاغوس» كثيراً لأنها كانت في مناطق نفوذ «لاغوس»، ومن «لاغوس» استفاض الإسلام إلى «بداغري»، وقد نزل بها ملك «لاغوس» المسمى «أكنتويي» عندما خلعه منافسه «كوسوكو» وبقي بها قبل أن يتدخل الإنجليز في الأمر فجاءوا وطرد الطاغية «كوسوكو» الذي هرب إلى «عيبيي» وأعادوا «أكنتويي» على عرش «لاغوس».

يعود تاريخ أول مسجد في «بداغر» إلى عام ١٨٢١م، وأول إمام اسمه عبد الله وازدهر الإسلام على عهد الزعيم عباس الذي نزل «بداغري» من مدينة «أيي تورو» بأرض «عيبادو» واستقر في «بداغري» وتولى منصب «سركي» بمعنى زعيم المسلمين عام ١٨٨٤م، ولن تقتصر زعامته هذه على المسلمين فقط بل امتدت إلى غيرهم حتى اعترف له الإنجليز بذلك، وكان يتمتع بشعبية عظيمة طوال حياته إلى أن توفي عام ١٩١٩م.

وبعد وفاته استطاع أهل المدينة أن ينصبوا على أنفسهم رئيسًا على صفة ملك صغير أو قيل من الأقيال، لم يكن له شأن يذكر بين ملوك «يوربا» وأقيالهم إلا بقيام السياسة الحزبية التى اعترفت به، ووضعته في الصف الأول من صفوف ملوك «لاغوس» وما حولها.

●●●

مدينة أغيغي

«أغيغي» كانت ضاحية صغيرة من ضواحي «لاغوس» ولم تكن لها أهمية أكثر من غيرها قبل امتداد السكة الحديدية بين «لاغوس» و «أبيكوتا»، حوالي« عام ١٨٩٥م، مما أدى إلى تخطيط محطة لها، وكسبت هذه المحطة شهرة فاقت بها القرية الأصلية، وهي بالقرب من نحو ثلاثة أميال من المحطة.

وقد أخذت «أغيغي» اسمها من «أغي إيجي» أي قاطع الأشجار، وهي صفة لرجل فأسه حديد قوي لقطع الأشجار، وكان الناس يستعينون به في ذلك حتى اشتهر به ونسبت إليه القرية.

اشتهرت محطة «أغيغي» لظهور الطنبول بها (الكولا) وقد استحضرها رجل أبيكوتاوي من غانا اسمه «كوكا» وزرعها في غابة قريبة بها تسمى «إفاكو» على بعد ميلين من محطة «أغيغي»، وأحب قبائل «هوسا» ثمرة الطنبول وكانوا يستوردونها إلى بلاد «هوسا» في الشمال، لذلك تأسست في «أغيغي» سوق كبيرة للطنبول جاء من أجلها قبائل «هوسا» وأهالي «إلورن» وسكنوا «أغيغي» للاتجار بالطنبول.

وأول إقطاعي جاء لإيجار الأرض والبيت للساكنين هو الرجل المسمى «داروشا» نزل إلى جانب «كوكا» ثم نزل بها قوم من «لاغوس» ومن مدينة «أونا» فامتلأت المحطة فصارت مدينة منذ عام ١٩٠٠م، وبالقرب منها معين يستقي منه أهل «لاغوس» بأسرها إلى اليوم يسمى «ريجو» وماء معين لذيذ ولكنه تغير طعمه لإضافة معين آخر.

●●●

ما هو الطنبول (كولا)؟

كلمة كولا: يرباوية بمعنى لا جزء فيه، كانت تطلق على ثمرة بيضاء قدر التمر لا جزء فيها، وهي صلبة قوية، بها مادة لزجة، وهي شديدة المرارة، كانوا يأكلونها لجلب شهية الطعام، ويزعمون بها فوائد أخرى كثيرة، وكانوا يستوردونها من بلاد «أيكتي» ويبيعونها لـ «هوسا» في الشمال، ثم اكتشفوا هذه الأخيرة وكانت تستورد من بلاد «بنجه» و «نكي» وما حولها بأعلى غانا والداهومي (بنين الحاضرة) لهذا يسمونه بـ «تمر بنجه».

وكان «الهوسا» يحبون الطنبول كثيراً يقدمونه لزوارهم كالشاي والقهوة ويوزعونه على الأصدقاء في حفلات الزواج وفي الأعياد والمواسم يزعمون أنه منعش وأنه يقطع البلغم ويجلى الصدر ويورث الفصاحة ويزيد في قوة الباه، لذلك ينفقون على استحضاره أمولاً باهظة.

انتشرت زراعة الطنبول فيما حول «أغيغي» حتى امتدت إلى أراضي «أبيكوتا» و«جبو أودي» و«أبادن» وقامت بتلك البلاد أسواق كبيرة من أجل الطنبول، ولما انفتحت المواصلات بين «نيجيريا» و«غانا» انتقلت التجارة إليها وكسدت في «نيجيريا» إلى أن قلت اليوم أهمية الطنبول بانتشار شراب «كوكا كولا» وغيرها.

•••

الإسلام في أغيغي

كان الذين نزلوا محطة «أغيغي» من الهوسا والإلوريين وأهل «لاغوس» من المسلمين، وكانوا يصلون في مساجدهم الصغيرة حتى عام ١٩٢٠م، وهناك اجتمع المسلمون لتنظيم أمورهم تحت رئيس وقائد «سركي» و «بلوغن» اقتداء بأهل «لاغوس».

وأشهر هؤلاء المسلمين «سركي» و «ثاني كوكا بلوغن» و«كاجي كهوسا» وجنيد بائع الجلود وثالث «توكن» وعبد الحميد «تموسن» ونوح «جيوا» وبللو «أكنواندي» وصلاح «أبارغدوما» وصلاح «غولو» وعلي «حيدرة» وطائفة من «الهوسا» عينوا أبا عيسى إماماً وغربا النوفاوي نائباً وبوصيري «ألادا» صاحب التفسير، ثم جاء نجم الدين من «آددو» وعبد الرحمن سيوطي من أهل «إلورن» وصلاح الدين أبو عبد الرازق وصلاح «بيندي» من «إبيكوتا» وقاموا بالوعظ في أواسط «يوربا».

اجتمع الكل في مسجد «سركي»، يصلون فيه الجمعة، ولما ضاق بهم المكان طلبوا الانتقال إلى «أتوباجي» سنة ١٩٤١م وتبرع لهم «سالا كو» من مدينة «أوتا» بزنك الغطاء، وهنا مات الإمام الهوساوي وتولى النوفاوي وارتج عليه أولا وثانيًا وثالثًا، ومن هنا انفصل «هوسا» واستقلوا بمسجدهم وعينوا الإمام محمد الأول ثم الإمام إدريس ثم الإمام مختار «طن لامي».

وهناك علمـاء يزورون «أغـيـغي» لنشـر العلم والـدين، منهم آدم «دمنغـرا» من «كتاغم»، كان له دور فعال في نشر العلم بـ «أغيغي» ومن تلاميده الشريف عبد المجيد والشيخ مـختـار «طن لامي» والمرحـوم «مـالم بلاربي» ومـا من عـالم صـوفي أو شـريف حسني أو حسيني يزور نيجيريا إلا وهو يزور «أغيغي» ضمن زياراته أرجاء البلاد.

ومن الجدير بالذكر انتقال مركز التعليم العربى الإسلامي من مدينة «أبيكوتا» إلى مدينة «أغيغي» عـام ١٩٥٥م، حيث استـقرا بها واستـقل المركز بالمسجد والجمـاعة والتلاميذ فتحولت أنظار العـالم إلى «أغيغي» وأصبحوا يرددون اسمهـا في أفواههم ويحملون احـترامهـا في صدورهم بفضل رواد العلم وخدام الإسلام بالمركز المذكور فأصبح أعلام الإسلام من العرب والعجم يزورون المركز بـ «أغيغي» فهم أوئل سفراء الدول العربية والإسلامية في الستينيات، وكلهم قد سجلوا انطباعاتهم عن المركز منشورة في التقرير الرابع عام ١٩٦٤م.

ومنهم شيخ الجامع الأزهر الإمام الأكبر «جاد الحق علي جاد الحق» وعدد من رجال موكبه الشريف.

●●●

أصل مدينة جيبو أودي والإسلام فيها

اضطربت الروايات الواردة في أصل قبائل «إيجبو» يقول جونسن: إنهم كانوا عبيداً كان يقدمهم ملك «بنين» قرباناً للبحر لذلك أطلق عليهم «إيجي بو» بمعنى طعمة البحر.

وهذا كلام أملته عصبية قبلية من عقابيل فرعونية «يوربا» في مدينة «عويو» حيث يزعم أهلها أنهم وحدهم خلقوا ليسودوا وخلق غيرهم لخدمتهم وعبادتهم، وكان أهل «إيجبو» ينسبون أنفسهم إلى «وادي» في أرض «شاد» قرب مدينة «أبشه»، لكني لم أزل أطلب وجهًا قويا لذلك.

والحقيقة أن يقال: إن قبائل «إيجبو» من القبائل المتأصلة ولهم عقلية عميقة ويمتازون بالجودة والمهارة في كل شيء، وهم أقدم من «إبادن» ومن «أبيكوتا»، ولكن تاريخهم لا يزال غامضًا، ينقسم قبائل «إيجبو» إلى عدة أقسام أهمها: «أودي»، ثم «إيبو» ثم «أونا» وهي «ربما» و «إيجبو إيفي» ثم «جيبو جيشًا» ثم «جيبو أغو» وهلم جرّاً حتى «إكورود» بالقرب من «لاغوس».

وقد لعبت بلاد «جيبو» دوراً هامّاً في أواخر القرن الماضي حيث صارت بلادهم طريق القوافل من «لاغوس» إلى داخل البلاد، واشتهروا بتجارة البارود أيام الحروب القبلية بين «اليوربا».

●●●

الإسلام في جيبو أودي

كتب توماس أرنولد عام ١٨٩٧م في كتابه «الدعوى إلى الإسلام» (ص٣٦٣):

وكذلك نلحظ في مملكة «إيجبو» في نيجيريا الجنوبية حركة حديثة جداً للدعوة إلى الإسلام على أن الإسلام لم يدخل في هذا الجزء من نيجيريا إلا في سنة ١٨٩٣م، وفي سنة ١٩٠٨م كانت بلدة بها عشرون مسجداً وأخرى بها اثنا عشرة مسجداً، ويمكن أن نلاحظ سرعة انتشار الإسلام هذه على طول ضفتي نهر النيجر في نيجيريا الجنوبية بوجه خاص، ويقرر أحد مبشري المسيحيين ما يأتي:

«عندما غادرت هذه البلاد في سنة ١٨٩٨م كان هناك قليل من المسلمين بأسفل «إده» ولكنهم الآن منتشرون في كل مكان» . . انتهي كلام أرنولد .

قلت:

إن كلامه هذا قريب من الواقع لأن قبائل «إيجبو» آخر القبائل اليرباوية التي أسلمت ولكنها أحسنت إسلامها حيث عملت على بناء المساجد ليذكر فيها اسم الله أكثر من جاراتها من بلاد «يوربا» .

ومن غريب ما يسمع أن في عام ١٩٠٠م أسلم وجيه كبير في «جبودى» في عهد الإمام الثاني «إتاتيبو» وأسلم معه في يوم واحد ألف شخص والوجيه المذكور اسمه «كوكوسركي» الذي لعب دوراً هامّاً في تاريخ عقد الهدنة بين الإنكليز وملوك وزعماء «يوربا» حوالى عام ١٨٩٠م لإيقاف حروب القبائل ، وكان إلى جانب الإنكليز حتى طرده أهله إلى مدينة «أبادن» لبث بها منفيّاً إلى أن تغلب الإنكليز فرجع إلى بلده ، أسلم الوجيه «كوكو» من أثر نشاط جماعة «صلي . . صلي» في الدعوة الإسلامية أيام الإمام ثاني «إتاتيبو» .

وكان يوم إسلامه مشهداً عظيمًا حضره الشريف عبد الكريم «مرادي» وزعماء مدينة «لاغوس» وزعماء علماء مدينة «إبادن» والواعظ سعد الإلوري من مدينة «إلورن» وذلك عام ١٩٠٠م وعاش بعد إسلامه سبع سنوات ثم توفي إلى رحمة ربه .

●●●

أئمة علماء جيبو أودي

أول من نشر الإسلام بها الشيخ عبد القادر «كانمبو» ولعله تحريف «كانمبو» في «برنو» تعلم في «إبادن» من الشيخ هارون وتوفي عام ١٩٢٨م وخلفه ابنه ثاني «كوكيهو» الذي توفي عام ١٩٨٦م عن نيف وتسعين عامًا ، ومنهم ألفا حسن «أموكي أوجا» تعلم أيضًا في «إبادن» وكان أول إمام جامع ، ادعى ولده محمد جمعة بدعوى المهدوية وتبعه خلق كثير إلى أن انهزموا أخيرا ومنهم ألفا يوسف «باراكوبي» تعلم أيضًا في «إبادن» وخلف ولدًا اسمه أرميا تولى الإمامة حاليًا ، ومنهم ألفا ثاني«إدي ابن» ، ثم ألفا حاشر صاحب

«البيان»، وهو أول من قام بتفسير القرآن بالجامع عام ١٩٢٨م، ثم ألفا عبد السلام «بلوغن»، ثم ألفا صادق «الله يعرف عبده» وآخرون لم يحضرني أسماؤهم الآن.

●●●

التعليم العربي في جيبو أودي

أول معلم عربي جاء إلى «جيبو أودي» هو الشريف عبد الكريم «مرادي»، وتلقى عليه عدد من أهلها، ثم بنيت أول مدرسة إسلامية عام ١٩٣٠م، استوفدوا إليها الأساتذة من «أبيكوتا» ومن «لاغوس» وأول من حج من «جيبو أودي» عام ١٩٢٤م اسمه سنوسي ولم يرجع ثم حج، ورجع الحاج حسن والحاج محمد وسكن مدينة «جيبو أودي» لتعليم الفقه واللغة والتفسير علماء من مدينة «إلورن» أولهم الشيخ بدر الدين بدار «أغانا» في «أبجي»، ثم الشيخ جرجس «أكلنبي»، وأخيراً جاء الشيخ عبد السلام «قابا».

ومن مدينة «جيبو أودي» انتشر العلم والإسلام إلى «جيبوبو» ثم «ريما» التي ظهر بها أولاً الإمام عبد القادر ثم الإمام صادق كما ظهر في «جيبوبو» علماء كثيرون لا نطيل بذكر أسماءهم الآن.

●●●

تأسيس مدينة أبيكوتا

كانت مدينة «أبيكوتا» بالقرب من قرية «إلوغن أوربلي» مع «ألوكي ميجي» ولما تتابعت عليها الحروب هربوا منها بزعامة الصائد «شوديكي» إلى سهل جبل «أولوما» وكان قائدهم الحربي «ليشابي»، ولما استقر بهم القرار صار يلحق بهم كل فوج خائف علي نفسه في مكانه فانتظمت بها هذه المدينة منذ عام ١٨٣٠م، وسموا أنفسهم «أيباجو» بمعنى: اجتمعوا.

وأول من سكنها هم أهل «أكي» وفيهم من جاء من «كيتو» يحمل لقب «ألاكي تو»[(١)] ثم لحق بهم أهل «إتوكو» ثم أهل «إجي هن» ثم جاء أهل «أوكي أونا» وسكنوا حول «مسيل أونا» ومنهم أهل «إلوغن» ثم «إكي ريكو» ثم «أوهو» ثم أهل «غاغور» وأصلهم من «عويو» وأثر ذلك باق فيهم حتى الآن.

ونشبت الحرب بينهم وبين أهل «عويو» وأهل «أوهو» ثم هاجمهم الداهومي عقب هجومهم على «عيبادو» فانتصر عليهم «أبيكوتا».

●●●

الإسلام في أبيكوتا

أسلم بعض أهلها من مدينتهم الأولى قبل وصولهم إلى المحل الحالى، واشتهر من علماءها الشيخ محمد «غاني» والد الشيخ مسلم الدندي، كان من رفاق «باسونو» الذي تأخر في «إبادن» واستمر محمد غاني حتى وصل أرض «عيبا» قبل هجرتهم إلى «أبيكوتا» وهو برغاوي الأصل.

وأول من تولى الإمامة في «أبيكوتا» كان عبداً لـ «شوديكي» هو رجل هوساوي اسمه محمد، ومسجده هو الذي صار المسجد الجامع الكبير إلى يومنا هذا.

واشتهر من علماء «أبيكوتا»: «الفاكوبي كوبي» كان وليّاً مجاب الدعوة له مواقف

(١) وعند بعضهم أن «ألاكي» جاء من «عويو» ولكن الصواب أنهم من «كيتو» التي هي أقرب جوارًا وأكثر شبهًا لأهل «أبيكوتا» خلافا لمدينة «عويولي» التي تبعد عنها إلى أقصى الشمال بمئات الأميال وبين «كيتو» و«أبيكوتا» تقاليد متشابهة.

مشهودة مع ملوك «أبيكوتا» الكفار، ثم نجب من أبنائها في العلم والفقه الشيخ رفاعي «أولوفاكن» بحارة «أوهو» أخذ العلم في «لاغوس» وفي «إبادن»، وعلى يديه تلقى عدد من أبناء «أبيكوتا» منهم «الفابللو أبو سفيان» ومنهم محمد الأول إمام أبو عبد الرفيع بحارة «غاغوره» ومنهم الحاج عالم أبو تاج الدين بحارة «كينتا» ويونس الطويل «بكينتا» ومنهم «الاويي» بحارة «إجايي» و «ألفا أولومو» وآخرون لا يتسع المجال بذكرهم، ومن أعلام علماء «أبيكوتا» : ألفا يوسف «اد يمنفن» الملقب «الأويي» تلقى العلم في «لاغوس» وتلقى علي عبد السلام «إتاكوسى» ثم من أبي بكر «أوريكن» ثم رفاعي «أولو فاكن» ثم من الشيخ جمادي النوفاوي «الفاشادو».

ومن كبار علماء «أبيكوتا» : الشيخ صلاح الدين الملقب جمال الدين، وكان صلاح الدين من أسرة «كوبي كوبي»، تلقى العلم من عدة مشايخ منهم أ حمد بن أبي بكر الإلوري توفي عام ١٩٤٠م، له باع طويل في جميع الفنون، وقد عثرت على ثمانية صناديق من كتبه في مختلف الفنون ووجدته قد قرأ كل واحد منها ووضع على كل صفحة علامات أكثرها : «انظر هنا».

ومن أكابر علماءها الشيخ سراقه «عيبيي رونبي» وهو من أسرة «ألاكي» ولكنه آثر الدعوة على الدولة، ومنهم إمام قدسي العسكري في حارة «إيوري».

ومن جملة علماء «أبيكوتا» الشيخ مسلم بن محمد «غاني» الدندي، كان يحفظ الجلالين عن ظهر الغيب، لهذا وُكِّلَ إليه تفسير القرآن في رمضان وقد خلفه ابنه «ثوبان» بعد وفاة تلميذه «محمد شئت» الذي لم يترك الذي خلفه، وللشيخ مسلم «دندى» ابن عم اسمه «حسن يوشع دندي» إمام نوار الدين بـ «لاغوس».

ومن العلماء : محمد «كورنغا» الذي كان واعظًا فصيحًا يشنف الآذان بأناشيد وعظية.

ومن تلاميذ مسلم الشيخ محمد السنوسي «ماليري» الذي ارتفع بجده واجتهاده على جميع أقرانه حيث خرج لطلب العلم إلى «إبادن» وتلقى العلم على إمام هارون ثم تلقى لدى الشيخ أحمد اليرباوي وعلى يديه تخرج المعلم سراقة وعدد من المثقفين كعبد الكريم عبد الحميد «بودي» وعبد العزيز نعم وحسين «ادي ينكا» بربوة «ساجي».

ومن مشاهير الوعاظ في «أبيكوتا»: الحاج جمعة «أبومو» أخو عبد الرحمن، كان هر وأخوه واعظين كبيرين، ومنهم الحاج ثادق أبو صدر الدين وهو من تلاميذ يوسف «الأويي».

ومن النجباء: الإمام عبد المجيد بن أحمد، كان والده أحمد عالـمًا جليلاً تقيّاً ورعًا، ونجب كابنه عبد المجيد في العلوم حيث تلقى العلم على يد الشيخ جرجس في «جيبو أودي» وعلى عبد السلام «فابا» وغيرهما.

ومن العلماء: زبير والد يوشع بدار «ألاكي» ومنهم يوسف سليمان والد راجي سليمان وهو ورع تقي.

ومن علماء «أبيكوتا» عبد الله «أولو صنمندي» أخذ العلم من الشيخ الرفاعي في «إبادن» غير أنه يؤخذ عليه التشدد في نهي النساء عن حضور المسجد للصلاة، وقد أجازه علماء بلده فاتخذ هو مسجدًا لا يحضره النساء.

●●●

التعليم العربي الحديث في أبيكوتا

كان أبناء «أبيكوتا» أول من انطلقت ألسنتهم بالتخاطب باللغة العربية من أهل بلاد «يوربا» على الإطلاق قد سبقوا أبناء «لاغوس» و«إبادن»، و«أجيبو» و«إلورن» في هذا الميدان ولقد سعدوا بإيفاد عدد من العلماء من العرب إلى بلادهم من أيام الشريف عبد الكريم مرادي الذي أرسل تلميذه أبا بكر سافيج وعمر سافيج لفتح مدرسة عربية على النهج الحديث عام ١٩١٧م وكان قد تألف في صف المدرسة عدد منهم المعلم جمعه «بمبولا» ومحمد شئت وسراقة «أيوديج» وعبد الحميد «بودي» وعبد الكريم «مكولا» وحسين «أديينكا» بربوة «ساجي» السالف الذكر.

ثم تعاقب على التعليم في هذه المدرسة الشيخ إبراهيم دندي من أسرة مسلم دندي ثم الأستاذ هارون الرشيد الأزهري الذي جاء من «سيراليون» ثم الشريف عبد اللطيف الزبادي السوري، كل ذلك بعناية الأستاذ محمد جمعة بمبولا، صاحب المطبعة الذي كان يضيف العلماء والفقهاء بداره وينفق عليهم من جيبه الخاص.

●●●

من هو محمد جمعة بمبولا؟

أصله من «إباد ن» ولكنه سكن «أبيكوتا» عند خاله المسمى «يوسف إيؤولا» في بيت «شوديكي» وقد اهتم «يوسف أيؤولا» بتربية ابن أخته محمد جمعة تربية إسلامية، أرسله إلى «إلورن» بعد تخرجه من المدرسة الإنكليزية، ونزل على الشيخ محمود ابن بيغوري عام ١٩١٥م و ولما رجع أسس المدرسة العربية العصرية عام ١٩١٧م وتعاقب عليها الأساتذة العرب والعجم.

ثم أنشأ «جمعة بمبولا» العروة الوثقى اسم الجريدة التي أسسها السيد جمال الدين الأفغانى وذلك حوالي عام ١٩٢٥م وعاشت الجمعية حتى عام ١٩٣٥م، استورد «جمعة بمبولا» الحروف العربية لطبع الكتب الإسلامية، افتتحت المطبعة عام ١٩٣٦م وأخرج عدة كتب تبلغ خمسين كتاباً إليأن تآمرت عليها الصليبية وأحرقتها تحت عواصف سياسية عام ١٩٦٥م ولم يستطع «بمبولا» أن يستعيد نشاط المطبعة كالأولى حتى توفي عام ١٩٧٣م. . رحمه الله تعالى.

●●●

الإسلام في أجاشي (بوت نوفو)

نذكرها مع بلاد «يوربا» وإن كانت اليوم خارج نيجيريا فإن سكانها حتى اليوم يرباويون فنقول:

مدينة «أجاشي» في الداهومي (بنين الحاضرة): فرع لمدينة «أجاشي» في نيجيريا لأن «أجاشي» في نيجيريا هي الأصل، أما مدينة «أجاشي» في «بنين» فهي الفرع، وكان السكان الأصليون فيها من قبائل «أيغن» ولكن هاجر اليرباويون إلى الداهومي أيام سيطرة «ألافن» عليها لهذا كان قبائل «يوربا» هم الأغلبية الساحقة من سكان «أجاشي» اليوم.

وتقع «أجاشي» على الجنوب الشرقي من بلاد الداهومي بالقرب من عاصمة البلاد القدينة المسماة «أبومي» حيث استقر ملك الداهومي الكبير، وبالقرب من هذه العاصمة مدينة «غيريفي» (ويده)، أسلم أهلها من قديم الزمان على أيدي الشماليين الذين وفدوا من «زوغو» و «كندي» من بلاد سنغي القديمة.

ومن ناحية أخرى: يقال إن الإسلام دخل مدينة «أجاشي» على يد رجل اسمه سعيد الملقب «مالم» وهو ابن «ألافن» الذي فتح الداهومي ويسمى «أوجي غي» حوالى عام ١٦٥٠م، ولأنه افتقد الولد وتكهن له كاهن أن يسكن بلداً قريباً من البحر.

لذلك جاء إلى «أجاشي»، كما أخبر الكاهن والده أنه يكون مسلماً ذا قميص أبيض فضفاض، لذلك كانوا يسمونه «مالم» دون أمير، وابنه عبد الرحمن الملقب «أجي ليبي» هو أول من عرف باسم «طن مالم» أي ابن المعلم، وهو أول إمام في «أجاشي» وله أولاد منهم الطاهر وإبراهيم «هاسو» وأبو بكر ومحمد الأول الذي يقال إنه أعلم جميع أولاد «طن مالم» وهو أول من أجلس لتفسير القرآن، وابنه شاكر وحفيده مجدد الإمام الحالي، ومن أولاد «طن مالم» من سكنوا «لاغوس» منهم «تكر» وأبو بكر والد عبد الرءوف صاحب تفسير القرآن بجامع «لاغوس» ومن علماء «أجاشي» رجل من «أوكي سنة» اسمه «ألفا أديشنا» حوالي عام ١٨٢١م ثم تبعه أسرة «كوكيهو كوبيري» حوالي عام ١٨٩٧م للوعظ والإرشاد بحوالي خمسين عاماً بعد «أديشنا».

ثم ظهر من المسلمين زعيم كبير من المتحررين الراجعين إلى بلادهم عام ١٨٨٤م واسمه «برايسو»، وكان مشهوراً بالفضل والسخاء طول حياته وورث منه أبناؤه أخلاقه، ودامت الزعامة الإسلامية في أسرتهم إلى حين قريب.

وظهر في «أجاشي» بمطلع هذا القرن ملك عظيم مهاب، لأنه كان ساحراً كبيراً اسمه «توفا» ووقعت بينه وبين الواعظ سعد الإلوري واقعة عظيمة حيث التقى الحق بالباطل، فانهزم الباطل وأسلم «توفا» على يد الشيخ في ذلك اليوم، ولزم الإسلام مدة ثم ارتد، ومات كافراً وكان بين هذا الملك الكافر وبين فرنسا مساجلة شديدة معروفة في تاريخ الداهومي (بنين الحاضرة).

ومن أوئل علماء «أجاشي»: الشيخ إبراهيم الذي خرج من بلاده وطاف البلاد «اليورباوية» وتلقى العلم على فم علماءها والتقى بعلماء «لاغوس» و «إبادن»، و«إلورن»، ثم رجع إلى بلاده عام ١٨٩٥م ينشر العلم بها حتى مات وأنجب ولده بللو ابن إبراهيم، الذي أخذ من والده، ثم من الشريف عبد الكريم «مرادي»، إلى أن تولى الإمامة في «أجاشي» وبقي بها حتى توفي عام ١٩٤٥م.

ومن علماءها: الإمام مختار وهو من تلاميذ «طن مالم»، كان داعيًا كبيراً فتح مدرسة القرآن، وتولى الإمامة وأنجب أولاداً ساروا على سيرته وكان من أولاده عبد الرحيم الذي تولى الإمامة أخيراً عام ١٩٥٨م، ومن آثاره «مركز السعيدية الإسلامي» الذي كان يديره توفيق أبو بكر الذي توفي عام تأليف هذا الكتاب، ومن علماء «أجاشي» الشيخ سنوسي الذي تلقى العلم عن الشيخ إبراهيم ثم من الشريف عبد الكريم وتولى تفسير القرآن للمدينة قبل وفاته، ثم خلفه بدر الدين تلميذ تاج الأدب الإلوري، ثم الحاج عيسى الهوساوي ومن علمائها الإمام أبو بكر «دامالا» كان يتصل بأسرة «دامالا» في «لاغوس»، تولى الإمامة.

ومن أحفاده الإمام الحالي محمد مجدد بن «دامالا».

ومن العلماء المعاصرين: الشيخ مهيب يوسف «كوتونو» أخذ عن الحاج أحمد اليرباوي بـ «لاغوس»، له تلاميذ نجباء وأبناء ينسجون على منوال أبيهم هناك. ومن العلماء محمد شئت «ساكيتي»، أخذ عن الحاج عيسى الهوساوي وعن الآخرين، واشتهر في العالم العربي ونجب على يديه عشرات منهم الذين تخرجوا في بلاد العرب.

ومن علمائها: ألفا إبراهيم «إيندي»، أخذ العلم من أهل بلاده ثم ارتحل إلى مدينة «إلورن» عام ١٩١٠م، وتلقى العلم على الشيخ أحمد التجاني «ألابجي» ثم رجع إلى بلاده عام ١٩١٥م ثم سافر إلى مصر ومكث بالأزهر سنتين، وتوفي عام ١٩٥٣م، ومن أولاد محمود إبراهيم.

وآخر علماء «أجاشي» علمًا وفهمًا: الشيخ مصطفي «شربون» تلقى العلم من الإمام بللو بن إبراهيم، وكان مدرسًا في المدرسة الفرنسية ومن هنا تثقف بالثقافتين، ومنه أخذ الحاج قاسم بصري، والحاج يوسف «هازو» والعالم «أفندي» والحاج رشاد والإمام مجدد وآخرون يعلمهم الله.

ومن علماءها في «كوتونو»: الشيخ سعد الإلوري، له تلاميذ هناك.

وأول داعية في مدينة «كيتو»: الشيخ محمد سعيد جد مشهود أبي بكر والعم الأكبر لمشهود رمضان جبريل، ثم نزل بها الشيخ موسى من «إيسين» وهو ضرير يعمل للدعوة وتوفي عام ١٩٨٤م.

●●●

الإسلام في بلاد أشانتي.. بغانا

بلاد «أشانتي» واقعة بشمال «أكرا» عاصمة ساحل الذهب التي استعادت لنفسها اسم «غانا القديمة» أيام «نكروما»، وقد عرف أهلها الإسلام منذ قديم، ولكنه لم ينتشر إلى الساحل الجنوبي، وكانت مدينة «كوماس» عاصمة «أشانتي»، كما كانت مدينة «أكرا» عاصمة «فانتي».

وقد هاجر إليها «الهوسا» و«اليوربا» للتجارة بالطنبول، وكثر عدد «اليوربا» في «كوماسي» حتى نصبوا على أنفسهم أمراء آخرهم «ألاهو»، كما نصب «الهوسا» على أنفسهم أمراء أشهرهم «ما لم صللو» والد الشيخ منتقى القاضي الساكن الآن بجدة في السعودية، وكان يجب أن نذكر الأستاذ عثمان الأذان ضمن علماء «يوربا» لنشاطه وحركاته في الدعوة لأنه رجل عبقري يجيد سبع لغات، له مواقف في الدعوة والتعليم وهو من تلاميذ الشيخ عبد الله «ثاني» في «كوماسي»، مارس الأستاذ عثمان السياسة أيام «نكروما» حتى نفاه إلى نيجيريا بلده الأصلي، ومكث في «كانو» عشرة أعوام، ثم عاد إلى «غانا» بعد وفاة «نكروما» وهو الآن مقتصر على الدعوة خصوصًا بين أبناء جنسه اليورباويين وبه نختم فصول البحث.

●●●

خلاصة البحث

أولاً: انتهى بنا البحث إلى أن الإسلام دخل بلاد «يوربا» منذ القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي، واشتهر في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، ثم رسخت قدمه منذ أواسط القرن السادس عشر إلى الثامن عشر الميلادي.

ولكنه ظل طريداً قبل أن يحمل السلاح، ووجد العلماء في «إيكويي»، ولعل من أثر ذلك بقاء لقب «باركويي» في الذي هو رسول «ألافن» إلى علمائها، ويطلق على أول من أسلم من كل بلد يورباوي إلى اليوم.

وكان العلماء الكشناويون في مدينة «أيوو» كما كانوا في «أوكي سنة» و«أبجي».

ثانيًا: لا يصح ما يقول الناس: إن الشيخ العالم الصالح في «إلورن» هو الذي أدخل الإسلام إلى بلاد «يوربا» كما لا يصح أن يقال: إن الشيخ عثمان بن فودي هو الذي أدخل الإسلام إلى بلاد «هوسا» ولكنهما كانا مجددين للإسلام ويكفي العالم صالح أن يكون مجددا في بلاد «يوربا» كما يكفي ابن فودي أن يكون مجدداً في بلاد «هوسا».

ثالثًا: لا يصح ما يقول الناس: إن الشيخ العالم صالح تلميذ للشيخ عثمان أو أخيه عبد الله بن فودي، كما لا يصح أن يقال: إن الشيخ عثمان بن فودي تلميذ للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي.

رابعًا: لقد ثبت وتقرر أن جميع الذين أخذوا اللواء من ابن فودي في «كاشنة» و«كانو» و «بوشي» و «زاريا» كانوا الفلانيين، ولدوا هم وآباؤهم وأجدادهم في بلاد «هوسا».

أما عبد السلام الذي أخذ اللواء في «إلورن»، وهو وأبوه إن كانا فلانيين لم يولدا في بلاد «يوربا»، ولم يولد آباؤهما فيها، وإنما دخلوا إلى «إلورن» بطلب من أهلها، للاستعانة بدعائهم لا للتولية عليهم، ولكنهم أرادوا أمراً وأراد الله غير ما أرادوا.

خامسًا: إذا كان الإسلام قد قوي شأنه في نواحي «إلورن» بالجهاد المسلح واكتفي الإسلام في نواحي «عويو» وما حولها أن يثبت هنا بالحكمة والموعظة الحسنة.. فإن

الإسلام في «لاغوس» قد قوي شأنه في «لاغوس» بالجدال بالتي هي أحسن مع أهل الأديان والأفكار والآراء والثقافات الجديدة، حيث تقمصت الدعوة شعار الجدل والمناظرة، فتحول الجهاد من طعن السنان، وضرب السيوف إلى طعن اللسان ومقارعة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، بنيت المدارس والمراكز والمساجد للدعوة إلى الله، ونشرت المقالات والبحوث بالصحف والمجلات اليومية والشهرية، وأذيعت الدعوة والدعايات في وسائل الإعلام وعقدت الندوات والمؤاتمرات بمناقشة الآراء والأفكار وغربلت الروايات والدرايات بغربال المنطق والفلسفة، ومعيار العلوم والفهوم.

وما زال الدعاة في أول الطريق ويجب أن يسرعوا في السير، وأن يعملوا عملاً صامتًا ولا يملأوا الدنيا ضجيجًا في التافه.

سادسًا: على الذين يتحسرون من دمار مملكة «يوربا» بقيام دولة فلانية فليكظموا غيظهم، لأن الدولة التي قامت أفادت الإنسانية أكثر من التي دمرت وذلك على قانون التنازع على البقاء وبقاء الأصلح.

سابعًا: على الدعاة العلماء أن يستقيموا هم بأنفسهم في علومهم وأعمالهم، قبل أن يدعوا غيرهم.

وعليهم أن يقدموا النصح والإرشاد، لكل طبقة من طبقات الناس، وهذا تراثهم من الأنبياء، وعلى الصغار الدعاة أن يقتدوا بأعلام الدعوة الذين مضوا في عصور مختلفة، ليلحقوا بركبهم وكل من سار على الدرب وصل.

●●●

كلمة عن رابطة الأئمة والعلماء

استغفل الأثرياء والأغنياء في بلاد «يوربا» علمائهم بالإنفاق على الأئمة والعلماء والمساجد، فسلبوهم الأمر والنهي، فأصبح أولئك الأغنياء أمراء، بيدهم الحل والعقد، ثم جاء دور السياسة فامتص الساسة من العلماء بقية دمائهم، وكمموا أفواههم، وقيدوا أرجلهم، وغللوا أعناقهم فصاروا يجذبونهم حيث أرادوا لا حيث أراد الله، ولا حيث أراد أولئك الأئمة أنفسهم، يساقون إلى الموت كأنهم الضحايا والهدايا في الحج.

لذلك تفكر بعضهم في إنشاء رابطة لهم في بلاد «يوربا» منذ عام ١٩٦٤م فصاروا يجتمعون هناك لدرء المفاسد وجلب المصالح للإسلام والأئمة والعلماء، ليتخلصوا من ربقة عبودية أولئك الأغنياء والأثرياء، فلا زال الأمر سجالاً بينهم حتى الآن، والله غالب على أمره.

●●●

رسالة أمير غندو إلى الأمير عبد السلام

لا يكمل البحث في تاريخ الإسلام ببلاد «يوربا» إلا بإيراد نص رسالة «غندو» إلى أمير «إلورن»، ولقد علمت أن الفلانيين أكثرهم رحل وشبه رحل تغلب عليهم البداوة، ويبنون بيوتهم من الجلود والعرايش، والدويرات الصغيرة، مما يجعل انتقالهم من مكان إلى مكان سهلاً ميسوراً.

لهذا لم يلتزم «ابن فودي» بلداً عامراً على الدوام، حيث ولد في قرية «مرتا» ثم انتقل منها حتى استقر به المقام في «طغل» بأرض «غوير» ثم هاجر إلى «سابن غرى» ولم يزل ينتقل من بلد إلى بلد حتى بنى ابنه محمد بللو حصن «سيفاوا» ونزل به الشيخ.

وأخيراً بنى محمد بللو قرية «سوكوتو» بأمر الشيخ، فكانت قرية إسلامية مبدأها مثل «تمبكتو» وفي ذلك يقول محمد بللو:

لسعدي ديار يالها من منازل ... بسوكوتو بذات التل دون المناهل

بلاد تمناها ذوو الرأى قبلها ... فجاد عليها كل أسحم هاطل

بناها محمد بللو عام ١٨١٥م، وانتقل إليها الشيخ عثمان ولازمها سنتين، ومات عام ١٨١٧م هناك. فتولى محمد بللو سلطان المسلمين.. إلى أن مات عام ١٨٣٧م.

ثم تولى أبو بكر عتيق.. إلى أن مات عام ١٨٤٢م.

ثم تولى علي بابا.. إلى أن مات عا م ١٨٥٦م.

وهذا آخر من توزر له: الوزير «غطاط بن ليما» الذي كان سكرتير الشيخ عثمات في حياته، أما الشيخ عبد الله فقد لازم مدينة «غندو» بعد موت أخيه حتى مات عام ١٨٢٨م.

ثم تولى ابنه محمد بن عبد الله الذي كتب الرسالة إلى «إلورن» ثم مات عام ١٨٣٣م.

ثم تولى خليل بن عبد الله أخو محمد.. إلى أن مات عا م ١٨٥٨م، وفي عهده تم أمر اللواء لعبد السلام.

ومن هنا نعلم أن ولاية عبد السلام على «إلورن» كان حوالي عام ١٨٢١م. ليس كما اشتهر بأنه عام ١٨٣١م- لأن رسالة «غندو» قد كتبت عام وفاة عبد الله وذلك عام ١٨٢٨م، فيكون ذلك بعد ولاية عبد السلام بسبعة أعوام.

وإليك نص الرسالة بكاملها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

من أمير الغرب محمد بن عبد الله، إلى أمير «يوربا» عبد السلام وجميع من معه من العلماء والوزراء والإخوان والأعوان، أجمل التحية وأتم السلام ورحمة الله وبركاته على الدوام.. وبعد:

فقد وقفنا على كتابكم، وتأملنا ما فيه من حسن خطابكم، عن تعليمكم إيانا مكانكم، في نظرنا ورأينا، وأنكم تشكروننا وتعلموننا أصلكم، ولولا الأصل ما قام الفرع، وأن لا نسمع قول الوشاة، لأن الناس منهم أخيار ومنهم مفسدون، وأنكم لاتخالفون أمرنا أبداً، وتستعيذون بالله من التغيير والتبديل.. هذا حاصل ما كتبتم.

فاعلموا يا إخوانى علم يقين، بأننا قبلنا جميع ما ذكرتم في كتابكم غاية القبول، وليس من شأننا قبول قول الوشاة، ولا من عادتنا العمل برأى المفسدين، وإنما نعمل بما أمرنا ربنا في كتابه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ** ﴾ [الحجرات: ٦]، ونبذل إن شاء الله جهدنا في بحث أمور جميع رعيتنا وإصلاحها دينًا ودنيا، ونحوطهم بالنصيحة، ولذلك لا نزال نجتهد في طلب المواصلة بيننا بالإرسال إليكم مرة بعد مرة، لأن انسداد الطريق بيننا وقطع المواصلة، هو الذي يورث إفساد المفسدين فاجتهدوا أنتم في طلب المواصلة والإرسال إلينا كما اجتهدنا، فإن قطع ذلك أضر وأشد عليكم أكثر منا.

ونعلمكم أيضًا بأن شيخنا الوالد رحمه الله تعالى توفي في شهر المحرم لعشرين منه، اللهم اغفرله وارحمه وارحمنا بعده، فا جتهد في بعث من يأتي إلينا وينوب عنكم للتعزية، ولنعقد معه كل ما نعقده من الأ مور، هذا. . وقد رأينا في كتابك أيضًا بأنك تسأل عن شيئين:

الأول: هل يجوز للمسلم أن يُجْعَل خصيّاً؟

الثاني: الزاني والزانية إذا أحكم لهما بالقتل، وشفع أهلهم وأخذ منهم مالاً، المال لمن هو؟

فاعلم: أنه لا يجوز للمسلم أن يُجْعَل خصيّاً وهو من الكبائر، قال عليه السلام: «**ليس منا من خصى واختصى**» (رواه الحاكم والطبراني).

ولكن لا بأس باتخاذ الخصي الطبيعي، هذا جواب المسألة الأولى.

أما الثانية: فاعلم أنه لا يجوز أخذ المال في ذلك، بل في كل حكم شرعي لم يتعلق بالمال، إلا إذا خيف في قتل ذلك الزاني والزانية، فيؤخذ المال حينئذ ويجعل في مصالح المسلمين.

وليس لصاحب المرأة الزانية شيء من ذلك المال، هذا ما أفتى به شيخنا الوالد قبل وفاته.

هذا. . وإني أوصيكم- ياجماعة المسلمين- بما وصى الله به الأولين والآخرين،

وهو التقوى، قال جل من قائل: ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ [النساء: ١٣١].

فالتقوى: هي الطريقة الموصلة إلى الله تعالى فطوبى لمن وفق إليها، والتوبة والإنابة إلى الله، وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون.

وأحذركم ما حذر الله عنه الأولين والآخرين، فقال جل من قائل: ﴿ **فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [لقمان: ٣٣].

ويروى فيما ورد: «**الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا فقه له، حلالها حساب، وحرامها عقاب، ومتشابهها عتاب**».

وعن النبي عليه السلام: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضه ما سقى كافراً منها جرعة ماء**».

واعلموا أن الدنيا دار أقذار وأكدار، وبلاء واختيار، فجميع ما فيها من الآباء والأمهات والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والمساكن المرضية فتنة و بلاء للعبد.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال أيضًا: ﴿ **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً** ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال: ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** ﴾ [طه: ١٣١]. وقال: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الكهف: ٧]. . واحذروا من الاغترار بالدنيا والإقبال إلى جمعها .

وأوصيكم بلزوم الجماعة والصلاة في المسجد ، قال عليه السلام: «**بشر المشائين في الظلام إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**».

وعن ثابت بن عبيد قال: «دخلت على زيد بن ثابت أعوده وهو مريض وعنده ابناه، فأقيمت الصلاة فقال: اذهبا إلى الصلاة فإن صلاة المرء في الجماعة تفضل صلاته وحده خمسًا وعشرين درجة».

وأوصيكم أيضًا: بطاعة أولي الأمر، قال تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩]. وعن أبي هريرة: «هم الأمراء».

قال عليه السلام: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**».

وقال: «**ستليكم بعدي ولاة، فيليكم البر والفاجر، والفاجر بفجور، اسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، وصلوا وراءهم، فإن أحسنوا فلهم ولكم، وإن أساءوا فلكم وعليهم**».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسويد بن علقمة: «لعلك لا تلقاني بعد اليوم، فعليك بتقوى الله والسمع والطاعة للأمير، وإن كان عبدًا حبشيًا مجدعًا، وإن شتمك فاصبر، وإن ضربك فاصبر، وإن أخذ مالك فاصبر، وإن راودك على دينك فقل: طاعة ربي دون طاعة مخلوق مثلي، ولا تخرج يد من طاعة الله».

وأوصيكم أيضًا بالرفق والرحمة واللين قال الله تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وقال أيضًا: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال عليه السلام: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**».

وقال عليه السلام: «**ما من عبد يسترعيه الله رعيته ويموت يوم يموت غاشًا لرعيته، إلاحرم الله عليه الجنة**».

وفي رواية لمسلم: «**ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يحب لهم ما يحب لنفسه وينصح لهم إلا لم يدخل الجنة**».

وأوصيكم أيضًا بترك الظلم، قال تعالى: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ**﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وأوصيكم أيضًا بالجهاد، قال تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ** ﴾ [النساء: ٩٥].

وقال أيضًا: ﴿ **وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ [التوبة: ١١١].. والآيات في هذا الباب كثيرة.

وفي البخاري: سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيله**».

وأوصيكم أيضًا بطلب العلم، قال تعالى: ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٩].

وقال عليه السلام: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»، و قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**». و قال: «**لكل شيء عماد، وعماد هذا الدين فقه في الدين**». وقال: «**اغد عالـمًا أو متعلمًا أو متبعًا أو محبًا، ولا تكن الخامس فتهلك**».

وأوصيكم أيضًا: بالمحافظة على الصلوات في المساجد قال تعالى: ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال عليه السلام: «**لا يزال الشيطان ذعرًا من المؤمن ما حافظ على الصلوات الخمس، فإذا ضيعهن تجرأ عليه وأوقعه في العظائم وطمع فيه**»- ومعنى ذعرًا: خائفًا. قيل ثم ماذا؟ وقال: «**حج مبرور**».

وقد ورد وعيد شديد في ترك الجهاد، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...** ﴾.. إلى قوله: ﴿ **قَدِيرٌ** ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

وقال عليه السلام: «**إذا بايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد: سلط الله عليكم الذل والمسكنة حتى ترجعوا إلى دينكم**». وقال: «**ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا أذلهم الله**»، «**وما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب**».

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «ولا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر».

وأحذركم من الخيانة وأكل أموال الناس، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقال عليه السلام: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها لتوجد من أربعين خريفًا**».

فاجتهدوا ياجماعة المسلمين في حفظ تلك الوصايا واعملوا بها، فإنه يجب على العاقل أن يحاسب نفسه محاسبة الشريك لشريكه، ويتوب من المعاصي ويتدارك تقصيره في حقوق الله ويرد المظالم، ويستحل من تعرض له بلسانه أو يده أو سوء ظنه بقلبه، ويطيب قلوبهم حتى يموت وليس عليه حق لله ولا مظلمة لعباده، ويسأل الله قبول التوبة، هذا، والسلام على من اتبع الهدى». . انتهي نص الرسالة.

●●●

من مراثي تلاميذ الشيخ عبد الله بن فودي

لما مات الشيخ عبد الله بن فودي رثاه تلاميذه الذين أخذوا منه العلوم وبلغوا المستوى العالي، فهذه هي مقتطفات منها:

قال الشيخ محمد بللو بن عثمان بن فودي:

إن الرزية لا رزية مثلها ... رزء غدا الإسلام منثلمًا به
خطب جليل حل من فقد الذى ... في العلم ليس له أخ من مشبه
تبكي فنون الشرع من فقدانه ... لا سيما التفسير جاد بسكبه
ومنابر فيها غدا يعلو بها ... في خطبة قد أوحشت من نصبه

وقال تلميذه محمد البخاري بن عثمان بن فودي

أقلي من عتابك أم عمرو ... علي فلا جناح على بكائي
فإن الصبر يحسن- ويك- إلا ... على فقد الهداة الأتقياء

فـــــــــــلا والله لا أنـفـك أبـكـي　　على عــمي وشـيــخي ذي البــهـاء

ســــقى الله الـكريم ثـرى إمــــامي　　ونيـل القــرب مـن رب الســمـــاء

أقول:

يا حبذا لو وجدنا من مدينة «إلورن» من قد رثى الشيخ عبد الله لو كان شيخهم كما يقولون.

«إلى هنا تم البحث بعون الله»

آدم عبد الله الإلوري

المحرم سنة ١٤١١هـ (يوليو سنة ١٩٩٠م).

●●●

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم

أخي القارئ لهذه السطور، لقد أمرنا الله بالدعاء لمن هو حجة لنا بيننا وبينه في دينه بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وليس معنى هذا أن النبي محمدا كان شريكا لرب العالمين في خلقنا بل كان معنى هذا دليلا على اعتراف الفضل لمن دعانا إلى الله حتى ولو لم ندرك حياته ولم نأخذ منه الإسلام يدا بيد، بل أخذنا عن وسائط من الآباء والأجداد والأئمة والمشائخ.

ولكنه ترك لنا كتاب الله وسنته لمن يتمسك بدعوته أن يتمسك بهما ونرجو أن نكون بجواره يوم القيامة إن كنا حقا على اتباع ما ترك لنا. ثم اعلم أن النبي لما علمنا نصلي عليه قال قولوا: -

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. في ذلك أدب وتواضع واعتراف الفضل للأولين حتى ولو كان الأخير هذا أفضل خلق الله، ومع ذلك فقد أعاد الفضل إلى أهله وأصله النبي إبراهيم الذي هو أبو الأنبياء وكان على ملته.

وبعد فهذه السطور القليلة تنويه بآبائي وأساتذتي في هذه البلاد، وأنا اليوم وإن كنت قد تركت منهجهم القديم بعد أن تربيت عليه والتزمت الأسلوب الحديث والمنهج الجديد فلهم الفضل ولولاهم لو اهتد إلى الأسلوب الحديث، ولولا الأسلوب الحديث لم أمتز عن غيري.

لهذا وذاك، أشكر الأولين والآخرين معًا، وأسأل الله أن يغفر لنا ولهم جميعًا ويجمعنا تحت ظل رحمته يوم لا ظل إلا ظله إنه غفور رحيم.

آدم عبد الله الإلوري

الشيخ الوالد عبد الباقي حبيب الله عبد الله

عاش فيما بين ١٨٧٩م وبين ١٩٥٦م

ولد هذا الشيخ رحمه الله في مدينة إلورن من أبوين صالحين ينتمي والده إلى مدينة عويوي وتنتمي والد ته إلى برنو عن طريق الشيخ آدم الأنامو نزيل أوكى سنة أولاً ثم إلورن أخيراً، تربى الشيخ تحت كنف والده إلى أن توفي الوالد ثم تولى تربيته أخوه الكبير الإمام إلياس إلى أن بلغ رشده وحبب إليه التجارة والرحلة على الرغم من كراهة أخيه الكبير لذلك، فخرج إلى مدينة عويو ونزل في بيت جده ولازمه مدة ثم توجه إلى لاغوس ولازمها وكان من الذين مدوا السكة الحديدية من لاغوس إلى أبيكوتا فيما بين ١٨٩٦م- ١٨٩٩م ثم ارتحل إلى مدينة إيسين ولازمها مدة ومنها توجه إلى مدينة شا كي ثم جاوزها إلى بلاد برغو و بلاد نكى وبوسا ومنها توجة إلى قرية واسا ببلاد برغو فنزل ضيفًا على سلطانها الذي طلب إلى الشيخ المكوث معه، ومن أجل تحقيق ذلك زوجه ابنته التي صارت والدتي.

ثم تولى والدي إماما جامعًا للقرية والإمام الجامع في تلك النواحي وفي ذلك الزمان له مكانة مرموقة في المدينة أو القرية لأنه يأتي بالدرجة الثانية من السلطان مباشرة.

وكان الحكمدار الفرنسى لا يقطع أمرا دون السلطان والإمام، وهكذا أدركت والدي في بلدة والدتي حيث كنت أتوهم أن الدنيا تنتهي بحدودها وأدركت والدي ينزل عليه دواما العرب الجوالة من بلاد مالي وبلاد شنقيط ولكن لم يكن يتعلم منهم شيئًا بل يضيفهم كما يضيف الإمام رجال الدين وإنما كان كثيراً ما يزور مدينة زوغو التي كانت على بعد أربعين ميلامن واسا تقريبا عندما يريد المزيد في العلم أو عندما يحتاج إلى حل مسألة دينية عويصة وكان العلماء يتواجدون كثيراً في مدينة زوغو حينذاك، وكان ينزل بها الشيخ الحسن صلغا أكبر تلاميذ الحاج عمر صلغا المشهور.

لازلنا كذلك حتى نعي إلى والدي وفاة أخيه إلياس ١٩٢٦م وكل ذلك على مسمع منا، فتأهب للرجوع إلى بلده إلورن ثم مات السلطان صهره فتأخر لذلك حتى تولى

أخو السلطان، وأخيراً عزم على الرجوع إلى إلورن فخرج ومكثنا سنتين في الطريق قبل وصولنا إلورن عام ١٩٢٩م.

ولما استقر مقامه في إلورن اتخذ لنفسه أستاذين يتعلم منهما: -

أحدهما يتعلم منه الأشعار الوعظية والمدائح النبوية وهو الشيخ مالك الاهوسا وثانيهما يتعلم منه التفسير وكتب الحديث وهو الشيخ أحمد الهاشمي أريكيهويو ولم يزل كذلك حتى عاقه كسب الرزق لأهله عن حضور مجالس الدرس واستأنف التجوال في البلاد اليرباوية من إلورن، أوشوبو، عويو، إبادن وإجبو وكان يأخذني معه في حله وترحاله منذ نعومة أظفاري يهتم بتربيتي على الأسلوب القاسي الشديد ويعلمني مما علمه الله من العلوم اللغوية والدينية إلى أن وصلنا مدينة إبادن ١٩٣٤م وهناك أطلق سراحي لكي أذهب إلى الشيخ صالح سبط أستاذه مالك الاهوسا، وبهذا انفتح أمامي منهج جديد في الحياة غير الذي سرت عليه عند والدي رحمه الله تعالى.

ولم يزل والدي ينتقل مع أخي الصغير يعقوب بين إبادن وعويو وإلورن إلى أن نالت منه الشيخوخة ومتاعب الحياة منالا مريرا، ونحن قد شرعنا في إنشاء المركز من أبيكوتا ثم انتقلنا إلى أغيغي فلم أستطع ملازمته في مكانه لأعمال المركز فطلبت منه النزول بجواري في أغيغي للتعالج ولكن الأجل المحتم وافاه هناك وتوفي يوم الجمعة من أواخر رجب عا م ١٣٧٥هـ ودفن بجانب المسجد بالمركز وله قبر هناك يزار (رحمه الله).

●●●

الشيخ الوالد عبد الباقي حبيب الله بن عبد الله
عاش فيما بين ١٨٧٩م وبين ١٩٥٦م

الشيخ صالح بن محمد الأول
عاش ما بين ١٩٠٠ حتى ١٩٨٥م

ولد هذا الشيخ في حارة أبجى بمدينة إلورن من والد تقي ورع تزوج ابنة الشيخ مالك المسماة (الصحاح) فجاء منها الشيخ صالح ولما كان مالك لم يرزق بعد غير بنات وكان صالح هذا أول سبطه لذلك تكفل بتربيته بعد انفطامه من أمه وصار يعلمه ثم أرسله إلى شريك له في الطلب ليعلمه أيضًا، وهو الشيخ إبراهيم الدسوقي كان مجاوراً لمحمد الأول أبي صالح فصار يتعلم من الاثنين إلى أن طلب عشيرة مالك في إبادن أن يرسل إليهم من يعلم أولادهم ويرشدهم فأرسل مالك سبطه صالح إلى إبادن عام ١٩٣٣م فأسس هناك معهداً منزليا استفاد منه عدد لا يستهان به.

وقد قلت آنفا إن والدي كان يتولى تربيتي ويرافقني معه في سفره وحضره إلى أن وصلنا مدينة إبادن وقد سبقنا إليها الشيخ صالح بعام وأسس معهداً ومن ثَمَّ سمحت نفس والدي بأن ألتحق بذلك المعهد فأتعلم من سبط شيخه، فصرت أتردد إلى هذا الشيخ وأحضر دروس علمه ومجالس وعظه وآخذ حصتي الخاصة بي وأستمع إلى شركائي في حصصهم فبذلك استفدت الكثير في وقت قصير، وكان شركائي أخو الشيخ صالح اسمه شعيب ألبي وزكريا صادق من عويو وعبد السلام سهل الوادي وآخرون الذين التفوا حول الشيخ يأخذون منه العلوم وآخرون يستمعون إلى وعظه أيام رمضان وأيام الأحد من كل أسبوع وعلى طريقة هذا الشيخ تمرنت على الوعظ والإرشاد، وكان الشيخ صالح تقيّاً ورعًا لا يكلف أحدًا ما لا يطيق ويشكر كثيراً على الشيء القليل ويدعو لمن يتصدق له بناء على قوله تعالى ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ليس الشيخ صالح ممن يكتب الرسائل أو ينشئ القصائد غير أنه قال يومًا عند زيارته مركز التعليم في أغيغي.

شكرت الله ربي إذ حباني بآدم عبد الله ابن الإلوري
تلاميذي كثير بلا حساب وليس كمثله فيهم سروري

سـألـت الله ربـي أن يـزيـد   له عـمـرًا وأن يـرضى بشـكري

ومن تأمل في هذه الأبيات علم أن عاطفة الأبوة أو الأخوة العميقة تدفع النفس على انفجار الشعر منها فجأة مثال ذلك ما جاء في التي كانت ترقص رسول الله عندما كان في العهد وتقول : -

يا ربنا أبـق لنـا مـحـمـدًا   حـتى أراه يـافـعًـا وأمـردا

ثم أراه سـيـدا مـسـوّدًا   واكـبت اعـاديـه مـعًـا والحسَّـدا

وأعطه عزا يدوم أبدا

توفي الشيخ صالح ١٩٨٥م وقد نضب معين فكري من أتعاب المركز فلم أستطع أن أرثيه بشعر أو قصيدة ولكني اكتفيت بأن الله أكمل على يدي تربية ولده موسى الذي تولى مكانه اليوم برضى من الجماعة . (رحمه الله رحمة واسعة) .

●●●

الشيخ صالح بن محمد الأول
عاش ما بين ١٩٠٠م وبين ١٩٨٥م

الشيخ عمر أحمد الإمام الإبجي ١٩٠٩ - ١٩٧٤م

ولد في بيت علم وشرف ودين وكان والده عالـمًا نجيبًا تخرج من عند الشيخ البوصيري بن بدر الدين صاحب العسل .

وكان تلاميذ الشيخ أحمد كثيراً منهم الشيخ مالك أبو أم صالح والشيخ إبراهيم الدسوقي والشيخ عبد الر حمن صاحب القباء بربوة إيكوى تربى الشيخ عمر على يد إخوانه وأعمامه لأنه كان صبيّاً عندما مات والده فصار يتعلم من الشيخ الدسوقي تلميذ والده ، لهذا كان شريكًا للشيخ صالح سبط مالك وشريكًا للشيخ بشر بن عبد السلام الذي صار الآن كبير علماء إبجى وإمام أحد مساجد لاغوس ، ولما سكن عمر لاغوس صار يتعلم من الشيخ أحمد اليرباوي شيخ علماء لاغوس في زمانه وفي عا م ١٩٣٥م عندما زرت مدينة لاغوس أول مرة للتمرين على الوعظ والإرشاد أشار لي الشيخ صالح شريكه أن أراجعه في كل ما يتصدى أمامي من المسائل الدينية التي لا أعرفها فبذلك صار لى شيخًا وأستاذاً ثالثًا من والدي ، أتردد إليه عندما أتواجد في لاغوس وأتردد إلى الشيخ صالح عندما أتواجد في إبادن ومن هذين الشيخين تعلمت الكثير من العلوم العربية والإسلامية .

وفي هذه الأثناء جمعني الحظ السعيد برجل سوري اسمه السيد موسى الأمين كان بزازا ولكنه من رجال العلم والأدب ، كنت أزوره في محله وأستفيد منه الدقائق كل مرة ، وهو العربي الوحيد الذي أخذت منه العلم والثقافة أيام طلبي حج الشيخ عمر ١٩٦٠م وكان يباهي بي المشائخ أن يأتوه بمثلي مع علمه أن لي مشائخ آخرين ، وقد تزوج أختي التي جاءه منها ولدان ذكر وأنثى . تولى على منصب جده الإمام الإبجي عام ١٩٧١م وبقي في الإمامة حتى توفي كان الشيخ عمر ممن يقرض الأشعار على مستوى الأغاني والأ ناشيد الشعبية وعليها يمدح علماءه وعلماء حارته ومن قبيل ذلك ما قال عندما حج شيخه أحمد اليرباوي وحبسه القدر في عامه ثم رجع بعد عام ونصف بينما كان الحجاج يرجعون خلال ستة أشهر ، ومما قال الشيخ عمر في تلك الأثناء (ما بين ١٩٣٩ حتى ١٩٤٠) يريد أن يخبر الناس أن شيخه أ كمل أعمال الحج قبل أن يحبسه القدر من العودة إلى البلاد .

شــــــيخ زاكـي ذاهـبًــــــا إلـــى المـــديـــنـــة المـــنـــورة

بــعـــــد قـــــدومـــــه مكـة بـيـت الحــــرام المكـرمــــــة

هذان البيتان الباقيان بذاكرتي ولا أتذكر الباقي حتى أجد الورقة التي كتب عليها، رحم الله الجميع.

●●●

الشيخ عمر أحمد الإمام الإبجي
عاش ما بين ١٩٠٩م وبين ١٩٧٤م

الشيخ آدم نمعجي الكنوي (١٣٢٠هـ - ١٣٦٣هـ)

هو العلامة آدم بن محمد العربي بن آدم الكنوي الفندكي العطار ولد في بيت علم ودين وشرف وكان أجداده من العرب المغاربة سكنوا مدينة كانو حتى ولد الشيخ بها، وقد تربى تحت كنف عمه المسمى سالم بن عمر خازن الدولة أيام أمير كانو عباس ابن عبد الله.

تلقى الشيخ آدم علومه من عدة مشائخ كنويين كما تلقى من عدة مشائخ عرب مغاربة حتى بلغ عدد مشائخة أربعة عشر أستاذا فبرز ونبغ وبرع على أقرانه حتى فاق بعض أساتذته الذين لا يزالون في قيد الحياة عند نبوغة، أخبر عن نفسه في كتابه الاكتشاف المفيد أنه بعد أن أتم التعليم من أولئك الأساتذة مكث سنة كاملة يسأل الله أن يفتح عليه أبواب العلوم، ثم إنه خلا في خلوة عدة أيام بالزاوية القادرية فكشف الله الحجاب عن قلبه وشاهد عجائب ملكوت السماء والأرض، ووعى وجمع علومًا جمة وعاش مدة قصيرة وأنتج فوائد كثيرة ومات وترك ما يزيد على ستين كتابًا من منثور ومنظوم في مختلف الفنون، ومن أشهر تلاميذة الشيخ أبو بكر رمضان.

وأنا الكاتب لهذه السطور دخلت في جملة تلاميذه حيث تعرفت إليه بقصد الانتساب إلى الطريقة القادرية، ولما أدركته بحرًا لا ساحل له في العلوم انتظمت في سلك تلاميذه وبدأت أتثقف عليه بتقويم الإنشاء الصحيح وكان يصحح لى القصائد التي أتمرن بها والرسائل التى أتكلفها ثم أخذت منه علوم البلاغة والعروض والقافية ومبادئ المنطق والفسلفة والفلك والتصوف، وكان يحبني كثيرًا لأنني سميه وقد دعا لي بأدعية لازلت أنتفع بها حتى اليوم، وكان قد طلب إلي أن لا أتعشى إلا عنده دبر صلاة المغرب كل يوم وعشنا على ذلك لمدة ستة أشهر.

وكان آخر لقاءنا معه في أبيكوتا ما بين محطة آرو ولافينوا مع صاحب المطبعة محمد جمعة بمبولا ١٩٤٢م. رحمه الله تعالى.

صحح لي قصيدة في ذم الدنيا حضرني منها هذه الأبيات: -

نجيء ونمضي واحداً بعد واحد ومن قد مضى قد فات في الأرض يوسد
ومن قال إن الموت غاية كلنا فذاك عنيد أو بليد مقيد
فإن وراء الموت داران فيهما عذاب مقيم أو نعيم مسرمد

قرظ لي شرح قصيدة الكريم يقبل غير أن القصيدة ضاعت مع التفريظ ثم قرظ لي شرح الرائية الدرعية وطبع مع التفريظ في أبيكوتا كما قرظ لي شرح الميداني وقد طبع في أبيكوتا مع التقريظ .

وأورد هنا نص التقريظ الثالث : -

أقول والله يسمع وأنتم تسمعون أني لما وقفت على هذا الشرح العجيب ، والفتح القريب ، الصادر من سميي الأديب ، الذكي الأريب ، صرحت بأنه لا يستغنى عنه العالم اللبيب ، فأحرى المتعلم الحبيب ، أنه قد قاتل الجهل فاهزم جيوشه وكأني بالحاسد المعاند قد أعرض عنه لسوء حظه ، وعصيان ربه نعم ، فإن المعاصرة حرمان والمحاسدة عدوان وأنا لكم ناصح أمين فاقبلوا على هذا الشرح الثمين والمورد المعين وامسكوا بالحبل المتين واستندوا إلى الركن المكين كثر الله في المسلمين من أمثاله وأدام الله أيام آدم لنفع عباده وتنوير بلاده فإنه ربٌّ ما خاب من قصده ولا يئس من رجاه .

بقلم آدم نماجي الكنوي

إذا نظر القارئ إلى عبارة هذا الشيخ في هذا التقريظ وكيف قال سميي ولم يقل تلميذي علم ما في قلبه لتلميذه من التقدير والاحترام خلافًا للذين يتعالون ولو قرأت عليهم كتابًا واحدًا فقط ، لذلك كنت أعتز بهذا التقريظ وأعتبره شهادة كبرى في هذه البلاد قبل حصولي على إجازة الأزهر الشريف وبينهما ثلاثة أعوام فقط .

أجل : - توفي الشيخ آدم نماجي في مدينة ميدغري وهو في طريقه إلى الحج وزيارة البلدان العربية ١٩٤٤ .

ولما مات رثيته بقصيدة حقد عليَّ منها بعض العلماء وقالوا غلوت في مدحه . وهذه نبذة منها : -

بـكائـي هاج عـن مــــوت نماجـي وحـــزني عــاق عـن أكل الطعـــام

أيا أعـــداءه قـــد مــــات عنـكم فـــحـــيـــوا لا تمـوتوا بـالدوام

ألما مـــــات أنـتـم خـــــالـدون فكـل النفـس ذائقـــة الحـــمــــام

أيا شـــيــخى وأســـتــاذى نمـاجي بـيـــــاك الله فـي دار الســــلام

لقــد أخـــرجــتنى من كـل جــهل جــزاك الله خـــيـــراً يا إمـــامي

ومن قاس تقريظه السابق، وهو أستاذي وقاس مرتبته هذه مني وأنا تلميذ التمس لي عذرا وعلم أني ما غلوت في رثاءه وإنما اعترفت له بفضله.

●●●

الشيخ آدم نمعجي الكنوي
(١٣٢٠هـ - ١٣٦٣هـ)

الأساتذة العرب

أما أساتذتي من العرب الأقحاح فلا أستطيع إحصاءهم عددًا، ومنهم من استفدت منه موضوعًا كاملاً من مواضيع العلوم والبحوث، ومنهم من راجعته لحل مشكلة من فصول وأبواب في كتاب أو كتب، ولما سافرت إلى مصر لازمت الشيخ محمود أبو العيون الذي كان شيخ علماء الإسكندرية ثم تولى السكرتير العام للمعاهد الأزهرية، ومنهم الشيخ شلبي يحيي والشيخ عثمان مريزيق ومنهم الشيخ محمود شلتوت قبل أن يتولى المشيخة وبعد توليه ومنهم الإمام حسن البنا المرشد العام للإخوان.

وكم من عالم فقيه لقيته في السودان العربي في الخرطوم وأم درمان وغيرهما، وكم من عالم استفدت منه في مكة المكرمة كالسيد علوي مالكي ومحمد الأمين وفي المدينة المنورة، أولئك الذين اكتملت بهم ثقافتي ثم بارك الله عليَّ فيما أخذت من الجميع فجزاهم الله خيراً عني وعن سائر المسلمين.

وأختم بحثي هذا بما كنت أناجي به ربي منذ سنوات مع بعض تغييرات اقتضتها ظروف الأحوال :-

يا من يراني ولا أراه — وهو يجيب المضطرين
يا خالق الأرض والسماء — يا رازق الطير والجنين
يا واهب العمر بالحياة — يا قابض الروح بالمنون
يا خالقي يا رازقي — اختارني في العالمين
بأن أقوم بدينه — من بين قوم منكرين
فبدأت أتعب في حياتي — لأنني من عصاميين
حتى علوت سبعين عامًا — قضيت معظمها لديني
منها انقضى أربعون عامًا — في بث علمي للطالبين

كـم من بـلايـاكـم من خــــــزانـا   كـم مـن رزايـاكم مـــــــا يـهـين
حـلـت عـلـيَّ مـن الأعــــــــادي   من كـــــافـــريـن وحـــاســـدين
ومـن نصـــــارى ومــــســلمـين   رجـــــوت ربـي عـلـى اليــــقـين
فـي دفـع كـل بـلـيـــــــــــة   وشــــمـــــاتـة من شـــامـــتين
فــوجــدت ربـي كـمــا رجـوت   يـوتـنـي ســــــؤالـي كـل حـين
كـنت ذليــــلا صــــرت عـــزيزا   بفــــضـل أكــــرم الأكـــــرمين
كـنـت فـــريـدا صـــرت عـــديدا   يـا ليـت قـــــومي يـعلمـــــون
بـــأن ربــي أعـــــــــــــزنـــي   لـعـلـهـم يتـــــــذكـــــــرون
إن نـــبـــــــــــــذوا كـل آيـة   فـــــإنهـم ســـــوف يســــألـون
ولـــــم أزل ثَـــــمَّ أرتجـــــي   زيـادة الخـــيــــــر باليـــــقـين
مـن عـنـد ربـي ذي الجـــــــلال   مـــفـــيض خـــيـــر للمـــرتجين
مــــا كـــان ربي يـخــيـب راجي   ولا يـرد الســــــــــــائـلـين
بـل كــــان ظـني جـــــازمــــا   بـــالله رب العـــــــــــالمـين
إذ هـو أرحـم الـراحـــــــمين   بـل هو أصــــدق القـــــائلين
قـــد قـــال ادعـــو أســـتـجب   كـــــــــذاك نـنجـي المؤمـنـين
وأنا فـي حـــسـن ظن عـــبــدي   كـــــذاك نجــــزي المحـــسنين
فـكـم رأيـنـا مـن لـم يـصـلـوا   ولـم يصـــــومــــــوا في الأولـين
لكـنهـم ســـعـــدوا أخـــيـــرا   وحـــوســـبــوا في الصــالحين
لا زال ذكــــــراهـم دوامــــــا   تـتـلـى بـقـــــــرآنـنـا المبـين
منـهم حــبـيـب النـجـار يدعـــو   يا قــــومـي اتبـــعـــوا المرسلين

ورجـل مــــؤمـن بغـــــافــــر　　وامــــرأة فـــرعـــون ذي فـــتــــون

صــارووا مـن الســعـــداء حـقـــا　　عـــلـــى الأرائـــك يـــنـــظـــرون

مــــــا ذاك إلا بـفـــــــضل ربـي　　بلا حـــــســـــاب من الـثــــمين

فـــــــــامـنن عـلــيَّ بمـثـل هـذا　　ربـي ورب الـعـــــــــــــالـمين

يارب حـــقـق لي حــــسن ظـني　　كــــمــــا فــــعلت لـلصــــالحين

●●●

المراجع

١- إنفاق الميسور- لسلطان بللو .

٢- الاكتشاف المفيد- للشخ آدم نماج الكنوي .

٣- المقدمة- لابن خلدون .

٤- خريدة العجائب- لابن الوردي .

٥- الدعوة إلى الإسلام- لتوماس أرنولد الإنجليزي .

٦- أخبار القرون- للشيخ أحمد بن أبي بكر .

٧- تاريخ يوربا- لصمويل جونسن اليرباوي- بالإنجليزية .

٨- الإسلام فى لاغوس- آدم أنمشاهن بالإنجليزية .

٩- تاريخ مدينة عيبى- لعولا آفاشى- بالإنجليزية .

١٠- تاريخ علماء إبادن- للشيخ أحمد الرفاعي .

●●●

الفهرس

●●●

•• كتب للمؤلف

- تاريخ الدعوة إلى الله بين الأمس واليوم.
- تاريخ الدعوة الإسلامية.
- توجيه الدعوة والدعاة.
- فلسفة النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن الكريم والسنة.
- الإسلام وتقاليد الجاهلية.
- الإسلام فى نيجيريا وعثمان بن فودى.
- نظام التعليم العربى وتاريخه.
- موجز تاريخ نيجيريا.
- الإسلام اليوم وغداً فى نيجيريا.
- بالإضافة إلى كتب مدرسية أخرى تبلغ عشرين كتاباً.
- حقوق الإنسان فى الإسلام.
- حصاد المناسبات.

•••